
محمد رسول الله
والذين معه
ابراهيم أبو الأنبياء

السيرة النبوية



ابراهيم أبو الأنبياء

عبد الحميد جوده السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

« وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » .

« قرآن كريم »

١

نهض آزر بعد أن تناول عشاءه ولبس عباءته ، فالتفتت إليه زوجته إمتالى وكانت شابة وضيئة وقالت له :

— أتخرج في مثل هذه الساعة من الليل يا آزر ؟

فابتسم آزر وقال لها :

— ولن أعود قبل أن يشرق علينا ربنا شماش إله النور من أفقه الشرقى .

فلاح في وجه الزوجة كدر وزوت ما بين حاجبيها ، فذهب إليها وقال لها فى رفق :

— تعلمين يا إمتالى أن كبير الكهنة فى بابل — تقدست روحه — بعث إلىّ لأصنع تمثالا لإلهنا مردوخ فى أثناء احتفالات العيد الأكبر ، وإنى ذاهب إلى أبى ناحور لينظر فى النجوم ، وينبئنا بأفضل وقت للسفر ، وبما يخبئه لنا القدر .

ثم ضمها إليه وقال وهو يقبلها :

— أبى أبرع من تعلم السحر والتنجيم فى أور ، بل لا أظن أن فى بابل نفسها من يسمو إلى علمه .

فتشبثت به وقالت فى دلال :

— خذنى معك إلى بابل ، فأنا فى شوق إلى الركوع فى معبد مولانا مردوخ العظيم .

فضحك آزر وهو يصوب نظره إلى بطنها المنتفخ وقال :

— فى السنة القادمة يا حبيبتى ، وأرجو ألا يكون فى بطنك يومئذ ما يمنعك من الركوع .

وذهبت إلى تمثال للإله كان زوجها قد فرغ من صنعه قبل أن يقوم ليتناول عشاءه ، وحملته بين يديها وعادت فوضعته أمامها فى توقير ، وجاهدت لتركع ، إلا أنها أحست ألما ارتسمت آثاره على محياها ، فخف إليها آزر ولف ذراعه حولها فى حنان وقال :

— لا جدوى من تعذيب نفسك فقد دنت أيام وضعك . ولن أستطيع أن آخذك معى .

فقالت فى أسى :

— كنت أرجو أن أقدم قربانا لرب الأرباب وإله الآلهة أجمعين .

— غدا إن شئت نذهب إلى المعبد ونقدم إلى إلهنا نانّا ، إله القمر العظيم ، قربانا نتقرب به إليه .

— كنت أتمنى أن أقدم القربان إلى رب الأرباب مردوخ .

كان يؤمن فى قرارة نفسه أن مردوخ هو سيد الآلهة جميعا ، وأن نانا هو إله مدينتهم أور وهو نفسه الإله سين إله القمر ، وأن ولديه شماش القاضى الأعظم إله الشمس ، وعشتار العطوف إلهة الحرب وإلهة اللذة ، إن هى إلا آلهة فقدت كثيرا من سلطانها بعد أن انتصر عليها جميعا مردوخ . إلا أنه رأى أن يطيب نفسها فقال لها مواسيا :

— إن نانا يمثل مردوخ هنا فى بلادنا ، فإن قدمت إليه قربانا فكأنما قدمت قربانا إلى مردوخ العظيم .

فقالت فى نبرات تنم على أنها غلبت على أمرها :

— سأفعل ، بيد أنى أرجو إذا ما وصلت إلى بابل أن تقدم إلى رب الأرباب قربانا عنى ، لعله يغفر لى سيئاتى ويبارك فى عمرى .

— أنا واثق أن حياتك كلها حسنات لا تشوبها شائبة من خطايا . أنت بركة يا إعتالى ، ولتطيلن الآلهة أيامك على الأرض .

وقادها فى رفق إلى حيث كان فراشها وعاونها على أن تتمدد فيه ، ثم طفق يلثمها هنا وهناك فى هيام ، فرنت إليه بعينيها الواسعتين يشع منهما حب ورضا واستسلام وقالت :

— ظلمك أبوك إذ سماك آزر ، كيف يدعوك « النار » وأنت رقيق أرق من النسيم ؟ ! لعل نجومه خانته يوم نظر فيها ليختار لك اسما .

فرفت بسمة عذبة على شفتى آزر وقال :

— ما خابت أبدا نظرة أبى فى النجوم . أنا وديع يا حبيبتى ما دمت إلى جوارك لأنك لا تحركين غضبى ؛ أما إذا ثرت فإنى أضطرم كالنار وألتهم كل ما يعترض سبيلى .

وانتصب قائما وقال لها :

— نامى يا حبيبتى فى رعاية البعول السادة الكرام آلهتنا العظام .

ودار على عقبيه وانطلق إلى الباب وفتحه ثم أغلقه فى رفق وراءه . كانت الليلة حالكة السواد ، اختفت فيها جبال أور فى

الظلام ، وبدت السفن الراسية فى الميناء كأنها أشباح . وعكست صفحة الماء خيوطا واهنة من الضوء . وملأ السكون نفس آزر خشوعا فراح ينزل فى الدرج الموصل إلى الطريق فى تؤدة : فقد بنيت بيوت أور فوق الروابى لتأمن غوائل الفيضان ، إذ تقع المدينة عند مصب النهرين العظيمين دجلة والفرات اللذين يجريان بالخيرات .

وأحس آزر أن روحه تتصل بروح الكون العظيم . وبرغبة جامحة فى إقام الصلاة ، فرفع بصره إلى السماء ونظر فى النجوم فألفى كوكب المشترى بازغا فاستشعر أمنا ، فإلهه مردوخ رب الأرباب يرعاه ، فراح يتلو فى حرارة وابتهال وعيناه لا تحيدان عن المشترى سيد الآلهة جميعا :

ــ أى مردوخ العظيم . أى ربى ورب الآلهة جميعا . لقد قضت حكمتك ألا تغمض عينك أبدا عن عبيدك ورعاياك : فى النهار يكون عبيدك فى كنف شماس إله النور . وفى الليل يرعاهم نانا إلهنا القمر العظيم ، وإذا غاب نانا فى السماء الزهرة عشتار العطوف . إنها جميعا بأمرك تأتمر ، فإذا اختفت فى رحلتها الدائمة عن عيوننا ، وإذا ما عجزت بصائرنا عن أن تدركها ، تجليت علينا بنورك لأنك أرأف بنا من أن تترك دنيانا دون أن تتردد فى جنباتها الأنفاس الطاهرة ، أنفاس الآلهة الرحيمة بعبادها .

أى ربى مردوخ ، إنى ذاهب إلى ناحور . إلى من أسديت إليه النعمة الكبرى ، ورفعت عن عينيه الغطاء ليرى قبسا من أسرارك ويقرأ المسطور فى لوح قدرك ، لأستشيره فى أمر خروجى

إلى معبدك المطهر فى بابل ؛ فأطلعه يا إلهى على ما خبأته لى ، فإنى تارك إمتالى زوجتى العزيزة فى وقت هى فى أشد الحاجة إلى إكراما لوجهك . أى ربى مردوخ ، تقبل دعائى وسدد خطاى واهدنى سواء السبيل ، ووفقنى لأن أصنع لك تمثالا يليق بعظمتك يوم عيدك الكبير ، ترضى عنه ويرضى عنه ملكنا وإلهنا النمروذ ، ويرضى عنه الـ « أوريجاللو » كبير كهنتك ، ويرضى عنه الناس أجمعون .

وسار وهو لا يرفع عينيه عن كوكب المشترى رب الأرباب مردوخ ، وفى القلب إيمان وفى المقلتين دموع وعلى الشفتين تسبيح ، حتى إذا بلغ بيت أبيه راح يرقى فى الدرج ثم طرق الباب فى رفق . ومرت لحظات قبل أن ينفرج الباب عن جارية فى عينيها آثار النوم ، وتملأ أنفه رائحة البخور ، فقال للجارية :

— أبى فى غرفته ؟

فهزت رأسها أن نعم دون أن تنطق حرفا ، وأخذت تفرك عينيها بيديها ثم تثاءبت وأغلقت الباب خلفه ، وانطلق إلى حيث كان البخور يتصاعد فوقعت عيناه على أبيه فقال :

— عم مساء يا أبى .

— آزر ؟ ! ! مرحبا بك يا بنى . ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟

قال آزر ويده فى يد أبيه :

— أرسل إلى الـ « أوريجاللو » كبير كهنة إلهنا مردوخ ؛ لأصنع تمثالا للإله فى احتفالات العيد الكبير ، فجئت لتشير على بما أفعله .

فراح ناحور يقلب كف ابنه فى يده ويقول :

— أصابع صانع ماهر ، علمتك كيف تصنع تماثيل الآلهة فتفوقت علىّ وصرت أمهر صانع فى البلاد ، حتى إن الا «أورنجاللو» يبعث فى طلبك ليكون لك هذا الشرف العظيم ، شرف صنع تمثال إلهنا مردوخ فى عيده الكبير ، العيد الذى تفد فيه الآلهة كلها إلى معبده المعظم لتقدم له الطاعة والولاء والخضوع .

فقال آزر وقد غض من بصره حياء :

— إنما الفضل لك يا أبت .

— أنا فخور بك يا بنى .. أنت نعمة عظمى .. أنت مبارك يا آزر .. سيكون لك شأن عظيم يا بنى .. رأيت فى المنام أن نورا أضاء السماء قد خرج من صلبك . اسمع نصيحتى يا بنى : قدم الخضوع لإلهنا كل يوم بالتضحيات والصلوات والبخور . ليكن قلبك نقيا أمام ربك ، فهذا ما يرضى به المعبود من العبد . إن أنت قدمت له التوسل والدعاء والصلاة والسجود فى كل صباح ، فسيمنحك كل الكنوز ، وستزدهر أيامك بفضل منه . ثم عليك بالخوف فإن الخوف يولد الرفق ويرقق العاطفة . وإياك أن تنسى التضحية ، فإن التضحية تطيل العمر . والصلاة الصلاة فإن الصلاة تخلص من الإثم .

— إنى يا أبت عبد مطيع .

— اقترب يا بنى لأرقيك .

واقترب آزر من أبيه ، وراح ناحور يلقى البخور فى النار ويرتل بصوت أقرب إلى الهمس :

— السيد العظيم الإله مردوخ أرسلني ؛
لقد أحل رقيته المقدسة مكان رقيتي .
ووضع فمه المقدس مكان فمي ،
ووضع لعابه المقدس مكان لعابي .
ووضع صلاته المقدسة مكان صلاتي .
يأيتها الأرواح الشريرة ارجعي عن آزر .

ثم ألقى ناحور في النار بصورة ترمز إلى الشرور ، وراح يرقبها والنار تأكلها وهو باسر الوجه ، حتى إذا ما أتت عليها تهللت أساريره ، والتفت إلى ابنه وهو يبتسم وقال :

— اذهب ونم . وفي الفجر نخرج إلى المعبد لنرى ماذا سطر لك في لوح القدر .

ونهض آزر ونام حيث اعتاد أن ينام قبل أن يتزوج ، وقبيل الفجر أحس يدا تهزه في رفق ففتح عينيه ، فرأى أباه قائما عند رأسه يقول له :

— قم فتطهر لنذهب إلى المعبد .

وقام آزر واغتسل . ولما انتهى من تطهره ألفى أباه قد ارتدى ثوبا أبيض وتأهب للخروج ، فانطلقا في عماية الصبح إلى المعبد وفي يد آزر شاة .

وقال ناحور لابنه وهو ينظر إلى الشاة :

— ما أرأف الآلهة بنا ؛ كان أجدادنا يتقربون إليها بذبح أبنائهم ، ولكنها شفقة منها علينا أعلنت بقبولها أن نضحى لها بحيوان برىء من العيوب ؛ ألا ما أرحم الآلهة !

— رايت يا أبي رجلا يذبح ابنه فى مذبح شماش قربانا وزلفى .

— إنه نذر نذرا للإله وكان عليه أن يفى بنذره .

— نذرت إن وضعت إمتالى أنثى أن أهبها للمعبد .

— أتطمح أن تصبح كاهنة ؟

— لتكن مشيئة الآلهة سواء عندى أكاهنة كانت أم كانت مغنية أم فتاة من فتيات الهوى ما دامت هذه مشيئة الآلهة .

— لتفعل الآلهة بنا ما تشاء .

ودخل إلى المعبد ، ووضع ناحور موقدا أمام نانا وشماش ومردوخ ، ووضع أربع أوان من نبيذ السمسم على مائدة خلف كل موقد ، ووضع أرغفة ومزيجا من الزبد والعسل وبعض الملح . وراح ناحور ينفخ الموقد أمام نانا إله القمر وحارس مدينة أور ، ثم أخذ آزر فى يده وشخص ببصره إلى تمثال الإله وراح يتلو فى خشوع :

— آزر خادمك . ألا فاسمح له يا إلهى أن يقدم التضحية لجلالك ، ألا وارض عنه يا إلهى بحق وجهك الكريم .

وتناول ناحور الشاة وذبحها فى المذبح وهو يتلو :

— الحمل فداء لآزر ؛ لقد قدم حملا فداء عن حياته .. قدم رأس الحمل فداء عن رأسه .. قدم عنق الحمل فداء عن عنقه .. قدم صدر الحمل فداء عن صدره ؛ فتقبل منه تضحيته وبح له بسرك .

وشق بطن الشاة وأخرج منها الكبد مقر الحياة : واخذ ينعم النظر فيها ليرى نوايا الإله ، ليقرأ ما سطره لصاحب القربان فى

لوح قدره . ولاح فى وجه ناحور الاهتمام ، ودنا آزر منه وهو يحبس أنفاسه ، ومرت لحظات قلقة ثم قال ناحور :

— إمتالى .. إمتالى ..

فقال آزر فى فزع :

— ما بالها ؟

— تلد .. لا ، إنها لا تلد أنثى بل تضع غلاما .. غلاما يقترن اسمه بالسماء .. غلاما له شأن عظيم .

فقال آزر فى لهفة :

— وماذا ترى أيضا يا أبى ؟

— الطريق إلى بابل آمن ... اخرج مع القافلة التى ترحل بعد غد .

وقطب ناحور وجهه ولاح فيه خوف ، فأحس آزر رهبة وقال :

— ماذا ترى أيضا يا أبى ؟ : قل .. قل كل شىء .. لا تخف عنى شيئا ..

فقال ناحور فى صوت فيه رنة أسى :

— سحب داكنة تحجب وجه القمر .. وجه نانا ، وكسوف يغشى وجه شماش ، وأصنام الآلهة تخر على وجوهها .. خطب نازل .. شر مستطير .. آلهتنا تختفى .. تختفى إلى حين .. أنت .. أنت تحجبها .

وصمت ناحور وقال آزر فى لهفة :

— ثم ماذا ؟

فقال ناحور فى يأس :

— لم أعد أرى شيئا . . بردت الكبد ولم تعد فيها حياة .

ولاح فى وجهى الأب والابن وجوم ، والتفتا إلى حيث كان تمثال الإله مردوخ رب الأرباب وكبير الآلهة وفى قلبيهما رهبة ، وفى صدريهما ضيق ، ضيق من أتى فى حق الأرباب أمرا إدا .

كان تمثال مردوخ قائما فى مكانه بأذنيه الكبيرتين اللتين ترمزان إلى فهمه العميق الذى لا يحد ، يحمل سلاحه المقدس الذى قهر به تيامات إلهة الفضاء ، فمنحه سائر الآلهة حق تقرير المصائر مكافأة له ، وربض تحت قدميه الوحش الذى أخضعه ؛ كان ذلك منذ بدء الخليقة .

وتقدم ناحور نحو كبير الآلهة فى خشوع ، خافض الرأس خافق القلب ، يحاول أن يستجمع ذهنه الذى ذهب شعاعا من هول ما رأى فى كبد شاة التضحية ، قبل أن تختفى كل رؤية ، وراح يتلو من أعماقه فى حرارة وإيمان وابتهال :

— يا خالق البشر ، يا ساحر الآلهة وإله الكهنوت ، اغفر لى خطيئتى إن كنت أخطأت فى حق الأرباب ؛ لم تنطق شفتاى إلا بما رأت عيناى فى كبد الأضحية ، وقد رأتا ما أوحيت إلىّ وكشفت لى عن أسراره ، فإن كان ما رأت عيناى وحى شيطان ، فاعف عنى فقد جئت أستوحيك وقلبى عامر بالإخلاص .

وسالت العبرات على خدى ناحور فأحس كأن حملا ثقيلا

انزاح عن صدره ، والتفت إلى آزر والدموع تملأ عينيه ، ثم سار وسار ابنه فى أثره وهو صامت حائر لا يدرى تأويل ما تنبأ به أبوه ، وقد عجز عن أن يربط بين النور الذى رآه أبوه فى منامه يخرج من صلبه ليضىء السماء ، وبين أصنام الآلهة التى انكفأت على وجوهها يجللها الخزى والعار .

٢

ودع آزر زوجته إيمتالى وتركها فى رعاية تمثالين كبيرين رائعين أحدهما لكبير الآلهة مردوخ والآخر لنانا ، وتماثيل كثيرة للآلهة جميعا ، ثم خف ليلحق بالقافلة الخارجة من أور والمنطلقة إلى بابل لتبلغها قبل أول نيسان ، حتى يتمكن رجالها ونساؤها وشبانها وشاباتها من الاشتراك فى عيد رأس السنة ، عيد مردوخ الرائع الذى تفد فيه الآلهة من مدنها لتشترك فى عيد كبيرهم العظيم .

امتطى آزر حماره وسار فى طريق منحدر على جانبيه بيوت من الآجر شيدت على الروابى لتأمن خطر الفيضان ، ورأى على مرمى بصره ميناء أور وقد رست فيها السفن تحمل الذرة والسمسم والقمح وقام حولها الصناع يشيدون السفن أو يصلحونها . سار والسور الذى ضرب حول المدينة ليحميها من غضب النهرين إذا فاضت مياههما ، ودار مع الطريق فصارت الميناء خلفه ، ولاح على البعد الحرم المقدس وقد قامت فيه معابد الآلهة ، طبقات من الآجر مدرجة فى ارتفاعها . كان بصره لا يرى إلا جدرانها أما بصيرته فكانت ترى ممراتها وحجراتها وتماثيل الآلهة التى صنع أغلبها بيديه وكساها الذهب والفضة .

وخلف وراءه الشوارع الضيقة وانساب فى سهل شنغار المترامى على مدى البصر ، بين حقول القمح المتموج كالذهب ،

وقطعان الغنم والبقر وأشجار النخيل السامقة تكاد تسد الأفق .

ولاحت القافلة لعينيه فلكز حماره يحثه على الإسراع ، ويرجو أن يجد بين الخارجين إلى بابل بعض أصحابه ، فما أقسى السفر الطويل بلا رفيق . وراح يطوى الأرض وفى قلبه حرارة وشوق وفى رأسه أفكار ، فما استطاع أن ينسى نبوءة أبيه . كان يسترجع كل ما كان بينهما بعد أن غادر المعبد : « هل تطهرت جيداً يا آزر ؟ ألم ترتكب شيئاً يغضب الآلهة يا بنى ؟ ! .. أنا عبد مؤمن مطيع يا أبى .. ما الذى كسف الشمس وخسف القمر ؟ ! .. وما هذا الضوء الذى خرج من صلبك لينير السماء ؟ ! .. لعله وحى شيطان .. إذا قدمت يا بنى على مردوخ العظيم فابتهل إليه أن يرضى . وصل له فى خشوع وقدم له عجلا سميناً ليغفر لنا ذنوبنا ويغمرنا برحمته » .

وعادت إلى ذهنه صورة مردوخ كبير الآلهة ورب الأرباب وقد انكفأ على وجهه ، فارتجف رعباً وراح يطرد ذلك الخاطر من رأسه ، ويهرع ليلحق بالقافلة التى صارت على مرمى حجر منه .

كانت القافلة تموج بالناس والدواب موجاً ، شيوخ وعجائز ورجال ونساء من كل الطبقات ؛ من « العاميلو » الأحرار رجال الدين وموظفى الدولة ، و « المسكينو » أبناء الطبقة الوسطى ، والعبيد الذين كانوا يوقدون النيران بنوى البلح أو يسحقونه ليطعموا به البقر والحمير والبغال ، أو يغدون ويروحون بالأحمال على ظهور الرواحل تأهباً للمسير .

وراح آزر يجوس بين الناس يتلفت يميناً ويساراً يتفرس فى

الوجوه بحثا عن صديق . ووقعت عيناه على سحن يألفها ، وألقى السلام على كثيرين وابتسم لكثيرين ؛ بيد أنه لم يجد بينهم من تبتهج روحه بصحبته طوال الطريق ، وسمع صوتا يناديه :

— آزر ! .. آزر !

فراح يتلفت فى فرح فصاحب الصوت صديق حميم : والتقت عيناه بعينى الصديق فنادى فى ابتهاج :

— لوجال أيها العزيز ، أذاهب أنت إلى بابل ؟ !

وأشرق وجه لوجال بابتسامة عذبة وقال :

— الحق أنى ترددت كثيرا قبل الخروج . قلت فى نفسى : « إن الاحتفال بعيد رأس السنة فى أور كالاحتفال به فى بابل . لا فرق بينهما إلا أن الملك يحضر احتفالات بابل بنفسه . أما احتفالات أور فهو لا يشرفها بحضوره بل يرسل ملابسه لتحل مكانه فى المراسيم .

فقال آزر فى إيمان :

— بابل أرض مردوخ الطاهرة . إنها مباركة .

فضحك لوجال وقال :

— أقول رأيى ولا تغضب ؟ .

— قل ولا تقدح فى آلهتنا ، فأنا أعرفك سومرى متعصب .

— الصلاة فى معبد شماش كالصلاة فى معبد نانا . كالصلاة فى معبد عشتار . كالصلاة فى معبد مردوخ .

— لا . لا يا لوجال ، من قال إن الصلاة فى معبد كبير الآلهة ورب الأرباب كالصلاة فى معبد الأتباع والأبناء ؟

— ألم يكن إنليل كبيرَ الآلهة وربَّ الأرباب ؟

— كان ذلك قبل أن تنفيه الآلهة الأخرى فى مدينة « نفر » .

— أنا لا أدرى لماذا نفته الآلهة .

— فى الوقت الذى لم يكن الإنسان قد خلق بعد ، يوم كانت مدينة « نفر » لا يسكنها إلا الآلهة ، كان إنليل إله الهواء هو رب الأرباب ، وكانت ننليل عذراء المدينة ، وكانت أمنية أمها العجوز أن تزوج ابنتها من فتى مدينة الآلهة ورب الأرباب .

وذات يوم دعت الأم ابنتها وقالت لها :

— تمشى يا ابنتى العزيزة على شاطئ النهر ، وفى المجرى الصافى اغتسلى يا حبيبتى . فإن ذا العينين المشرقتين ، إنليل العظيم ، الراعى الذى بيده المصائر سيراك وسيشغف بك حبا .

فاتبعت ننليل نصائح أمها مغتبطة مسرورة ، وبينا هى تمشى على الشاطئ بعد أن اغتسلت فى المجرى الصافى ، رآها الأب إنليل وفتن بجمالها ، وراودها عن نفسها فأبت ، فحملها إلى قارب فى النهر واغتصبها ، فحملت سين إله القمر .

وفزعت الآلهة لما ارتكبه « إنليل » ، وقبضت عليه وقالت له : أيها الفاسق اخرج من المدينة .

وذهب إنليل إلى العالم السفلى ، إلى العالم الذى لا رجعة منه .

— أيعقل أن يرتكب إنليل مثل هذه الحماقة ؟

— لقد ارتكبها .

وراح لوجال يرتل فى حماسة :

— إنليل ذو الأمر ، إنليل الذى كلمته مقدسة ، الرب الذى

لا يبدل كلامه ، الذى يقدر المصائر إلى الأبد . الذى تبصر عيناه المتفرستان جميع الأقاليم ، الذى يتغلغل نوره المتعالى فى ضمائر البلدان جميعا ، يرتكب هذا الإثم ؟

— أجل ، ليلقى مصيره المحتوم ، ليعيش فى العالم الأسفل ، العالم الذى لا رجعة منه ، ليكون عبرة للبشر .

— إنليل الذى يقدر المصائر يلقى مصيره ؟ ! إنليل الذى يحكم إرادات القوة والسيادة والإمارة يخضع للقوة ؟ ! إنليل الذى تسجد له آلهة الأرض خشية ورهبة ، وتتذلل أمامه آلهة السماء يخضع للآلهة الأخرى ؟ ! إنليل الذى شعائره ومناسكه المطهرة مثل الأرض ثابتة لا يمكن محوها يرتكب مثل هذا الإثم ؟ ! إنليل الذى رهبته وخشيته تضاهيان السماء ، وظله منتشر على جميع الأقاليم ، وتساميه يبلغ قلب السماء يتردى فى المعصية ؟ إنليل الذى لا يجسر إله أن ينظر إليه تلقى به الآلهة فى العالم السفلى ؟ ! هذه أسطورة ابتدعها ملوككم أيها الساميون لتنصبوا مردوخ إلهكم كبيرا للآلهة وربا للأرباب .

— صه يا لوجال ، كفى أيها السومرى . إن كان هذا رأيك فلماذا تحج إلى مردوخ ؟ ولماذا تقدم له القرابين ؟

— إنى أحج لرب الأرباب . وأقدم القرابين للإله الساكن فى السماء الذى بيده لوح القدر ، سواء أكان اسمه إنليل أم مردوخ ، أم شماش أم سين أم نانا أم أنكى ، أم تيامات إلهة الفضاء التى زعمتم أن مردوخ هزمها قبل أن تصبح له السيادة المطلقة . أم أى من الأسماء التى يطلقها البشر على من بيده مصائر الكون والحياة .

وتذكر آزر ما أوحى مردوخ إلى أبيه لما نظر فى كبد الشاة من أن الآلهة انكفأت على وجوهها ، وها هو ذا لوجال ينال من الآلهة جميعا ؛ ترى أهذا هو تفسير ما رأى ناحور ؟ وكاد يستريح إلى ما خامره من رأى إلا أن صوتا همس فى أعماقه بأن ما يقوله صديقه لا يحط من شأن الآلهة ولا يجعلها تنكفئ على وجوهها ، إنه وإن كان ينكر أسماءها فهو يقر بقدرتها ويعبدها ويذبح فى مذابحها القرابين ويهريق من أجل رضاها دم الأضحيات .

وتحركت القافلة وانطلقت مخلفة وراءها أور الكلدانيين ، وآزر ولوجال يتجاذبان أطراف الحديث ، قال لوجال :

— لماذا جعلتم إنليل يرتكب هذه الفاحشة ؟

— إنه ارتكبها ونال جزاءه .

— لا ، أنا لا أستطيع أن أتصور أن إلها يضعف ويرتكب الخطايا .

— لا بد أن تنفذ النواميس الإلهية .

— وهل ترضى النواميس الإلهية بالفاحشة ؟

— لقد أقرت نواميسكم يا آل سومر ارتكاب الآلهة للفاحشة ، إن ملوكنا لم يبتدعوا قصة أنانا البغى المقدسة ، أنانا إلهتكم التى كانت تعبر السماء وتعبر الأرض .

— أنا لا أعرف قصتها .

— أما أنا فأحفظها عن ظهر قلب ، كان أبى يقصها علىّ : إن البستانى الذى نام معها يقول :

« وذات يوم ، بعد أن عبرت « مليكتى » السماء وعبرت

الأرض ، بعد أن قطعت بلاد « عيلام » وبلاد « شوبر » اقتربت البغى المقدسة « أنانا » من البستان ، ومن أثر وعثاء السفر غطت فى النوم ، فرأيتها عند حافة بستانى وجامعتها وقبلتها وعدت إلى مكانى . وطلع الفجر وأشرقت الشمس ، فاستيقظت أنانا وفطنت إلى ما وقع لها ، فجعلت تتلفت فزعة وجلة ، وهبت لتنتقم لما نالها ، فملأت جميع آبار البلاد بالدم ، فامتلأت جميع الأحراش والبساتين فى البلاد بالدماء . لقد صار العبيد حين يذهبون للاحتطاب لا يشربون إلا الدم ، والإماء إذا ما جئن للتزود بالماء لا يملأن قربهن إلا بالدم ، لقد قالت : لأجدن من جامعنى فى جميع أرجاء البلاد ، ولكنها لم تجد الذى جامعها » .

فقال لوجال وهو يهز رأسه نفيا :

— لا يستطيع عقلى أن يتصور أن إلها يغتصب إلهة ، أو أن بشرا يضطجع مع إلهة رأت أن تستريح فى ظل شجرة فى بستان .

— النواميس الإلهية لا بد أن تنفذ . إذا وقفت بين يدى مردوخ فادعه أن يغسل الشك من قلبك .

— سأفعل .

وقرأ آزر فى عينى صديقه الشك فقال له فى صدق :

— جاهد نفسك يا لوجال لتنجو من العالم السفلى عالم الأشرار ، العالم الذى لا رجعة منه .

وأغذت القافلة فى سيرها حتى لاح فى الأفق البعيد برج ، فقال قائل :

— برج عشتار قد ظهر .

وقال آخر فى انشراح :

ـ مدينة أوروك ندخلها قبل المساء .

والتفت آزر إلى لوجال وقال :

ـ عشتار العطوف إلهة اللذة ، بنت إلهنا سين وأخت شماش إله النور ، إنها إله ذكر فى الصباح وإلهة أنثى فى المساء .

فقال لوجال وهو يلوى شفته السفلى استهزاء :

ـ إنها أنثى فى المساء لتمنح الجميع اللذة ؛ سأكون هذه الليلة من عباد عشتار المخلصين .

وقرأ آزر فى عينى صديقه استخفافا فقال له :

ـ كفى سخرية . أخاف أن تنزل الآلهة غضبها علينا بسببك . اسمع نصيحتى يا لوجال وعد إلى أور ، حرام عليك أن تجشم نفسك متاعب السفر وقلبك خاو من الإيمان .

ـ إنى ذاهب إلى الآلهة لأصلى لها وأبتهل لتسكن الإيمان قلبى اعلم يا آزر أنه شقى من لا يعمر الإيمان قلبه .

وتدفقت القافلة من باب عشتار وانسابت فى طرقات مدينة أوروك ، واتخذت طريقها إلى المعبد الذى بنى على قمة جبل وارتفع مزاره حتى كاد يبلغ السماء . وحطت القافلة فى فناء المعبد ، وهرع البعض لتقديم القمح والذرة والسمسم والتين والبلح لمخازن الآلهة . وصعد آخرون للصلاة لعشتار وتقديم القرابين لها ، وأخذ الرجال ينظرون إلى عاهرات المعبد المقدسات اللاتى تمنطقن بالحبال وجلسن فى الطرقات يحرقن نوى الزيتون للآلهة .

والتفت لوجال إلى آزر وقال :

— هؤلاء الحريماتو اللائى من أجلهن أبقت عشتار على الرجل وسلمته إلى أيديهن .

ولم يسمع آزر شيئا مما قال .. كان مشغولا بأفكاره ؛ إنه ترك إيمتالى فى شهورها الأخيرة وقد نذر إن وضعت أنثى أن يهبها للمعبد . ستكون ابنته يوما إحدى هؤلاء البغايا المقدسات . لا .. إن العاهرات المقدسات ثلاث طبقات . الكزريت والسانيات والحريمات ؛ وهو يرجو يوم نذر ما فى بطن زوجه للمعبد أن تكون من طبقة الكزريت ، من العاهرات المقدسات اللائى يهبن أنفسهن مرة واحدة لمن يطلبهن من الرجال ، ثم يمتنعن عن الرجال ليصبحن كاهنات ككاهنة أور ابنة الكاهن العظيم ؛ فقد كانت على الدوام فى خياله كلما فكر أن يهب فلذة كبده للإله ، وما دار بخاطره يوما أن تكون من الحريماتو .

إن البغايا المقدسات جميعا يسكن فى المعبد ويعشن فى «الباجوم» . كلهن بنات الهوى ، ولكن ما أعظم البون بين أن تكون العاهرة المقدسة من الكزريت أو السانيات أو الحريماتو !

وقضيت الصلاة والمراسيم وهبط الرجال والنساء من المعبد . وعاد الرجال يطيلون النظر إلى العاهرات المقدسات اللاتى كن يحرقن نوى الزيتون للآلهة . وأخذوا يمرون أمامهن ويتفرسون فى وجوههن ، ثم يلقى كل من شاء من الرجال بقطعة من النقود فى حجر من يستهويه جمالها ، فتقوم وتتبعه وهى تعير جارتها أن التوفيق قد خانها لأن عشتار إلهة اللذة لم ترض عنها فى يومها ذاك .

وألقى لوجال قطعة من النقود فى حجر فتاة كانت ترنو إليه .

بعينين فيهما نداء ، فقامت منبسطة الأسارير خلفه وانطلقت وأسرع آزر مبتعدا إلى حيث يربط حماره ، وانصرم بعض الوقت ثم أقبل لوجال على صاحبه وقال :

— بوركت آلهة اللذة ، ولكن لو كان لى بنت ما وهبتها لعشتار ألبتة .

فقال آزر فى حماس :

— امرأتى حامل ، وقد نذرت إن وضعت أنثى أن أهبها للمعبد .

فقال لوجال ساخرا :

— حتى يعجزك أن تحصى عدد أزواجها .

فقال آزر مدافعا :

— إن من تهب نفسها للمعبد إنما تضحى بجسدها قربانا للآلهة ، فتضحيتها أسمى من تضحية من ينحر كبشا أو جديا أو ثورا . إن غايتها أسمى من إشباع شهوة جنسية . إن المرأة المؤمنة عندما تقدم جسدها إلى رجل غريب إنما تقدمه على مذبح الآلهة ، وبعد أن تفرغ من هذه التضحية يصبح من العسير إغراؤها ولو بمثل وزنها ذهبا .

— إنها تجارة ، بل أربح تجارة يمارسها الأغنياء ليزدادوا غنى ، هم يكنزون الأموال من دعارة جواريهم .

— إنها شعيرة من شعائر الدين ، وما كان كهان المعابد ليقبلوا هذا الدنس إن لم يكن يرضى عنه الآلهة .

— كهان المعابد ورجال الدين أغنى الناس ، إنهم راضون عن هذه التجارة ؛ لأنها تملأ خزائنهم ذهبا وفضة .

فقال آزر فى غضب :

— أنت فاسق يا لوجال لا تعرف شيئا .

فقال لوجال وهو يبتسم :

— ولكنى أعرف الحريماتو أكثر منك .

ثم راح يرتل فى نبرة أقرب إلى الغناء :

— لا تتزوج من حريماتو لا يحصى عدد أزواجها ؛
لأنها فى مصابك لن تشد أزرك ،
وستفترى عليك فى قضيتك :
ليس الاحترام أو الخضوع من صفاتها .
إنها ولا شك تقوض الدار ، أخرجها منها ،
تلك المرأة التى تطيل النظر فى أثر كل رجل غريب .
إن كل بيت تدخله ينهار ، ولا يفلح من يتزوجها .

* * *

وفى عماية الصبح تحرك الركب وانطلقت القافلة عبر السهول الخضراء المترامية على مد البصر . مروا فى طريقهم بأناس يقومون بتحديد أراضى الملاك وتأكيد الحماية الإلهية عليها ، وبفلاحين يطهرون الترع التى تقع على جوانبها أراضيهم ، ومروا بأراضى الأمراء التى يعمل فيها السجناء والأهالى سخرة : يشقون الترع ويشيدون الخزانات ويجهزون العجلات ويقومون بأعمال الحرث والزرع والحصاد .

ومروا بأرض بور فألفوا الفلاحين يعملون فيها بهمة ونشاط والعرق يتصبب من جباههم ، فقد كانت الأرض البور حقا لمن

يشغلها وملكا لمن يفلحها .

ورأوا المراكب الصغيرة تسير فى القنوات تنقل مواد البناء من أخشاب وأحجار ومعادن ، وترسو على الأرصفة بالقرب من بوابات المدن تنزل ما تحمل ، ثم تشحن بالغلات لتنقلها إلى منطقة أخرى أو تأخذ طريقها إلى موانى التصدير .

وبلغت القافلة مدينة شورباك مدينة نوح ، المدينة التى ضل أهلها فغضب الإله عليهم وأوحى إلى نوح أن اصنع الفلك واحمل فيه من اتبعك ، ثم جاء الطوفان فأغرق الكافرين .

وحطت القافلة فى فناء المعبد ، ودار بين الناس حديث الطوفان الذى غمر البلاد من تسعة قرون ، كان الطوفان حقيقة نسجت حولها الأساطير .

— قررت الآلهة فى مجتمعها هلاك ذرية البشر المفسدين ، وحمل الصالحين منهم فى سفينة كبيرة ليبنوا بيوتهم فى أماكن مطهرة ، وليشيدوا المعابد لإقامة الشرائع الإلهية .

استمر الطوفان سبعة أيام وسبع ليال واكتسح البلاد وكانت السفينة الضخمة تتقاذفها الأعاصير فى المياه الجارفة ، وظهر إله الشمس الذى نشر ضوءه على السماء والأرض ، وفتح زيو سدرا (نوح) شباكا فى الفلك العظيم ، وأنفذ البطل إله الشمس أشعته فى الفلك العظيم ، فسجد زيوسدرا للإله ، وذبح ثورا وكبشا .

— ألم تكن الملكية قد نزلت من السماء قبل الطوفان ؟

— نعم . أنزل التاج والعرش رمز الملكية من السماء . واكتملت العبادات والنواميس الإلهية المقدسة .

ـ لماذا غضبت الآلهة على البشر ، ما دامت هي التي أنزلت الملكية من السماء ، ورسمت للملوك النواميس والعبادات ؟

ـ لأن الملوك انحرفوا عن طريق السماء ، وأغرقوا شعوبهم في الضلالات ، فكان على السماء أن تتدخل لتطهر الأرض من المفسدين ، حتى يرثها العباد الصالحون .

فالتفت لوجال إلى آزر وقال :

ـ لقد ارتكبت الآلهة في مجتمعها شرورا تفوق كل شرور الناس ؛ سفكت الدماء ، وهتكت الأعراض ، واضطجعت الإلاهات مع البشر . ويا ما أكثر الآلهة التي جاءت من سفاح ؛ فلماذا تؤاخذ الناس وتنسى أنفسها ؟

فهب آزر مفزوعا وقال لصديقه :

ـ هذا فراق بيني وبينك يا لوجال .

وابتعد عنه مرعوبا ، وصوت أبيه ناحور يرن في أذنيه بالنبوءة التي رآها في كبد الشاة ، نبوءة انكفاء أصنام الآلهة على وجوهها ، فخفق قلبه واضطرب نفسه وجعل يتلفت في خوف ، خشية أن تصب عليهم الآلهة غضبها من السماء .

٣

— بابل .. باب الله .. الإيساجيل .. معبد مردوخ .

وارتفعت الأصوات بالابتهال إلى مردوخ رب الأرباب فقد وصلت القافلة إلى أرض بابل ، ولاحت للعيون الأبراج الضخمة الرابضة فوق أسوارها ، وبرج بابل المتسامى فى كبرياء يعلن للملأ أنه مزار مردوخ العظيم كبير آلهة البلاد .

وتقدم الرجال والنساء والعبيد والإماء على ضفة النهر فى خشوع وقلوبهم عامرة باليقين ، حتى لوجال طافت به موجة من إيمان هزته وجعلته يشخص ببصره إلى البرج الذى يعرج إلى السماء وهو خافق القلب يستشعر رهبة من المجهول ، من الغيب الذى يخفى فى جوفه أقدار الناس .

والتفت آزر إلى لوجال وقال :

— أريد أن أشترى أضحية قبل أن نذهب إلى الإيساجيل .

— إنى شحنت أضحيتى من أور فى قارب ، وقد فعل كثيرون مثل ما فعلت .

— ستتكلف فى نقلها مثل ثمنها .

— اتفقنا على أن ندفع ثلاثة شواقل من فضة ، لقاء نقل ثلاثة ثيران وستين رأسا من الغنم .

— ثلاثة شواقل لرحلة واحدة ؟ !

— استأجرنا قاربا كبيرا حمولته ٦٠ جورا .

— مثل هذا القارب لا يزيد ثمنه على عشرين شاقلا من فضة .

— لا تنس أننا فى الموسم يا آزر ، سعر النقل كسعر الشعير غير ثابت على مدار السنة . قد يصل ثمن الشعير فى موسم الحصاد إلى شاقل وثلثى شاقل للجور ، أما فى نهاية الموسم فيرتفع ثمنه إلى أكثر من ثلاثة شواقل ؛ وكذلك النقل يرتفع سعره فى المواسم ، وعيد رأس السنة أهم موسم للنقل ، فما أكثر الوافدين إلى بابل فى هذا العيد .

وقال آزر وهو يستخرج من جيبه سبيكة من الذهب :

— أريد أن أستبدل هذه بفضة .

— شاقل الذهب اليوم بعشرة شواقل من الفضة .

فقال آزر فى استياء :

— كان شاقل الذهب فى أور بأحد عشر شاقلا من الفضة ؛ فما أدراك أنه هنا بعشرة ؟

فقال لوجال وهو يبتسم فى خبث :

— إننا فى الموسم يا عزيزى آزر ، وما قيمة شاقل من الفضة فى سبيل الإله العظيم ، سبائك الذهب التى تملكها كلها من فضله ومن فضل تماثيله التى تصنعها .

— حقا لقد باركت الآلهة فى أصابعى وشرفتنى بأن أصنع تمثال رب الأرباب فى عيده الكبير .

— إنى ذاهب إلى المرفأ لتسلم أضحيتى وبضائعى .

— بضائعك ؟

— شحنت بعض الشعير .. الشعير فى سائر الأيام كالفضة فى الأسواق ، أما فى العيد فهو أفضل من الفضة ، سأبيعه وأشترى بشواقل الفضة جارية .

وصمت لوجال قليلا ثم قال :

— ما أجمل الجوارى اللائى يعرضن فى سوق بابل فى إدبار العيد الكبير !

وهم بأن يذهب إلى حيث ترسو القوارب بالمرفأ ليتسلم أضحيته وشعيره ، بيد أنه التفت إلى آزر وقال :

— أين ألقاك ؟

— سأذهب بعد أن أقدم قربانى إلى الا « أوريجاللو » .

— آسف ، نسيت أنك ستكون فى ضيافة الا « أوريجاللو » ، هنيئا لك : فضيوف كبير الكهنة ينزلون المعبد على الرحب والسعة .

فقال آزر فى كبرياء :

— ما دمت فى بابل فأنا فى ضيافة رب الأرباب .

وانطلق لوجال وبعض من كانوا فى القافلة إلى المرفأ لتسلم الأنعام التى حملوها فى السفينة ، وتقدم آخرون ليدخلوا المدينة المقدسة مدينة كبير الآلهة مردوخ العظيم ، وراح أحد رجال الدين يرتل قصيدة الخليقة ويروى كيف انتصر مردوخ على تيامات إلهة الفضاء :

— اختلطت مياه « تيامات » البحر بمياه « أبسو » المحيط ،
ومن ذلك الاختلاط ولدت الآلهة جميعا .
ولم يرضيا عما أنجبا .. فقررا أن يحطماها جميعا . . .

حملت تيامات الأم الكراهية لأبنائها .
أم الجميع خالقة الأشياء كلها ،
جمعت أسلحتها التي لا تبارى ، وولدت أفاعى ضخمة ،
حادة الأنياب لا قلب لها .
استبدلت الدم بالسم فى أجسادها ،
وألبست التنانين المخيفة ثوب الرعب ،
وأمرت بتدفق الأفاعى والزواحف الوحشية .
والوحوش الضارية والكلاب المزمجرة والرجال العقارب .
وانخلع قلب الآلهة لما رأت تيامات وجيشها .
وجاء مردوخ العظيم وقال : « أنا المنتقم .
لأقيدنّ تيامات فى الأغلال لتبقى الحياة لكم » .
ودارت المعركة . وانتصر مردوخ على تيامات .
وفى مجمع الآلهة توج مردوخ ربا للأرباب . ملكا على جميع الآلهة .

وأعلن مردوخ المنتصر عزمه على أن يعجن الطين بدمه ليخلق الإنسان .

واجتمعت الآلهة مرة أخرى . وأعلنت أسماءه الخمسين .

ومر الركب بالقلعة منطلقا إلى الطريق المقدس . ووقعت أعين الناس على بوابة عشتار وكانت رائعة غاية الروعة . فأخذوا يرمقونها فى إعجاب ، كانت مبنيين هائلين من الآجر . لكل مبنى باب من الأمام وآخر من الخلف وبينهما بهو . وقد زينت البوابة بصور حيوانات فى صفوف أفقية . بلغ عددها قرابة خمسمائة

وسبعين ، لونت بألوانها الطبيعية فجاءت البوابة آية تخلب ألباب الناس .

وانساب الركب فى الطريق المقدس وكان من بلاطات مربعة من الحجر الجيرى .

وكان على كل من جانبيه جدار يبلغ سمكه سبعة أمتار ، تعلوه أبراج نحتت عليها صور سباع بارزة ، تبدو كأنما تتهيأ للوثوب على من يقتحم الحرم .

وبلغ الركب الفناء الخارجى وكانت حوائطه مقسمة — على مسافات متساوية — بأعمدة مربعة حفرت فيها قنوات بالقرب من قواعدها وقممها . وانساب الناس إلى الفناء الأوسط من إحدى البوابات الكثيرة المكفتة بالبرونز ، وكان الفناء يزدان كذلك بأعمدة مربعة ، وفى نهاية البهو إلى الغرب كان هيكل مردوخ ؛ فما إن وقعت أعين الناس عليه حتى ضجوا بالدعاء والابتهال .

وهمس الناس فى خشوع :

— قدس الأقداس .

كانوا يتوقون إلى الدخول للمثول بين يدى الإله العظيم ، ولكن لم يكن مسموحا بالدخول إلا للكهنة والأمير . وراح آزر يتلفت فرأى خارج قدس الأقداس مذبحا ذهبيا ، ورأى بجانبه مذبحا آخر كبيرا لذبح الماشية ؛ فتذكر زوجته إمتالى وذلك الذى فى بطنها لم ير النور بعد . فذهب واشترى كبشا قدمه للكاهن ليذبحه قربانا للآلهة لتبارك له فى زوجه وفى ذلك الذى فى بطنها .

وعاد آزر إلى الطريق المقدس واتجه شمالا إلى حيث تقع

« الزفوة » . وهى مبنى مكون من مصاطب مبنى بعضها فوق بعض ، تدق كلما علت . كانت أشبه بهرم مدرج قاعدته مربع طول ضلعه ٣٧٠ مترا ، يقوم فى وسطه مصطبة ضخمة طول ضلعها ١٧٠ مترا ، وفوقها مصطبة ثالثة . فرابعة فخامسة . حتى تبلغ المصاطب ثمان .

وعزم آزر أن يصعد إلى قمة « الزفوة » . فاتجه إلى طريق يدور صاعدا حول طبقات البرج ، وراح يرقى فيه حتى إذا بلغ منتصفه وجد غرفة بها مقاعد يستريح عليها من يريدون أن يلتقطوا أنفاسهم قبل أن يستأنفوا الصعود إلى القمة . إلى حيث المزار . جلس آزر يستريح ، وسرعان ما طاف بذهنه قول أبيه له : « أنت مبارك يا آزر ، سيكون لك شأن عظيم يا بنى . رأيت فى المنام أن نورا أضاء السماء قد خرج من صلبك .. اسمع نصيحتى يا بنى ، قدم الخضوع لإلهك كل يوم بالتضحيات والصلوات والبخور .. » . فلم يطق التريث حتى يسترد أنفاسه . فهو فى شوق ليصل إلى المزار ليقدم صلاته إلى رب الأرباب ويحرق بين يديه البخور ، إن الآلهة هنالك فى السماء . وكلما عرج فى صعوده اقترب منها .

ونهض آزر واستأنف عروجه حتى إذا بلغ آخر طبقة وجد هيكلا كبيرا به سرير مزخرف . تقوم إلى جانبه مائدة من الذهب كان يعلم أن هذا المزار لا يمضى الليل فيه إلا امرأة قروية يختارها الإله من بين صويحباتها القادمات من الريف . فعزم على أن يتم صلاته قبل أن يسدل الليل أستاره ، فتلفت فرأى تمثالا لمردوخ

موضوعا فى كوة ، فاتجه إليه وسجد له فى خشوع ، وراح يبتهل إليه والدموع تسيل على خديه :

— يا إلهى ، يا من أنت أبى الذى ولدنى ، ساعدنى على الخروج من الظلام إلى النور ، واغفر لى خطاياى فقد صدق الحكماء حين قالوا :

لم يولد لأم طفل بلا خطيئة .

فالطفل الطاهر البرىء لم يشهد الوجود منذ القدم .

إلهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،

بارك لى فى إيمتالى ، فهى حاضرى ومستقبلى ،

وتقبل منى ما فى بطنها ، فإن هى وضعتها أنثى ،

فان فى ابنتى خلاصى .

إلهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،

أمّا إن جاء ما فى بطن إيمتالى ذكرا ،

كما رأى أبى فى وحيك إليه عندما نظر فى كبد الشاة ،

فاجعله يا إلهى مباركا ، واقبله خادما من خدامك ،

كاهنا من كهانك ، مصداقا لرؤيا أبى ، فقد رأى نورا يخرج من صلبى ينير السماء .

وتذكر ما رآه أبوه فى انكفاء الآلهة على وجوهها ، فقال وهو ينشج بالبكاء :

— إلهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،

إن كان بك علينا غضب فارفع غضبك عنا ، وأوح إلينا بما يرضيك فإننا مطيعون ، ولو أمرتنا أن نذبح أنفسنا قربانا لك ؛

إلهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،
بارك لنا فى أعمالنا فهى قرة أعيننا ،
وتقبل منا وطهر قلوبنا واهدنا واشرح صدورنا وزودنا بملائكة ذوى سماء لطيفة خيرة .

واستشعر آزر راحة . فنهض وراح يهبط فى الطريق المنحدر منشرح الصدر ، وانطلق إلى الـ « أوريجاللو » كبير الكهنة ، وقدم له نفسه ، فأمر الـ « أوريجاللو » أن يؤخذ آزر إلى حجرته ليبقى بها حتى يستدعى للاحتفال بعيد رب الأرباب الكبير .

واعتكف آزر فى حجرته يتطهر ويصلى ويدعو كبير الآلهة أن يوفقه لأن يصنع له تمثالا يرضاه .

وجاء أول نيسان وغص الطريق المقدس بالناس . وبمواكب الآلهة التى جاءت من أنحاء بابل لتشترك فى عيد مردوخ رب الأرباب ولتقدم له الولاء والخضوع ، وارتفعت أصوات الناس بالابتهالات :

— إلهى ! قلعتى ! اغفر لى . كن رحيما يا إلهى واعف عنى ...

إلهى استمع إلى تضرعى فأنت حقا يا إلهى أبى ، من مثلك يا إلهى يعفو عن سيئاتى ؟

وترتفع التوسلات ، ويضج المعبد بالدعاء ، وتنهمر الدموع من العيون ، ويقف الناس بالباب ينتظرون أن يأذن لهم الـ « أوريجاللو » بالدخول .

وانقضى أول نيسان ، وفى اليوم الثانى فى عماية الصبح استيقظ الـ « أوريجاللو » كبير الكهنة وطهر نفسه بماء النهر وارتدى ثوبا من

الكتان ، وانطلق إلى قدس الأقداس وحده . اتجه إلى الكوة المبطنة بالذهب التى وضع فيها تمثال مردوخ العظيم وتلا دعاء حارا . ثم خرج وفتح الأبواب فتدفق السحرة والمغنون إلى المعبد . وأطلق البخور وارتفعت الأصوت العذبة بالترتيلات . وقام السحرة بالطقوس والمراسيم وتقديم القرابين والشراب إلى الآلهة .

وانقضى اليوم ؛ وفى اليوم التالى فعل الا « أوريجاللو » ما فعله فى اليوم الأول . وعقب غروب الشمس بثلاث ساعات أرسل فى طلب ثلاثة صناع ونساج ليصنعوا تمثالين للإله ، فجاء آزر وزملاؤه . وعكف آزر على صنع تمثال ارتفاعه سبع أصابع . وراح يعمل وهو قلق متوتر الأعصاب يرجو من كل قلبه أن يرضى الإله عما يفعل .

وحان وقت الغداء فقدم لآزر صدر نعجة راح يلتهمه فى سرعة ؛ ليستأنف عمله فى همة ونشاط .

راح آزر يصنع الأذنين الكبيرتين اللتين ترمزان إلى حكمة مردوخ . وصوت فى أغواره يردد قول إله الحكمة له يوم نصب فى مجمع الآلهة إلها للآلهة : « أى بنى ! ما الذى لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه تعرفه أنت » .

وراح آزر يبتهل إلى مردوخ ويصنع تمثاله :

— أى خالقى . بارك لى فى عملى وتقبله منى ففيه قرة عينى .

وعكف على صنع الثعبان الذى يمسكه مردوخ فى يسراه .

وراح الوقت يمر وآزر غارق فى عمله لا يحس شيئا مما حوله . حتى إذا ما أتم صنع التمثال دفعه إلى الصائغ ليزينه بالذهب

والأحجار الكريمة . ثم ليلبسه ثوبه الأحمر ويلف حول وسطه حزاما من سعف النخل .

وجاء اليوم الرابع يوم الاحتفال السرى . فدخل الـ « أورنجاللو » قدس الأقداس وبقى به . كان ذلك قبل أن يتنفس الصبح بأربع ساعات . وراح أحد السحرة يطهر المعبد ويرشه بماء جلب من بئر الفرات ومن خزان دجلة .

ومر الوقت وأشرقت الشمس وانقضى على إشراقها ساعتان . فجاء ساحر آخر وأخذ يطهر المعبد مرة أخرى ويمسح بزيت الأرز مصاريع الأبواب . ويمسح الحوائط بجسم شاة قطع السياف رأسها لتوه . وخرج الرجلان إلى الخلاء يحمل أحدهما جسم الشاة ويحمل الآخر رأسها . وانطلقا فألقيا بالجسم والرأس فى الفرات . وبقيا خارج أسوار المدينة المقدسة حتى ينقضى العيد . فقد دنستهما الذبيحة .

وبقى كبير الكهنة فى قدس الأقداس حتى لا يتدنس بمشاهدة المعبد فى أثناء تطهيره . وبعد أن تمت مراسيم التطهير خرج الـ «أورنجاللو» بُعيد الساعة الثالثة . واستدعى الموظفين التابعين له . ثم انطلقوا فى خشوع إلى الخزانة لاستحضار « السماء الذهبية » .

وارتفعت أصوات فى الطريق المقدس . وترددت فى أرجاء المدينة المقدسة العتيقة همسات :

ـ الملك .. الملك .

كان الملك يتقدم فى الطريق المقدس فى موكب فخم وقد حمل الكهنة أمامه تمثال إله منطقته المحلى . ووصل الموكب الفخم إلى

فناء المعبد الرئيسى ، فبقى الملك وأخذ سائر الناس ينسحبون ، حتى إذا بقى الملك وحده ، خرج إليه الـ « أوريجاللو » من قدس الأقداس ، وخلع عنه شارات الملك والصولجان والحلقة والعصا ذات الأسنان والتاج ، ووضعت جميعا على مقعد أمام تمثال مردوخ ، ثم عاد إلى حيث كان الملك فضربه على خده ، ثم قاده إلى حضرة الإله فى قدس الأقداس ، وشد أذنيه وجعله يركع ، فأطرق الملك رأسه فى خشوع ثم راح يتلو :

— أنا لم أرتكب إثما يا سيد الأراضى ، أنا لم أهمل فى شأن ألوهيتك .

أنا لم أحطم بابل ولم آمر بتفرقتها .

أنا لم أزعزع أركان « الإيساجيل » ولم أنس طقوسه .

أنا لم أضرب زوارك على خدودهم ، ولم أسبب لهم مذلة .

لقد فاضت عنايتى على بابل ولم أهدم حوائطها .

فقال الـ « أوريجالو » للملك :

— لا تخف . سيباركك بعل إلى الأبد ، وسيحطم أعداءك ويدحر خصومك .

وغادر الملك الهيكل ، وسار الـ « أوريجاللو » بخطا ثقيلة ووجه باسر إلى حيث وضع شارات الملك فعاد بها ، وألبس الملك التاج وأعاد إليه الصولجان والحلقة والعصا ذات الأسنان ، وضربه مرة أخرى على خده . ولم تتساقط دموع الملك لا وهو يبتهل إلى الإله ولا بعد أن ضربه الـ « أوريجاللو » على خده ، فساد المكان وجوم فذلك فأل سيئ ، علامة على أن الإله لم يتقبل الصلاة ولا ما نحر له

من قرابين ، وأنه غاضب ، وأن السنة ستكون سنة وبال على الملك والمملكة .

وبعد الغروب ربط الأوريجاللو حزمة من أربعين قصبة بسعفة نخيل ، ووضعها فى حفرة وسط الفناء الرئيسى للمعبد ، وسقاها بالعسل والقشدة والزيت ، وجىء بعجل سمين ونبح ، وأشعل الملك غصنا قربه من حزمة القصب فتأججت فيها النيران .

مر اليوم السابع من أيام العيد فى إلباس مردوخ ثيابه بين ترتيل المغنين وإطلاق البخور وصلوات الرهبان .

وفى اليوم الثامن أقبل الملك تحف به حاشيته ، ودخل والأوريجاللو معه إلى قدس الأقداس ، وحمل الملك تمثال الإله ، وكان هو صاحب الحق فى وضعه على المحفة . وسار الموكب المقدس حتى إذا بلغ الفناء الرئيسى للمعبد توقف مردوخ بين الأستار ، فى مذبح مقام فى وسط الفناء الرئيسى .

وسمعت ضجة فى الطريق المقدس : كانت مواكب آلهة مدن بابل كلها قادمة .. إنها فى طريقها لتقديم ولائها لمردوخ العظيم : الإله سين ، والإله شماش ، والإلهة عشتار ، والإله ننجرسو ، وعشرات الآلهة الأخرى فى المحفات . والكهنة يرتلون الصلوات ، والناس يبتهلون فى حرارة ورجاء ، فقد فتحت أبواب السموات لاستقبال الدعوات . كانت اللحظة من أخطر لحظات الحياة . ففى هذا اليوم المبارك تتقرر أقدار السنة ، وكل ما يجرى فيها من أحداث إلى أن يأتى اليوم الثامن من نيسان من العام القابل .

وصلت الآلهة جميعا إلى الفناء الرئيسى للمعبد ، وارتفعت

الابتهالات والدعوات وغنى المغنون وأطلق البخور ، وسالت العبرات وارتفع النحيب والنشيج .

وسار مردوخ وسار خلفه الآلهة جميعا ، حتى إذا بلغوا هيكل الأقدار ؛ الهيكل الذى يخط فيه مردوخ مصائر الناس ، وضع مردوخ وأطلق البخور وقام الكهنة بالطقوس والمراسيم ، ثم أخذ الملك بيد إلهه وحمله وسار ، وانطلقت الآلهة خلفة صفا صفا .

ترك الموكب أبهاء المعبد وسار فى الطريق المقدس وقد غص بالناس . فلما رأوا رب الأرباب والآلهة جميعا خلفه ؛ اضطربت قلوبهم رهبة وخروا ساجدين ، واستأنف الموكب المقدس طريقه . فاتجه شمالا واجتاز بوابة عشتار حتى أوفى على الفرات .

كان ينتظر مقدم كبير الآلهة قارب مقدس ، وكانت قوارب أخرى تنتظر سائر الآلهة . ودخل مردوخ إله الآلهة وخالق البشر فى قاربه . ودخلت الآلهة الأخرى فى قواربها ؛ وراحت القوارب التى تحمل بعول بابل تتهادى على صفحة الفرات ، بين تراتيل المنشدين وغناء المغنين وصلوات الكهنة وابتهالات الناس .

ووصلت القوارب إلى الشاطئ الآخر حيث يقوم الا « إيزور » ، معبد الصلوات . وأخذ الملك بيد مردوخ فحمله وخرج من قاربه ، وخرجت الآلهة الأخرى من قواربها لتسير خلفه صفا صفا :

وانطلق الركب المقدس إلى معبد الصلوات حيث وضع رب الأرباب ، ودخل عليه الآلهة إله فى إثر إله ، وكان كلما دخل عليه إله حياه فى رهبة وركع أمامه ؛ كانت التحية تنطلق من أفواه

الكهنة مضطربة مرتجفة ، وكانوا يركعون فى خشوع وقد حبسوا الأنفاس !

وترك كبير الآلهة مع الآلهة الذين يمثلونه فى البلدان ويستمدون منه سلطانهم ، وأغلقت الأبواب ؛ وجاء الناس من كل فج يحجون إلى الـ « إيزور » معبد الصلوات ، حيث اجتمع الآلهة جميعا فى صعيد واحد يستمعون إلى نداءات البشر .

وراح الكهنة يعدون الصحاف الرئيسية التى تقدم للآلهة : إن الناموس يقضى بتقديم واحد وعشرين خروفا عمر كل منها سنتان . وأربع نعاج غذيت باللبن ؛ وخمس وعشرين نعجة من المرتبة الثانية ؛ وثورين سمينين . وعجل رضيع ، وثمانية حملان . وستين طيرا من نوعين مختلفين ؛ وثلاث دجاجات . وسبع بطات . وأربعة خنازير من المستنقعات . وثلاث من بيض الدجاج ، وثلاث من بيض البط .

وأخذ كهنة آخرون يعدون الشراب فى أوانى الذهب . إن لعشتار وحدها اثنى عشر إناء من النبيذ المعصور . ولسين أو نانا إله القمر عشرة ، وللآلهة الأخرى أوانى تختلف فى العدد وإن كان شرابها جميعا من النبيذ . ذلك فى الغداء والعشاء . أما فى الصباح فلا تشرب الآلهة إلا اللبن المصفى ، ويقدم لها فى أوانى من المرمر .

وركب آزر فى قارب مع القاصدين إلى الـ « إيزور » ، وراح القارب يتمايل فوق مياه الفرات يكاد ينوء بالناس والناس ذاهلون عن الخطر المحدق بهم . فقد كانوا مشغولين بآلهتهم . وبلغ القارب شاطئ معبد الصلاة وكان غاصا بالناس . فقفز إليه آزر

وجعل يشق طريقه ويدفع الناس بمنكبيه حتى وقف أمام تمثال لمردوخ قائم فى مشكاة فى الحائط ، فركع له وقال فى حرارة :

— مولاى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة :

إلهى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

إلهتى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

أيها الإله الذى أعرفه أو الذى لست أعرفه ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

أيتها الآلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

ألا فليخف الغضب فى قلب مولاى .

ليهدأ الإله الذى أعرفه أو الذى لا أعرفه .

لتهدأ الإلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها .

أيها الإله اغفر ذنوبى ، فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

أيتها الإلهة اغفرى ذنوبى فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

أيتها الآلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها ،

اغفرى ذنوبى فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

مرت أيام العيد والناس يحجون إلى الـ « إيزور » معبد الصلوات ، وبدأ الهمس يسرى بين الناس فيرتسم الهلع على الوجوه وترتفع حرارة الابتهالات وينبعث الدعاء من أعماق القلوب .

وجاء اليوم الحادى عشر من شهر نيسان آخر أيام العيد الكبير ، فوفد الملك تحف به حاشيته والـ « أوريجاللو » والكهنة والمغنون ، ودخل الملك وأخذ بيد مردوخ فحمله وسار ومن خلفه الآلهة جميعا

صفا صفا ...

وانطلق الركب المقدس إلى نهر الفرات ، وتهادت القوارب المقدسة على صفحة مائه ، واجتاز الركب بوابة عشتار ، وراح الناس يتطلعون إلى وجه الملك فى إشفاق ويتهامسون فيعلو وجوههم الرعب ، ويتلفتون فى خوف كأنما ستنقض السماء عليهم أو سيخطفهم المجهول .

وسار الركب فى الطريق المقدس ، ولاح برج بابل شامخا كأنما يتطاول لينطح السماء . وعاد الموكب إلى المعبد من حيث بدأ ، ودخل الملك وال « أوربجاللو » إلى قدس الأقداس ، ووضع مردوخ فى مشكاته المذهبة وركع الملك وأدى الصلاة ، ثم خرج وكبير الكهنة فى أثره .

وخرجت الآلهة لتتفرق فى البلاد بعد أن اجتمعت برب الأرباب وقدمت له الخضوع والولاء ، وعرفت ما كتبه للناس فى لوح قدره .

وذهب لوجال إلى السوق وباع شعيره بشواقل كثيرة ، واشترى جارية ، وتسلم من البائع ضمانا بعدم وجود عيوب بها ، ثم انطلق لينضم إلى القافلة العائدة إلى أور .

والتقى لوجال وآزر ، ولما رأى آزر الجارية قال له لوجال :

— اشتريتها بعشرة شواقل .

ثم ضحك وقال :

— وقد بعت جحشى بعشرين شاقلا .

قال آزر وهو يبتسم :

ــ أى أنك بثمن الجحش تشترى جاريتين .

وفهمها لوجال فقال :

ــ ولكنى لم أشتر إلا جارية واحدة .

وظهر فى وجه لوجال أنه تذكر شيئا ؛ ورأى آزر شرود نظرته فقال له :

ــ فيم تفكر ؟

ــ أسمعت ما همس به الناس ؟

قال آزر فى اهتمام :

ــ لا . وبم همسوا ؟

ــ قالوا إن الملك لم يبك وهو يصلى لمردوخ . ولم تنهمر دموعه لما ضربه الأوريجاللو على خده .

ــ وكيف عرف الناس ذلك ، إذا كان الملك والأوريجاللو وحدهما فى حضرة الإله ؟

ــ نزل بقلب كبير الكهنة رعب شديد ، خاف من غضب الآلهة فأفضى إلى الكهنة المقربين بمخاوفه .

ــ ولم يحفظ الكهنة المقربون السر فباحوا به للمقربين منهم ؟

ــ هذا ما حدث ؛ وقد أفضى هؤلاء بالسر إلى المقربين منهم فذاع النبأ بين الناس .

ــ ولكنى لم أسمع همس الناس .

ــ كنت مشغولا فى صلاتك .

وشرد آزر وتذكر ما رآه أبوه فى كبد الأضحية ؛ لقد رأى أن الآلهة جميعا انكفأت على وجوهها فنزل بقلبه هم ثقيل ،

وانتشرت فى صدره رهبة وغمغم :

— خطب نازل .

ولم يسمع لوجال ما يقول فسأله :

— ماذا تقول ؟

— خطب نازل .. لقد غضبت الآلهة علينا .. جمدت الدموع فى عينى الملك . لم يذرف الملك الدموع .. فسنذرفها نحن .. سنئن .. سنتألم .

٤

ارتفع صراخ مولود فى بيت آزر . فقد وضعت إيمتالى ما فى بطنها وجاء ذكرا . كان الليل حالك السواد ، وكان الضوء المنبعث من المسرجه خافتا ، فالفتيلة الصغيرة الطافية فوق سطح الزيت فى الإناء الفخارى لا ترسل إلا نورا يجاهد أن يبدد فحمة الليل الجاثمة على أنفاسه ، بيد أن إيمتالى أحست نورا يغمر المكان بعد أن خرج منها ما كان فى أحشائها .

كانت قبل أن تضع حملها خائفة قلقة ، تخشى آلام الوضع التى كان النسوة يسهبن فى وصفها ، ولكنها عندما وضعت حملها لم تستشعر ألما ، فقد طاف بها نعاس لذيذ واستيقظت منه على بكاء وليدها ، فمس أذنيها مسا رقيقا كأعذب الألحان ، وخفق قلبها بالحنان ، وتفتحت نفسها للحياة . لقد صار للحياة معنى آخر وطعم آخر بعد أن نام وليدها إلى جوارها : معنى أعمق من المعنى الذى كانت تفهمه يوم كانت حياتها كلها لآزر ، وطعم ألذ من طعم الحياة يوم كانت تعيش فى كنف زوجها بلا ولد .

ونامت فى البيت الكبير مع وليدها وحدهما بعد أن انطلقت الجارية إلى بيت ناحور لتخبره أن إيمتالى وضعت ذكرا ، وليقوم الجد بالصلاة شكرا للآلهة على ما أنعمت ، فلم تحس وحشة بل استشعرت أنسا وأمنا .

وطرقت الجارية باب ناحور ، وانفرج الباب عن جارية تفرك عينيها فقالت جارية آزر :

— أين السيد الكبير ؟

— نائم فى غرفته . ما الذى جاء بك الساعة ؟

ولم تحر الجارية جوابا ، وانطلقت فى الدهليز القصير إلى فناء الدار الرئيسى حيث قامت حوله غرف الطبقة السفلى ، ثم اتجهت إلى السلم مارة بالأعمدة السامقة التى ترتكز عليها الشرفة الخشبية التى تدور حول البيت من الداخل ، وراحت ترقى فى الدرج حتى بلغت الشرفة التى تؤدى إلى غرف الطبقة الثانية .

واتجهت إلى غرفة السيد الكبير وطرقت الباب فى رفق ، ومرت لحظات ثم فتح الباب عن ناحور . كان حليق الرأس واللحية لكأنما كان كاهنا من كهنة الآلهة ، وقد خلفت يد السنين آثارها فى وجهه وحول عينيه ، فما إن وقعت عيناه على الجارية حتى قال :

— وضعت إمتالى !

فهزت الجارية رأسها أن نعم .

— وضعت ذكرا !

وقالت الجارية فى فرح :

— لكأنه القمر .

ورفع ناحور عينيه إلى السماء ، كانت ليلة بلا قمر ولا نجوم فأحس انقباضا . كان يرجو أن يولد حفيده فى ليلة من الليالى التى يتجلى فيها الإله نانا ، فى ليلة يكتمل فيها بدرا ، ليكون لحفيده

نصيب من الخير العميم الذى يصيب المحظوظين ممن يولدون تحت عين إله القمر .

وأعاد عينيه إلى وجه الجارية وقال :

— عودى لسيدتك وقولى لها إنى قادم .

وانصرفت الجارية ، ودخل الجد ليتطهر قبل أن ينطلق ليصلى لحفيده ويدعو الآلهة أن تباركه ، وأن يبالغ فى الدعاء ليعوضه عن سوء الطالع الذى جعله يفد إلى الدنيا فى يوم اختفت فيه الآلهة فى القبة الزرقاء .

وانساب ناحور فى سواد الليل إلى بيت ابنه وهو يفكر فى اسم يطلقه عليه . خطر بباله أن يسميه ناحور تخليدا لاسمه ، واستراح للفكرة فراح يوسع من خطوه ليعلن بذلك الاسم أمام الآلهة ، ويتوسل إليها أن يكون مباركا .

وبلغ ناحور بيت ابنه ، ولم يصعد إلى الطبقة العليا حيث ترقد إيمتالى وحفيده بل عرج إلى معبد الدار الخاص . كان غرفة مستطيلة ضيقة يتوسطها مصلى ومحراب ، وتحت بلاطها قبو يدفن فيه موتى الأسرة .

ركع ناحور أمام تمثال إله القمر وراح يصلى فى خشوع ويدعو ويبتهل :

— أيها الأب نانا ، إنى أذرف الدموع لعظمتك .

حتى يرق لنا قلبك وتقف إلى جانبنا .

إن ابنى آزر أيها الإله العظيم قد أنجب ولدا ،

وإنى أسميه ناحور وأهبه لك .

فاجعل سيد الحكمة يهبه قبسا من حكمته ، ويطعمه من « طعام الحياة » ،

ويسقيه يا إلهى من « ماء الحياة » .

أيها الأب نانا يسِّره لما يرضيك ، واحفظه من أن يتردى فى العالم السفلى ، ولا تكتب عليه أن يذهب إلى « الأرض التى لا رجعة منها » . أنت عادل أيها الأب العظيم ، وقد وهبته لك فتقبله خادما للسماء المقدسة ، خادما للآلهة ، وامنحه يا إلهى اللمسة المقدسة التى منحتها لأبيه ، حتى يصنع لعظمتك ولعظمة البعول الكرام تماثيل ترضى عنها ، ويرضى عنها السادة الآلهة فى السماء .

واستغرق ناحور فى الركوع وإطلاق البخور حتى بعث إله الشمس شماش أشعته فغمرت المعبد ، وتعلق البخور بها فبدت كستائر شفافة من الفضة ، فنهض وانطلق إلى الطبقة العليا حيث ترقد إمتالى ووليدها .

وألقى على إمتالى تحية رقيقة ، ثم مال وحمل حفيده ورفعه وقبله ، ثم عاد يتفرس فى وجهه ويقول :

— سميته ناحور ، وصليت للآلهة عسى أن تتقبله بقبول حسن ؟

فقالت إمتالى وهى تتحامى أن تلتقى عيناها بعينيه :

— ناحور اسم عزيز علينا ، حبيب إلى قلوبنا ؛ ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

فقالت فى ارتباك :

— كنا اتفقنا أنا وآزر أن نطلق اسم ناحور على أول أولادنا الذكور .

— وما الذى حدث ؟

— جاءنى هاتف فى المنام وقال لى سميه « إبراهيم » .

وساد الصمت بينهما برهة وقالت إمتالى :

— هذه مشيئة الآلهة . سأسميه « إبراهيم » ، وسأسمى أول مولود ذكر أضعه بعده « ناحور » . فناحور اسم غال عندنا ، وسأسمى الذى بعده « هاران » تبركا باسم عمه الحبيب .

وشرد ناحور يفكر ، فمعنى « إبراهيم » أبو القبائل .. أبو الأمم . وقد رأى فى منامه أن نورا خرج من صلب ابنه أضاء السماء . وها هى ذى إمتالى تسمع فى منامها هاتفا يدعوها أن تسمى ولدها « إبراهيم » ، أن تسميه أبا الأمم ، فتهللت أساريره وانقشعت من صدره موجة الأسى التى طافت به لما أعرضت إمتالى عن اسمه . إنه رأى رؤيا ورأت إمتالى رؤيا . فقال فى ابتهال :

— « إبراهيم » اسم عظيم .

ونظر إلى حفيده الذى كان لا يزال بين يديه نظرة طويلة ثم قال :

— سيكون لك شأن عظيم مع الآلهة ، سيقترن اسمك بالسماء ، سيتألق نجمك فى القبة الزرقاء .

وخرج ناحور منشرح الصدر ليقدم للآلهة قربانا اعترافا بفضلها ، وشكرا على النعمة التى أنعمت بها على آله ، وفداء للوليد الذى رأى أول ما رأى فى يومه الأول نور شماش إله النور .

ومرت على إمتالى أيام وهى سعيدة بإبراهيم ، متلهفة على عودة

آزر ليرى ابنه الحبيب .

وذات ليلة دخلت الجارية على سيدتها فرحة وقالت :

— وصلت القافلة القادمة من بابل ، وعما قليل سيكون سيدى هنـــا .

ونهضت إمتالى تتزين وتتأهب لاستقبال الزوج الغائب ، فمشطت شعرها وجعدته من أمام ليتموج على جبينها ؛ وتركت ذوائبه تتهدل على كتفيها ، وارتدت قميصا طويلا ، وزينت معصمها بأسورة ، ثم استبقت إلى الباب ترقب مجىء زوجها .

وصعد آزر فى الدرج الداخلى وهو ينظر إلى أعلى ؛ كان الظلام دامسا فقد كان نور المسرجة التى تضىء داخل الدار خافتا واهنا ، وعلى الرغم من الظلام فقد رأى زوجته بعين بصيرته ، فراح يهرول فى الدرج حتى بلغها واحتواها بين ذراعيه ، ودخلا معا لتقص إمتالى على زوجها كيف وضعت وليدها ؛ وكيف جاءها هاتف فى المنام يأمرها أن تدعوه إبراهيم .

وعاد آزر إلى صنع تماثيل الآلهة وبيعها فى الأسواق ، وكان وحيدا ، وكان يجد مشقة فى الجمع بين صنع تماثيله والخروج لعرضها على الناس أمام معبد الإله نانا ، فراح يتعجل مرور الزمن ليشب إبراهيم ويعاونه فى بيع تماثيل الآلهة التى يخلقها بيديه .

وجاء لوجال يزور صديقه ويهنئه بالمولود ؛ فاجتمعا فى غرفة الاستقبال المقابلة لمدخل الدار ، ودار الحديث بينهما فقال لوجال وهو يدنو برأسه من آزر :

— تذكر أنى عرضت عليك ونحن فى الطريق أن نكوّن شركة

معا ، وأن يكون لكل منا نصيب على الشيوع فى الفضة والتجارة والعبيد والإماء ، وأن تتسع معاملاتنا فتشمل الخارج والداخل .

— تعلم يا لوجال أنى لا أمتلك مالا .

— سيكون رأس مال الشركة مينا واحدا من الفضة (٥٠٥ جم).

— أنا لا أستطيع أن أدفع نصف هذا القدر .

فقال لوجال لصاحبه وهو يبتسم :

— أنت تملك هذا البيت ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— يمكنك أن تقترض المبلغ من معبد الإله نانا بضمان هذا البيت .

— وفائدة المبلغ ؟

— تسدد من الأرباح .

— وما الذى يضطرنى إلى هذا ؟ أنا رجل قانع .. أنا سعيد بحياتى هذه .

— أنت فى حاجة إلى مال كثير يا آزر .

— ماذا أفعل به ؟

فرمقه لوجال بنظرة خبيثة وقال :

— لماذا لم تعين كاهنا فى معبد إله القمر يا آزر ؟

— لأننى لست من أبناء الأمراء ، ولأن الفأل لم يرشحنى لأن أكون كاهنا .

وضحك لوجال ضحكة ممدودة وقال :

— الفأل ؟ ! أتصدق هذا يا آزر ؟ إنك لم تصبح كاهنا لأنك

لا تملك المال الذى يرفعك إلى مرتبة الكهانة .

فقال آزر فى فزع :

— اسكت يا لوجال .. أنت كافر .. كافر .

ولم يمسك لوجال لسانه واستمر يقول :

— لو أنك دفعت للأورنجاللو فى بابل مالا وفيرا لكان الفأل اختارك ، ولكنت اليوم كاهنا أو كاهنا أكبر للإله نانا .

فقال آزر وهو يضع سبابتيه فى أذنيه حتى لا يسمع ما يقوله صديقه فى حق الآلهة :

— اسكت يا كافر .. لو لم تكن صديقى لوشيت بك ..

— هذه هى الحقيقة يا آزر ، ولكنك لا تحب أن ترى الحقيقة : إنها تجارة .. بل أروج تجارة فى بابل . لو عرف عنى الصلاح الذى عرف عنك لوضعت كل ما أملك ، بل لاستدنت من الأصدقاء ومن المعابد لأضع مبلغا ضخما فى يد الأورنجاللو ليجعل الآلهة فى مجمعها تختارنى لأكون كاهنا من كبار كهنة الهياكل ؛ لأصبح شخصية هامة تتدفق شواقل الذهب والفضة إلى خزانتى ؛ ولكنى فاسق يا آزر ، وإنى أدفع الآن ثمن ذلك الفسوق ، وأبحث عن مورد آخر لأكسب مالا يرفع قدرى ، ويجعلنى أهلا لأن أدعى لحفلات الملك واحتفالات رجال الدين :

— لن أشاركك أبدا يا لوجال .

— لماذا ؟

— لأن تجارتك ستبور ، لن تباركها الآلهة .

— أنت واهم يا آزر ، الآلهة لا تبارك إلا تجارة الفاسقين لأن

الدنيا لهم ، تلفت يا عزيزى فى أور وقل لى : من من الصالحين يملك مالا ؟

فقال آزر فى حماس :

ـ الملك ورجال الدين .

فجز لوجال على نواجذه وقال :

ـ يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ، لو قلت رأيى فيهم فلن تقوم لشركتنا التى أرجوها قائمة أبدا .

ـ ولماذا تصر على أن تكون بيننا شركة ؟

ـ تعودت أن أصارحك يا آزر ، أنا لا أملك بيتا ولا أرضا ولا شيئا يمكن أن يضمن الدين الذى أقترضه ؛ ولكنى أملك الموهبة والتجارب والمهارة ، مالك مع موهبتى .. هذه هى الشركة .

ـ ألم تقل لى إن رأس مال الشركة مين من الفضة ؟

ـ ستدفع أنت نصف مين وتقدر جهدى بنصف مين .

ـ لا بد من وجود صك مكتوب يعين الواجبات المفروضة عليك يا لوجال .

ـ هات لوحا نكتب فيه الشروط .

وأحضر آزر لوحا من طين لم يجف بعد ، وأحضر قلما سنه مثلث الشكل ، وقدمهما إلى لوجال . فشرد لوجال قليلا ثم بدأ يكتب وهو يردد ما يكتبه :

ـ رأس مال الشركة مين من الفضة ، يقدم آزر نصف مين ، ويقدر جهد لوجال بنصف مين ، وعلى لوجال عند عودته من

رحلته أن يقدم لآزر ما دفعه فى رأس المال مقابل إيصال بذلك ، وأن يقدم له كذلك نصف الأرباح ، وأن يحتجز لنفسه النصف الآخر . ويتحمل آزر مصاريف الرحلة :

فقاطعه آزر :

— نتحمل مصاريف الرحلة مناصفة :

— ولو أن هذا يخالف العرف التجارى فى بابل ، فانى أقبل ذلك لأنك صديقى ...

— وإن قمتَ بصفقات غير مربحة ؟

— تتحمل وجدك الخسارة .

— حتى ولو كان ذلك بسبب إهمالك أو سوء تصرفك ؟

— إن جاءت الخسارة نتيجة إهمالى أو سوء تصرفى كان على أن أعيد إليك ما دفعته مضاعفا :: هذا هو العرف التجارى ، أما إذا ضاع المال بسبب سوء الأمن فى الطرق أو لأسباب قهرية أخرى فإنى لا أدفع شيئا :

— وما أدرانى أن المال قد فقد بأسباب قهرية ؟

— سأقسم بذلك أمام الآلهة :

فابتسم آزر ابتسامة هازئة وقال :

— لكأنك مؤمن بها . ما أيسر القسم الكاذب على من كان كافرا مثلك :

— ألا تثق بى يا آزر ؟

— إنى أثق بك يا لوجال ، وإن كان غريبا أن يثق مؤمن بكافر . أفضل أن تكون الشركة بيننا بالتضامن ، أنت تدفع

نصف رأس المال وأنا أدفع النصف الآخر .

— ومن أين لى نصف من من الفضة ؟

— تستطيع أن تقترضه يا لوجال .

— ومصاريف الرحلة ؟

— من العدل أن أتحملها وحدى ونقتسم الأرباح والخسائر بالتساوى ، وإذا صفيت الشركة فإنها تصفى تصفية عامة من قش التبن إلى الذهب .

فقال لوجال فى حماسة :

— اتفقنا .

— وإن رأيت أن أرسل عبدا من عبيدى معك ؟

— تتكفل بطعامه وشرابه وملبسه .

— ولكنه ليس فى خدمتى ، إنه فى خدمة الشركة ، فعلى الشركة أن تتكفل بطعامه وملبسه .

فضحك لوجال وقال :

— دم التجارة يجرى فى عروقك يا آزر وإن كنت صانع تماثيل الآلهة .

— الدم الذى يجرى فى عروقى دم مردوخ العظيم ، منذ أن خلط دمه بالطين وخلقنا ودماؤه تجرى فى عروقنا ، إنى أعجب يا لوجال كيف أن دم الإله يجرى فيك وترتكب كل هذه المعاصى والآثام .

فقال لوجال ساخرا :

— إنى لا أرتكب المعاصى بدمى ، بل أرتكبها بنصيب الطين الذى فىّ .

وشرد آزر برهة ، وظل لوجال يرمقه ويحترم صمته ، حتى بان فى وجه آزر الانفعال وقال :

— طافت برأسى أمنية :

— ما هى ؟

— أن تستمر الشركة بيننا وتزدهر حتى يشب إبراهيم ويذهب معك إلى بلاد المعادن وأخشاب الأرز والأحجار الكريمة . لم أر من بلاد الدنيا غير أور وبابل وما بينهما ؛ ولكنى أرجو أن يرى ابنى العالم ، أن يذهب جنوبا وشمالا وشرقا وغربا .

— وما الذى يربطك بالأرض يا آزر ؟ تعال معى ما دمت تتوق إلى زيارة الدنيا .

— لا أطيق البعد عن أرض الآلهة أبدا . لو انقضى يوم دون أن أصلى فى المعبد فإنى لا أحسبه من عمرى .

— هيا نحرر العقد ونوقعه ، ونبتهل إلى الآلهة أن تمد فى عمره حتى يرثه إبراهيم وإخوته ، وابنى نور شماش وإخوته ؟

ورمقه آزر فى دهش وقال :

— أنت محيّر يا لوجال ، تسخر من الآلهة وتسمى ابنك نور شماش ، ثم لا تفتأ تذكر الابتهال إلى الآلهة ؟

— أنا مؤمن يا آزر ، وإن كان إيمانى يختلف عن إيمان الكثيرين ، أنا مؤمن متحرر .

— ما دمت مؤمنا يا صديقى فهيا إلى المعبد نقسم بمردوخ وشماش ونانا أننا سنخلص لهذه الشركة ، ونوقع العقد أمام السبعة عشر شاهدا من الكهنة الأطهار ؟

— هيا يا آزر ، وإن كنت لا أثق أن الكهنة الشهود من الأطهار .

ورمقه آزر فى عتاب ، ثم انطلقا إلى معبد نانا ليوسسا شركة للتجارة فى الشعير والعبيد والإماء ، تعمل فى داخل البلاد وخارجها .

٥

ومرت الأيام ووضعت إمتالى ولدين ذكرين ، فأوفت بوعدها للسيد الكبير وسمت أكبرهما « ناحور » وسمت الآخر « هاران » تيمنا باسم عمه الحبيب . وشب إبراهيم وراح يتجول فى البيت ، يمرح فى الشرفة التى تفتح عليها أبواب غرف الطبقة العليا ، ويهبط فى الدرج إلى فناء الدار الداخلى الذى تطل عليه نوافذ البيت ، ويذهب إلى حيث يجلس أبوه يصنع تماثيل الآلهة .

كان يمضى أغلب وقته يرصد أباه وهو ينشر الخشب ويشكله فى مهارة عجيبة . كان يصنع فى الغالب تمثالا على هيئة إنسان إلا أن أذنيه كبيرتان ، وكان ذلك الإنسان يحمل السلاح المقدس ويربض تحت قدميه وحش ، وكان بعد أن ينتهى من صنعه يضع على رأس التمثال تاجا ، ويلبسه رداء كاهن أكبر تصنعه أمه ، وكان يلف حول وسطه حزاما من سعف النخل :

إنه يذكر أنه قال لأبيه مرة :

— إن أذنيه كبيرتان يا أبى ، أكبر من آذاننا ؟

— إنه مردوخ رب الأرباب يا بنى ، وهاتان الأذنان الكبيرتان ترمزان إلى فهمه العميق .

ونظر إلى التمثال الذى بين يدى أبيه ورنت فى أذنيه مقالته : « فهمه العميق .. فهمه العميق » . ولم يفهم إبراهيم شيئا فقد كان

لا يزال حدثا ، وكان غاية ما يفهمه أن أباه يصنع دمى للعب والعبث !

ورأى أباه يصنع تماثيل لأناس يجلسون على كراسى ، وأناس يحملون حرابا ؛ ورآه مرة يصنع تمثالا لسيدة فقال له :

— من هذه يا أبى ؟

— هذه عشتار ، عشتار الغضوب ، عشتار العطوف .

ولم يقل عشتار إلهة اللذة ؛ فما كان يدرى بعد ما اللذة وما الألم وفى ذات يوم رآه يصنع عرشا وتاجا فقال :

— ومن هذا يا أبى ؟

— هذا الإله إنليل ، هذا الذى أحدث الطوفان الذى رويت لك قصته .

— لم أفهم يا أبى لماذا أغرق البلاد وأهلك الناس ؟

— لأن الناس ضلوا ، أفسدوا فى الأرض .. عصوا الآلهة .

ولم يفهم الصلة بين الآلهة وتلك التماثيل التى يصنعها أبوه بيديه ويشكلها كيف يشاء . يدق على رءوسها بقدومه ، وقد يشق أحدها شقا ، أو يدق عنقه إذا لم تعجبه صنعته .

ودخل معبد الدار فرأى محرابا فى وسطه ، ورأى التماثيل التى صنعها أبوه بيديه . وقد ثارت دهشته لما رأى أباه يركع للتماثيل التى ابتدعها فنه ، وزادت دهشته لما رأى جده يفعل ما يفعله أبوه . وبلغ عجبه منتهاه لما رأى أمه تفعل ما يفعله أبوه وجده .

وذات يوم لم يستطع أن يكتم ما يدور برأسه ، فدنا من أبيه

بعد أن أتم صلاته وقال له :

— لماذا تركع يا أبي لهذه التماثيل ؟

— لأنها الآلهة التي خلقتنا ؟

— أنت الذى صنعتها يا أبي بيديك . أنت الذى تخلقها كل يوم !

— لا يا إبراهيم . أنا أصنع رموزا للآلهة أجسمها لأعين الناس . أما الآلهة فهى فى السماء جالسة على عروشها .

ودنا آزر من إبراهيم وضمه إلى صدره فى حنان وقال له :

— أتذكر كوكب المشترى الذى كان فى السماء ، ليلة كنا جالسين فوق سطح الدار ؟

— أذكره يا أبتاه .

— هذا هو كبير الآلهة ، مردوخ العظيم رب الأرباب .

وأشار الأب إلى تمثال مردوخ وقال :

— هذا التمثال الذى صنعته إن هو إلا رمز لكبير الآلهة .

ولاح فى وجه إبراهيم أنه لا يفهم ما يقوله أبوه . واستمر آزر فى حديثه :

— أرأيت القمر يا إبراهيم ؟

— نعم يا أبت .

— إنه إله أور .. إله مدينتنا يا إبراهيم . إنه الإله نانا ، وفى بعض البلاد الأخرى الإله سين .

وأشار إلى تمثال من التماثيل التى صنعها وقال :

— هذا التمثال الذى صنعته إن هو إلا رمز له .

ثم قال فى هدوء :

— أرأيت الشمس يا إبراهيم ؟

ولم يدعه إبراهيم يتم مقالته ، وسأله :

— ولماذا تعبد يا أبى كل هذه الآلهة ؟

— لأنها هى التى خلقتنا ورزقتنا وأسبلت حمايتها علينا .

فشرد إبراهيم قليلا وقال :

— ومن الذى خلق هذه الآلهة يا أبتاه ؟

فراح آزر يرتل فى إيمان :

— حين لم تكن السماء العلا قد سمِّيت بعد ،

ولم يكن للأرض من تحتها اسم بعد ؛

اختلطت المياه من أبسو الأزلى أبيهم ،

ومن تيامات الصاخبة أم الجميع ؛ فاتحدا .

وحين لم تكن الأجام قد نبتت بعد ، ولم تكن غياض القصب قد عرفت طريقها إلى الوجود ،

وحين لم يكن هناك إله له اسم ،

وحين لم يكن هناك قدر مرسوم ؛

خُلقت الآلهة .

نظر إبراهيم إلى أبيه طويلا ؛ ولم تقبل فطرته السليمة ذلك التفسير ، كانت بذور الشك قد ألقيت فى أغوار نفسه بيد أنه لم يكن يدرى بعد ما يقول . قال له أبوه :

— عندما تكبر يا بنى وتتسع مداركك ، ويمنحك الإله مردوخ نعمة الفهم ؛ فستدرك أسرار الآلهة :

وصمت الأب قليلا ثم قال :

— غدا آخذك معى إلى المعبد ، وبعد غد نذهب إلى جدك ناحور ليعلمك الحساب والنظر فى النجوم .

فلما كان الغد خرج آزر وإبراهيم وانطلقا إلى معبد الإله نانا إله القمر ، فلما بلغا حرم المدينة — البقعة المقدسة بها — راح إبراهيم يتلفت . كان الحرم المقدس فسيحا ، طوله أربعمائة ذراع وعرضه مائتا ذراع ، وقام على قاعدة مرتفعة فى الزاوية الغربية منه الزقوة ، البرج المدرج ، أعظم مبانى المدينة ارتفاعا .

رفع إبراهيم بصره ينظر إلى البرج الشاهق . فرأى عند قمته شيئا لم يستطع أن يتبينه فقال لأبيه :

— ما هذا الذى عند قمة البرج يا أبت ؟

فقال آزر فى زهو :

— هذا مزار الإله نانا .

— ولماذا بنى المزار على هذا الارتفاع الشاهق ؟

إننا فى الأصل من الجبال يا إبراهيم ، وكان آلهتنا يعيشون على قمم الجبال . فلما جئنا إلى هذه السهول لم نجد مرتفعات ، فبنينا هذه الأبراج وجعلنا مزارات الآلهة عند قممها . إن هذا برج عظيم يا بنى ، ولكن إذا كبرت وصرت رجلا وقدرت لك الآلهة الذهاب إلى بابل ، فسترى برجا يليق بمقام رب الأرباب .

ورأى إبراهيم عند قاعدة الزقوة ساحة واسعة تحيط بها غرف كثيرة . فقال لأبيه :

— وما هذه الغرف يا أبتاه ؟

— هذه مخازن المعبد يا بنى .

ورأى عندها بعض الفلاحين يجلبون على ظهور الحمير الحبوب والزيت والسمن والجبن والجلود والصوف والكتان ، ورأى أناسا من المدينة يجلبون الأقمشة والملابس . إنها النذور التى نذروها للإله نانا ! راحوا يقدمون النذور إلى كهنة المعبد ، فكان الكهنة يأخذونها منهم فيزنونها ويدونونها فى سجل قبل أن تنقل إلى المخازن ؛ ثم يحررون بها إيصالا على لوحة طينية ، تحفظ منه نسخة فى سجلات المعبد . وتسلم نسخة للذين يوفون بنذورهم .

سار إبراهيم يخطى وئيدة يمد بصره إلى كل شىء ، فوقعت عيناه على رصيف قريب من المعبد يقع على رأس قناة ؛ وقد رست على الرصيف سفن محملة بالأخشاب والذهب والنحاس والأحجار الكريمة والبخور .

ولفت إبراهيم نظر أبيه إلى تلك السفن ؛ فقال آزر وهو يبتسم ابتسامة رضا :

— هذه يا بنى هدايا المعبد ونذور الناس .

وارتفعت ضوضاء الناس وهم يتصايحون ويتدافعون ويتزاحمون لتقديم الهدايا للإله نانا .

ورأى إبراهيم فوق مدخل الفناء الذى يضم مخازن المعبد بناء ذا طبقتين ، وفطن آزر إلى أن ابنه يقلب وجهه فى ذلك البناء فقال له :

— هذه مساكن موظفى المعبد .

— كل هذه الغرف لموظفى المعبد ؟

— إنهم يمارسون فيها أعمالهم .

— أعمالهم ؟ !

— أعمالهم أجل شأنا من أعمال الدولة ، فالدولة تخدم الناس أما موظفو المعبد فيخدمون الآلهة . الملك نفسه خادم من خدام المعبد ، فهو يوم بناء المعبد يحمل على رأسه وعاء الملاط ، ويقدم القرابين للآلهة ويرجو مخلصا أن تتقبلها منه .

— إنها غرف كثيرة .

— إنها غرف كبير الكهنة ، والكهنة ، ومدير أملاك المعبد ، ورئيس الحرم ، والكتبة .

وشرد آزر قليلا ؛ كانت أمنيته أن يكون كاهنا من هؤلاء الكهنة الذين أسعدهم الحظ أن يكرسوا حياتهم لخدمة الآلهة ، ولكن الفأل لم يحقق له أغلى أمنية راودت خياله . ورن فى ضميره صوت صديقه لوجال وهو يقول له : « لو دفعت للأوريجاللو الثمن لكنت الآن كاهنا أو كبيرا للكهان » . وضايقه أن تطوف بذهنه مثل هذه الأقوال الفاجرة ، فراح يجاهد أن يمحو من ذهنه هذه الخواطر التى تقلقه وتجعله يتلفت مرعوبا خشية أن تبطش به الآلهة .

ورأى إبراهيم العاهرات المقدسات جالسات فى الطريق المقدس يغزلن الصوف وينسجنه ، فقال لأبيه وهو ينظر إليهن :

— من هؤلاء يا أبت ؟

— هؤلاء اللاتى وهبن أنفسهن لخدمة الآلهة .

وسارا إلى الفناء الداخلى فإذا بمعبد نانا أمامهما . كان أشبه بالقلعة بجدرانه السميكة وأبراجه المحصنة ، ويقابله معبد زوجته

ننكال ، ثم يقوم بعد ذلك المزار المشترك والطريق المقدس الذى يفضى إلى قدس الأقداس .

وملأت خياشيم إبراهيم روائح لحم يطهى ، فراح يتلفت فوقعت عيناه على مطبخ المعبد حيث تطهى الضحايا ، وعلى المخابز ومحال تسخين المياه والمناضد الحجرية التى تقطع عليها الذبائح .

ودخل معبد إله القمر خلف أبيه ، فألفى نفسه فى ساحة واسعة زينت جدرانها بنقوش من الفسيفساء محلاة بالذهب والفضة والزمرد والفيروز والمرجان ، ووقعت عيناه على كوة كسيت بالذهب وقام فيها تمثال لا يكاد يفترق عن التماثيل التى يصنعها أبوه . كان لرجل جالس على عرشه يحمل فى يده الفأس وسلسلة القياس .

وبين الدهشة والعجب رأى الناس يركعون للتمثال فى خشوع ؛ وزاد عجبه لما رأى أباه يتقدم من التمثال فى إيمان ويهمس فى صوت متهدج :

— الإله نانّا إله القمر . اركع يا إبراهيم .

وركع آزر ووقف إبراهيم منتصبا يتلفت . رأى أباه يذرف الدموع وهو يبتهل ويتوسل ، ورأى رجالا ونساء يبكون وعبراتهم تخنقهم ، وعجب من أن يجرى كل ذلك أمام تمثال من التماثيل التى كان أبوه هذا الصباح يصنع مثلها ، ويدق رءوسها بقدومه ، ويلبسها من الأثواب التى تصنعها أمه .

وخطر بذهنه الصافى أن الفلاحين الذين وفدوا من كل فج من البلاد يحملون الخيرات إلى مخازن المعبد إنما وفدوا من أجل هذا الصنم ، وأن أهل المدينة الذين جاءوا بالملابس وشواقل الفضة

إنما جاءوا بهذه الهدايا لهذا الصنم . وأن السفن الكبيرة الراسية على رصيف المعبد والتى تحمل الحبوب والأخشاب والأنعام وكل ما تنبته الأرض من خيرات . ما وفدت بالنذور إلا تقربا من هذا الصنم . وبذرت فى نفسه الطاهرة بذرة سوف تتعهدها الأيام بالرعاية والسقيا حتى تزدهر وتثمر .

اجتمع فى ساحة المعبد « العاميلو » الأحرار و « المسكينو » أبناء الطبقة المتوسطة والعبيد : الرجال والنساء .. الشيوخ والعجائز والشبان والولدان ؛ كانوا جميعا يركعون أمام تمثال نانا . إلا إبراهيم فقد وقف شامخ الرأس يرنو إلى كل ما يجرى حوله بعينين مفتوحتين وقلب سليم وذهن لمّاح .

وبلغ أذنيه صلاة أبيه فأرهف السمع . كان يبتهل إلى صنم مردوخ :

— إلهى ! مثلما فسرت مصائر ما صنعت يداك .

ورزقتها الخبز لتأكل ، وباركتها وقبلت منها قرابينها ؛

فبارك لى يا إلهى فيما صنعت يداى ،

وتقبله منى قرابين لعظمة ألوهيتك .

أدار عينيه فى التماثيل الكثيرة القائمة فى المعبد ، وولدت فى ذهنه فكرة لم تكن واضحة ، كانت بعد مغلفة بضباب كثيف ، كانت بعد خيطا رفيعا مضيئا لسؤال سوف يتضح رويدا رويدا حتى يتألق النور ويبهر ذهنه : أى هذه الأصنام قادر على أن يستجيب لدعاء أبيه ؟

وأتم آزر صلاته ودعاءه وتوسلاته وابتهالاته ، وجفف ما بقى

فى عينيه من دموع ، ثم ذهب إلى حيث وقف إبراهيم وقال له وهو يشير إلى تمثال مردوخ :

— اذهب يا بنى واركع لكبير الآلهة « رب الأرباب » ملك الملوك :

فدار إبراهيم على عقبيه وغادر المعبد مهرولا ، وانطلق أبوه فى أثره حتى لحق به فى فناء الحرم المقدس بالقرب من الزقوة برج نانا الصرح المدرج ، وقال له :

— لماذا لم تركع لكبير الآلهة يا إبراهيم ؟

نظر إبراهيم إلى أبيه نظرة طويلة ولم يحر جوابا ، فقال له آزر :

— لا تزال صغيرا يا بنى ، إنى عندما ركعت أمام رب الأرباب وابتهلت إليه فى حرارة سالت دموعى وألقى فى روعى أن سيكون لك يا إبراهيم شأن عظيم مع الآلهة ، ومع مردوخ كبيرهم العظيم .

وانطلقا حتى إذا بلغا الفناء الخارجى ولاحت لهما البوابة التى تقود إلى الحرم المقدس ، قال آزر وقد شرد ببصره كأنما يحلم ، أو كأنما يحاول أن يرى المستقبل :

— أترى هذه البوابة يا إبراهيم ؟

فهز إبراهيم رأسه أن نعم ، فقال آزر فى نبرات حالمة :

— عندما تكبر يا إبراهيم ستقف عند هذه البوابة ، وتبيع للناس تماثيل الآلهة التى أصنعها .. وستباركك الآلهة يا بنى .

وارتسمت على وجه آزر إشراقة أمل وتفاؤل ، ولم يبد على وجه إبراهيم الاقتناع .

٦

خرج إبراهيم إلى شوارع أور ؛ كان فى طريقه إلى بيت جده ليتعلم النحو واللغة والحساب والفلك والنظر فى النجوم . لقد خلف وراءه المعبد والبرج والحرم المقدس وسار بين الحقول والحدائق يحدق فى الغادين والرائحين .

رأى التلاميذ فى طريقهم إلى مدارسهم وكانوا من أبناء « العاميلو » ، أبناء الحكام والوجهاء والسفراء والمشرفين على المعابد وضباط الجيش والبحرية وموظفى الضرائب والكهنة .. أبناء الأغنياء القادرين على دفع تكاليف التعليم . وهم يلتحقون بعد أن يتخرجوا فى مدارسهم بخدمة المعبد والقصر وخدمة الأغنياء؛ لم يشعر إبراهيم نحوهم بالحسد ؛ فقد كان يحس فى قرارة نفسه على الرغم من أنه ما يزال صبيا أنه قادر على أن يكون شيئا وإن لم يلتحق بمدرسة من المدارس الكثيرة المنتشرة فى أور .

ورأى بعض رجال الجيش فى طريقهم إلى معسكراتهم ، وكانت وظائف الجيش الكبيرة وقفا على « أبناء العاميلو » ، أبناء الطبقة الأرستقراطية .. كانوا يؤلفون كتائب الأسلحة الثقيلة ، أما أبناء « المسكينو » أبناء الطبقة المتوسطة فقد كانوا يقومون بالخدمة فى المعسكرات ، وقد يؤلفون بعض الكتائب التى تزود بالأسلحة الخفيفة ، أما العبيد فلم يكن لهم شرف الخدمة العسكرية ؛

نظر إلى ضباط الجيش المنطلقين إلى معسكراتهم مرفوعي الرءوس يخطرون فى زهو فى ملابسهم الرسمية ، ولم يحلم أن يكون واحدا منهم بل خطر بذهنه أن يتولى قيادتهم ، على الرغم من أنه سمع من أبيه أكثر من مرة أن الملك هو الذى يتولى القيادة بنفسه ، لأنه ظلّ إله الحرب فى الأرض ، بل لأنه إله الحرب نفسه .

وسار فى طريقه يتلفت يرقب التجار وهم فى طريقهم إلى الأسواق والموانى ، والفلاحين وهم يعملون فى الحقول ، ويتأمل الزرع والأشجار والدواب والأنعام والطيور ، ويقلب وجهه فى السماء ويمد بصره إلى الأفق البعيد ؛ كان شغوفا بأن يتعرف على الكون العجيب الذى يعيش فيه .

وبلغ بيت جده وصعد فى الدرج إلى الطبقة الثانية حيث يعيش ناحور . ودخل عليه فألفاه يمس عينيه بمرهم هو مزيج من خلاصة النحاس الخام والجعة :

قال ناحور لحفيده :

— عيناى اليوم متعبتان يا إبراهيم ، فلن أستطيع أن أكتب لك لوحا لتكتب مثله ، ولكنى سأقص عليك ما أعرفه عن النجوم ، وسأعلمك كيف تنظر فيها .

وراح ناحور يروى لإبراهيم أن عدد النجوم يبلغ واحدا وسبعين نجما ، وأن هذه النجوم مقسمة إلى ثلاث مجاميع يحكم كل مجموعة أحد الآلهة العظام ؛ فثم ثلاثة وثلاثون نجما لإنليل ، وثلاثة وعشرون لآونو ، وخمسة عشر لـ « أيا » .

وراح يعلمه أسماء الشهور والعلاقة بين الشهور ومولد القمر واختفائه ، ومتى تكون السنة ثلاثة عشر شهرا ؛ ومتى تكون أربعة عشر ، وكيف يحدد أول يوم من نيسان الشهر المقدس ، شهر العيد الكبير عيد مردوخ العظيم .

تعلم إبراهيم على جده الكتابة بأقلام القصب على ألواح الطين ، وتعلم المقاييس والموازين ، والعلاقة بين الذراع ، والقدم ذى العشرين إصبعا ، واليد المفتوحة ذات الخمس عشرة إصبعا ، ويد البناء ذات العشر الأصابع .

عرف إبراهيم أن « يد البناء » عشر أصابع . وأن اليد المفتوحة خمس عشرة إصبعا ، وأن القدم عشرون إصبعا ، وأن الذراع ثلاثون إصبعا ، وأن القصبة ست أذرع ؛ وعرف وحدات قياس المساحة والمكاييل من « الجور » الملكى إلى ال « قا » . وعرف الموازين من القمحة والشاقل الصغير إلى المين والوزنة .

وكان أكثر ما يسمعه من جده عن التنجيم واللاهوت ؛ فعرف من جده ومن أبيه أن السعيد من رضيت عنه الآلهة . وأن الشقى من غضبت عليه ؛ وأن لكل مؤمن إلها حارسا يسكن جسده ، فإذا ارتكب العبد ما يغضب الإله تخلى عنه الإله وترك جسده لتسكنه الأرواح الشريرة . التى تجر معها المصائب والنكبات والشقاء المقيم .

وعلمه جده أن السحر هو الذى يطرد الأرواح الشريرة . وأن رضا الآلهة يكتسب من جديد بالصلاة والتضحيات والتطهر ، وأن الآلهة حين خلقت البشر جعلت الموت نهاية حياة الإنسان .

وأن الفرق بين الآلهة والبشر أن البشر يموتون أما الآلهة فلهم وحدهم الخلود ، وأن البشر يذهبون عقب الموت إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها ، وأن الهدف من الصلاة هو إطالة عمر الإنسان ليسعد بطيبات الحياة قبل أن يذوق الموت ، وكم سمع أباه وجده يبتهلان إلى نانا إله القمر : « خلصنى يا إلهى من الإثم ، وامنحنى الحياة أياما طويلة » .

وعلمه جده أن ظل الميت يغادر جسده عقب الموت ويتحول إلى روح شريرة تنضم إلى طبقة الأشرار ، وهى لا تستريح إلا إذا دفنت الجثة ، وأن على أهل الميت أن يقدموا له طعام القربان مرة كل شهر اتقاء لأذاه .

وعلمه جده أن الميت إذا مات دفن وحده ، أما إذا مات الملك فيتعين أن يدفن معه جميع أفراد حاشيته من زوجات وضباط وجنود وخدم وموسيقيين ، يهبطون جميعا إلى قبر الملك حيث يقيمون الطقوس والمراسيم الدينية ، ثم يتناولون السم ، وبعد ذلك يهال التراب عليهم وعلى أوانيهم وأسلحتهم ، وقيثاراتهم ومزاميرهم ، وخناجرهم المطعمة بالذهب والفضة ، وأدوات زينتهم ، وكل نادر ونفيس مما كانوا يستخدمونه قبل أن يكتب عليهم الموت بموت ملكهم الإله .

تعلم إبراهيم من جده ناحور ومن أبيه آزر ومن أمه إمتالى ومن عمه هاران معتقدات قومه ، ورشف من حضاراتهم ، بيد أنه لم يأخذ ما تعلم على أنه حقيقة لا تقبل المناقشة ، بل كان يمحص ما يسمع وما يرى بعقله الذى كان يتفتح على مر الأيام .

وقد استطاع إبراهيم بتأملاته أن يربط بين نفسه وبين الكون الذى يعيش فيه ، وأن يستريح إلى التعاطف والصداقة والمحبة التى بدأت أواصرها تربط بينه وبين كل ما ينبض حوله بالحياة .

وعاد إبراهيم ذات يوم إلى الدار قبل الموعد الذى اعتاد أن يعود فيه منذ أصبح يتردد على بيت جده ، فألفى أباه عاكفا على صنع تمثال لعشتار ، يصورها وهى تقف على أسدين وتلبس جعبة السهام ، وفى إحدى يديها سلاح مقوس ، وفى الأخرى صولجان يتكون من عصا يتفرع منها سلاحان مقوسان ، فى قمة كل منهما رأس أسد . كان التمثال لا يرمز إلى الإلهة المتقلبة التى تغرى البشر بعب كئوس اللذة ، بل يرمز إلى عشتار إلهة الحرب . لوى إبراهيم شفته السفلى زراية ، فما كان عقله يسيغ أن تكون امرأة ذكرا فى الصباح وأنثى فى المساء ، وأن تكون إلهة للذة وفى نفس الوقت إلهة للحرب . وعجب إبراهيم لأن هذا التمثال الذى يمثل المرأة التى لا هم لها إلا غواية البشر هو أكثر التماثيل رواجا بين الناس ، فمحبوها لا يحصيهم العد .

رفع آزر رأسه عن التمثال وقال :

— جئت مبكرا اليوم يا بنى .

— جدى مريض يا أبت .

وذهبت إمتالى وآزر وإبراهيم لعيادة ناحور ، فوجدوا عنده هاران وزوجه ، وقد جاءا له بكاهن يرتل للآلهة أن يكون بها غضب عليه وارتفع صوت الكاهن يتلو :

— حين خلق أنو وإنليل وأيا السماء والأرض ..

وغلب إبراهيم النعاس فنام ؛ ولم يستيقظ إلا على صوت أمه تناديه :

— إبراهيم إبراهيم ! قم .. إنا ذاهبون .

ونهض إبراهيم وسار مع أمه ، وما ابتعدا خطوات حتى هرعت الجارية إلى إمتالى وقالت لها وهى تتلفت :

— لقد كثرت الصراصير فى البيت منذ أن مرض سيدى .

ولاح الخوف فى وجه إمتالى ، ونظر إبراهيم إلى أمه وإلى الجارية وهو مدهوش لا يفهم شيئا ، ثم قال :

— ماذا تعنى يا أماه ؟

فقالت إمتالى فى صوت خافت متهدج :

— إن كثرة الصراصير فى البيت فأل سيئ يا بنى .

ولحق آزر بزوجه وابنه وقال :

— لقد اتفقنا مع الكاهن على أن يقدم فى الفجر ثلاث أضحيات للبعول الكبار أنو وإنليل وأيا .

فقالت إمتالى :

— حسنا فعلتم .

ولم ينبس إبراهيم بكلمة وقال آزر :

— بعد أن تقدم الأضحيات ويرضى الآلهة ؛ يصبح أبى بارئا .

وقدمت الأضحيات إلى البعول الكبار ، وضرب الكاهن على الطبول المقدسة وغنى تمجيدا لإنليل ، وصلى وابتهل وحرق البخور استعطافا للآلهة ؛ وراح يدعوها أن تطيل أيام ناحور الصالح ليقدم إليها القرابين والأعمال الصالحة .

وأصبح الصباح ، وخف آزر وإمتالى وإبراهيم لعيادة المريض .

كان آزر متفائلا بعد ما أجرى من طقوس لاسترضاء الآلهة . وكانت إمتالى شاردة تفكر فى الصراصير الكثيرة التى ملأت بيت الشيخ ناحور ؛ وكان إبراهيم يجاهد ليستبين سبب الحيرة التى تملكته ، فثم سؤال يفرض نفسه عليه : لماذا يولد الإنسان ولماذا يموت ؟

وراح الثلاثة يصعدون فى الدرج ليبلغوا غرفة المريض وقد لاح فى وجوههم القلق ، كان آزر — على الرغم من تفاؤله الذى أبداه فى الصباح — مشفقا على أبيه أن يذوق الموت الذى ينقله إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها ؛ وكانت إمتالى تخشى أن يتحقق الفأل السيئ الذى أعلن عنه تكاثر الصراصير فى جنبات الدار ؛ وكان إبراهيم حزينا واجما فقد توطدت الصداقة بينه وبين جده ، حتى لتغمره السعادة ما كان معه ، وإن كان عقله يرفض كثيرا من الأساطير التى يقصها عليه .

ودخلوا على ناحور فألفوه مسجى فى فراشه وقد أطبق جفنيه وعلت الصفرة وجهه . فوقف آزر عند رأسه ووقف إبراهيم عن كثب يرنو إليه وهو باسر الوجه .

وفتح ناحور عينيه فرأى إبراهيم فأشار إليه أن يقترب ، فتقدم إبراهيم منه ، فرفع ناحور ذراعه ووضع يده على رأس حفيده ، وتذكر الرؤيا التى رآها . رؤيا آزر وقد خرج من صلبه عمود نور أضاء السماء . أحس فى تلك اللحظة أن إبراهيم

هو النور الذى سيبهر القبة الزرقاء . واستشعر ناحور جهدا فأعاد ذراعه إلى جواره ، وهو ميهور النفس لا يقوى أن يفتح عينيه .

وعلى الرغم من أن طقوس الكاهن وأضحياته لم يظهر لها أثر ، فقد جاءوا بكاهن آخر قال بعد أن رأى المريض :

ـــ أريد خنزيرا من المستنقعات ، وسبعة أرغفة سويت تحت الرماد .

وانطلق آزر ليحضر الخنزير ، وذهبت إيمتالى والجارية وزوجة هاران ليسوين الأرغفة تحت الرماد ، وبقى هاران مع الكاهن : أما إبراهيم فذهب بعيدا يقلب وجهه فى السماء .

وعاد آزر بالخنزير ، وجاءت الجارية تحمل الأرغفة السبعة ، وقال الكاهن :

ـــ على بالموقد والمشعل .

وجىء بالموقد والمشعل ، وذبح الكاهن الخنزير وقسمه إلى ستة أجزاء وضعها على ناحور ، وجاء بقلب الخنزير ووضعه إلى جنب فراشه ، ثم غسل ناحور بالماء المقدس .

وجىء بتمثال لمردوخ رب الأرباب ، وألقى البخور فى الموقد ، وراح الكاهن يتلو فى صوت أقرب إلى الغناء :

ـــ الخنزير فداء لناحور .

اللحم عوض عن لحمه ،

والدم عوض عن دمه ؛

اجعل الشياطين تتقبل ،

القلب الذى وضعته إلى جنب فراشه .

وامنحه إياه عوضا عن قلبه ، ولتتقبله .

وذهب الكاهن إلى الباب فأغلقه مرتين كأنما يغلقه فى وجه الشياطين التى تقبلت الفداء ، ووضع السبعة الأرغفة التى سويت تحت الرماد بالقرب من الباب المغلق ، وأمر أن ترفع فى الفجر عندما يبدأ الإله نانا رحلته اليومية .

وانقضت أيام ولم يبرأ ناحور من مرضه ، فجيء بعراف ليستقرئ الأوانى ويرى إن كان سيشفى أو سيذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها .

وجاء العراف وكان حليق الشعر واللحية يرتدي إزارا أبيض ، وكانت عيناه واسعتين يشع منهما بريق ، وطلب إناء به ماء وآخر به بعض الزيت .

وجيء بالإناءين ، وراح العراف يقرأ على إناء الماء ، ثم سكب فيه نقطة من الزيت . وأخذ يحدق فى نقطة الزيت وفى حركتها وتشكلها على سطح الماء ، كأنما تركزت قواه كلها فى عينيه .

وتعلقت العيون بوجه العراف تحاول أن تقرأ الانفعالات التى ترتسم عليه ، وأن تستشف ما يرى قبل أن تنطق به شفتاه : الجارية تقف فى الشرفة التى تطل على فناء الدار الداخلى ترصد وجه العراف فى اهتمام وقد حبست أنفاسها ، وإمتالى أمامها ، وزوجة العم هاران بالقرب من زوجها ؛ أما آزر فقد جلس على حافة فراش أبيه المسجى ، الذى لا يدرى مما حوله شيئا .

ومس أذنى الجارية خفق جناحين فالتفتت نحو الصوت ،

فاذا صقر يحوم فى فناء الدار ثم يرتفع وينطلق بعيدا . وخفق قلبها فى خوف ، فدخول طائر جارح البيت ثم خروجه منه نذير بموت صاحبه .

وقطب العراف جبينه ونهض ، ثم قال وهو يهز رأسه أسفا :

— سيموت .

وساد المكان سكون رهيب ، ولاحت الدموع فى أعين النسوة ، وظهر القهر فى وجه آزر . وتملك اليأس هاران ، فقد عجز الطبيب وأخفق الكاهن فى إرضاء الآلهة فلم تقبل القرابين والأضحيات التى أريق دمها . وأكد المنجمون والعرافون أن أيام ناحور على الأرض قليلة ، وأنه قد آن أوان نزوله إلى العالم السفلى : إلى الأرض التى لا رجعة منها .

وجلس إبراهيم وحده فى غرفة الاستقبال المواجهة لباب الدار يفكر فى الحياة والموت ، وفى الطقوس التى جرت فى بيت جده منذ أول يوم مرض فيه الشيخ ، وفى الآلهة الكثيرة التى توسل إليها الكهنة أن تطيل أيام ناحور على الأرض ، وفى الموت والعالم السفلى الذى لا رجعة منه .

ومات ناحور .

وخف أبناؤه لتجهيزه والإسراع بدفنه ، لا تكريما له بل خشية منه فإنه إن تركت جثته فى الدار مدة فإن ظله الذى غادر جسده يتحول إلى روح شريرة « اديمّو » تنضم إلى الأشرار ، ولا تستقر ولا تستريح طالما أن الجثة لم تدفن .

وكثر الحديث عن بيت الظلام ، البيت الذى لا يخرج منه من

يدخله . إنه مكان مسور بسبعة حوائط ، فى كل حائط بوابة عظيمة ، والمكان غارق فى الظلام كأنه ليل سرمد ، والموتى فيه يرتدون ثيابا من ريش الطيور ، ويأكلون التراب ويتغذون بالطين .

وفى بيت الظلام يسكن الحكام الذين لم يرتفعوا إلى مرتبة الآلهة ، والكهان والسحرة والأنبياء والبشر جميعا ؛ فريق تأكلهم الديدان كما تأكل الثياب الخلقة ، وفريق يملأ التراب آنافهم وأعينهم وبطونهم ، بيد أن ثم فريقا يتكئون على السرر ويسقون شرابا طهورا .

وقبر ناحور ، وعاد أهل بيته يحيون حياتهم اليومية ، إلا إبراهيم فإنه ظل يفكر فى الآلهة ، وفى الأصنام التى يصنعها أبوه بيديه ويركع لها الكهنة والسحرة والمنجمون وملوك الأرض وعامة الناس ، وفى بيت الظلام ، وفى الحياة المهينة التى يحياها الموتى حتى الصالحون منهم ، وإن كانوا يتكئون على السرر ويشربون ماء طهورا .

٧

راح إبراهيم يفكر فى موت جده ناحور ، وفى الكاهن الذى تقاضى سبع أوان من الخمر ، وأربعمائة وعشرين رغيفا ، ومائة وعشرين قا من الحبوب ، ورداء وجديا وسريرا ، ثمنا لموارة جثته فى التراب .

واشتغل فكره بالكهنة الآخرين الذين قربوا القرابين إلى الأصنام استعطافا للآلهة لتطيل أيام ناحور ، وأولئك الذين نظروا فى النجوم وأولئك الذين استخاروا الأوانى . لقد تقاضوا لقاء أعمالهم شواقل كثيرة من الفضة ، وجورا كثيرة من الشعير ، ورءوسا كثيرة من الماعز والغنم . وثار فى نفسه سؤال : أيمكن أن يكون هؤلاء عبادا مخلصين لآلهة عظام ، أم أنهم إنما يتخذون من الدين تجارة ؟

وبذرت فى نفسه بذور الشك ، ولم يستطع البقاء فى الدار فانطلق إلى معبد نانا يرقب أعمال رجال الدين عن كثب بعينين مفتوحتين ، فما كان يحب أن يقطع برأى قبل أن يتثبت ويتحقق .

سار فى شوارع أور ، فى شوارع المدينة التى تتنفس الدين والطقوس ، وتتردد فى جنباتها التسابيح للآلهة العظام الذين يلتقون فى مجمعهم ويقررون ما يشاءون .

وراح يفكر فى عشرات الآلهة التى تسيطر على الكون والحياة ،

شأنها أن تبرم أمرا وتقضى قضاء أو تحكم حكما ينفذ فى عبادها من البشر .

ولاح له معبد نانا وبرجه العالى . فسار والشاطئ فرأى جمعا من الناس فيهم بعض الكهنة ، فوسع من خطوه حتى بلغ الزحام فإذا الكهنة يوثقون رجلا وامرأة بالحبال ليلقوا بهما فى النهر ، فقد ضبطا متلبسين بالزنا .

وألقى نفسه يتفرس فى وجوه الكهنة أصحاب الرءوس الحليقة ، وتطوف برأسه أسئلة : أهؤلاء الكهنة الذين يدفعون بالزانى والزانية إلى الماء أطهار بررة ؟ ألم يرتكب أحدهم مثل هذه المعصية ؟ أهم أهلٌ حقا لأن يدينوا الناس ؟

ولم يقتنع بما رأى فدار على عقبيه وانطلق ، فاذا به يرى العاهرات المقدسات يجلسن على جانبى الطريق المقدس . ورحالا تشع الشهوة من أعينهم يلقون فى حجورهن شواقل الفضة فما يكون منهن إلا أن ينهضن ويتبعنهم !

واشتد عجب إبراهيم لهذه المفارقات : فتيات يرتكبن الفواحش باسم الآلهة فيصبحن مقدسات . وفتيات يضبطن متلبسات بالزنا فيلقى بهن فى الماء . وهمس فى نفسه هامس : ولكن من يلقى بهن فى الماء متزوجات . وإذا بصوت يرن فى نفسه : إن من يثور على الزنا ينبغى أن يثور عليه : سواء أكانت مرتكبته متزوجة أم عاهرة .. أم مخدوعة باسم الآلهة . الفاحشة هى الفاحشة . فلا ينبغى أن تقدس إذا ارتكبت باسم عشتار . وأن تلطخ بالعار إذا ارتكبت باسم الشيطان .

(إبراهيم أبو الأنبياء)

عشتار ! عشتار ! كيف يمكن أن ترتفع إلى مرتبة الآلهة ؟ إن لها فى كل يوم عشيقا : تموز إله الإنبات عشيقها ، جلجامش البطل الإنسان عشيقها . إنها وهى الإلهة اضطجعت مع رجال من البشر .. لماذا لا يثور الآلهة لكرامتهم التى تهدرها عشتار كل يوم ، فيوثقونها هى وعشاقها بالحبال ويلقون بهم فى النهر ؟ ألم يشرع الآلهة هذا العقاب لمن يضبط متلبسا بالزنا ؟ فلماذا إذن لا يوقع على عشتار وعشاقها وهى ترتكب الفواحش تحت نظر الآلهة جميعا ؟

وبلغ الفناء المقدس حيث مخازن الآلهة فوجد حركة نشيطة ؛ كان فى الفناء المقدس جمع من رجال القصر ورجال المعبد ؛ فاقترب ليشهد ويسمع .

كانت إيرادات المعبد توزع بين رجال القصر ورجال الدين ؛ وضعت الأسلاب من الشعير والفواكه والملابس على ظهور الحمير . وراح كل يقبض نصيبه من الأنعام والأغنام والخنازير ، حتى الملك والإيشاكو الكاهن الأعظم والأوريجاللو كان لهم نصيب من الهدايا التى يهبها المخدوعون فى الآلهة للمعبد .

ولكى تخرس ألسنة رجال الملك ورجال الإيشاكو ورجال الأمن ؛ راح الكهنة يوزعون عليهم الشعير والملابس والقماش والمعز والطيور . كان الكهنة يبذلون لهؤلاء عن طيب خاطر ويعطونهم عن رضا . فذلك ييسر لهم الظلم ، ويضمن لهم السلامة إذا فرضوا الجور على الشعب .

رأى إبراهيم بعينيه ما رفض أن يراه أبوه آزر ، وسمع أمورا تدين الكهنة تفوق فى قسوتها ما قاله لوجال فى رجال الدين فأثار

غضب آزر حتى قال لصديقه : لولا ما بيننا من صداقة لوشيت بك ! . وهز إبراهيم رأسه سخرية : هؤلاء هم الذين يقطعون يد السارق ، ويقوم عليهم الدين !

ودخل المعبد فإذا بتماثيل ضخمة من الحجارة لمردوخ ونانا وشماش وعشتار وعشرات الآلهة الأخرى . وإذا بتماثيل للملك فى مشكاة تقدم لها فروض التمجيد الإلهى ، فقد رفع الملك نفسه إلى مصاف الآلهة . وقال إنه إله الملوك جميعا .

وراح يقلب وجهه فى التماثيل : إن أباه يصنع مثلها . وهذه التماثيل جميعا من صنع أناس مثل أبيه ، فمن أين لهم أن يقرروا أنها تمثل الآلهة حقا ما دام أن أحدا من البشر لم ير هؤلاء الآلهة ؟ !

وأحس فى قرارة نفسه أنه ينكر هذه الأصنام . ووقعت عيناه على الأغذية والأشربة المكدسة أمام التماثيل : عشتار لها ثمانية عشر إناء للشرب ، ومردوخ له اثنا عشر ، وتشرب الآلهة جميعا لبنا فى الصباح . أتستطيع هذه الأحجار حقا أن تأكل وتشرب ؟ إذا كان الملك يتناول طعامه فى كل معبد من المعابد : فكيف يستطيع أن يأكل فى قصره مع وزرائه وحاشيته وندمائه ؟ هذه الآلهة نهمة لا تشبع ، تأكل فى بابل ، وتأكل فى أور . وتأكل فى كار شماش (قلعة شماش) ، وسيبار . وفى كل معبد من المعابد الكثيرة المنتشرة فى أنحاء المملكة ، أم أن هذه دعوى ادعاها الملوك والكهان ؟ !

وملأت خياشيمه رائحة البخور ورأى دخانه المتصاعد . وطالما رأى ذلك الدخان . ولكنه يراه اليوم سحبا تتكاثف على

عقول الناس ، وأستارا تنسدل على أعينهم .

عجب لهؤلاء الرجال والنساء الذين يتقدمون من التماثيل فى خشوع ، ويذرفون بين أيديها الدموع السخينة ، ويلتمسون الرضا من الأحجار والأوثان ؟ ! كيف آمن أبوه آزر وعمه هاران وجده ناحور ، وآباؤهم من قبلهم ، بهذه التماثيل التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟ !

وخرج من المعبد إلى الطريق المقدس الذى جلست على جانبيه العاهرات ، واجتاز الباب الذى يلفظ إلى الطريق العام وهو يتلفت ، يحاول أن ينفذ إلى سر ذلك الكون العجيب .

ومد بصره ناحية الجنوب الغربى وهو لا يدرى ما يجثم وراء ما يصل إليه بصره . لقد قال له أبوه وجده وأمه ، وقال له كل من سأله إن هناك صحراء جرداء مليئة بالشياطين والأشباح ، وقد أكد له الجميع تلك الحقيقة بيد أن عقله أبى أن يقتنع بها ، فقد اهتدى عقله إلى أن كثيرا مما يقولون أساطير وأوهام .

وهفت نفسه إلى تلك الصحراء ، وتمنى أن يضرب فيها ، أن يكشف عن وجهها اللثام ، أن يعرف أسرارها ؛ فقد كان تواقا إلى استكناه حقائق الأشياء .

ورأى قافلة تتأهب للمسير بحذاء ساحل البحر الأعلى ، بحر الشمس الغاربة العظيم متجهة إلى دلتا النيل ، فعزم فى نفسه أن يخرج يوما — عندما يشتد عوده ويصبح رجلا يستطيع أن يجوب الأرض — مع قافلة من تلك القوافل ، كما يجوبها الآن شريك أبيه لوجال .

وراح يقلب وجهه فى السماء ، ويمد بصره إلى البحار والأنهار

والسهول والجبال ، والحدائق التى اكتست ثوب الربيع والحقول التى اخضرت بالزرع ، والطيور التى حومت فى الفضاء ، وقطعان الماشية والأنعام ، والناس من شيوخ وعجائز وشبان وشابات وبنين وبنات ، فهمس فى نفسه هامس : هذا الكون لا بد له من خالق ، من إله واحد قوى قادر ، فلو كان له أكثر من إله لذهب كل إله بما خلق ، وفسد هذا النظام البديع الذى يسود الكون .

هذه الشمس تشرق من الشرق وتغرب فى الغرب ، وهذا القمر يظهر فى السماء هلالا صغيرا لا يزال يكبر حتى يكتمل بدرا ثم يبدأ فى الصغر حتى يختفى فيتم بذلك شهر ، وهذه الفصول تتتابع لا الصيف يسبق الخريف ولا الشتاء يأتى فى أوان الصيف . نظام دقيق دبره صانع حكيم لا يمكن أن يكون واحدا من تلك التماثيل العاجزة . إن لهذا الكون ربا قادرا ، ولكن من يكون ذلك الرب ؟

وانطلق وهو فى رفقة ذاته يفكر ويمعن الفكر حتى وصل إلى حقل منحه الملك للإيشاكو الكاهن الأعظم ، فرأى ثيران الآلهة تستخدم فى رى الأرض ، والكهنة يقطفون الفاكهة من أشجار جيرانهم ويستولون عليها ، فإذا ما ظهر الغضب فى أعين أصحاب الأرض قيل لهم إن ما يؤخذ منهم إنما يؤخذ للآلهة لتبارك لهم فى أرضهم ومحاصيلهم وذريتهم ، فيزول الغضب عنهم وتتهلل وجوههم بالبشر والحبور .

وطاف بذهنه خاطر : لابد أن تحرر عقول هؤلاء الضحايا من عبودية الكهنة ، أن تفتح أعينهم على حقيقة ضلالهم وفسادهم أن يثوروا على الأصنام التى لا تنفعهم ولكن تضرهم . فباسمها

تسلب منهم أشياؤهم لتمتلئ خزائن الملك والإيشاكو والكهنة ، وتفيض مخازنهم بالخيرات التى تقدم إلى مخازن المعابد عن طيب خاطر ؛ فقد أدخل رجال الدين فى روع ضحاياهم أن الآلهة قادرة على أن تطيل أيامهم على الأرض قبل أن تبعث بهم إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها !

ورجع إبراهيم إلى البيت فوجد أخويه ناحور وهاران يلعبان فى فناء الدار ؛ فلما رأياه أقبلا عليه وقال له ناحور :

— أين كنت ؟ إن أبى يبحث عنك .

— أين أبى ؟

— يصلى فى محرابه .

وذهب إبراهيم إلى معبد آزر فوجده قائما يصلى وأمامه تمثالٌ لإله القمر ، وهو يبتهل إليه فى حرارة وإيمان :

— يا رب ! . يا من تمتد قدرته الوهابة بين السماء والأرض ، يا من يجلب الغيوث والمواسم ،

ويسهر على الأحياء .

يا من يعظم فى السماء عالية وصيته :

ويعظم فى الأرض عالية وصيته .

يا من تسبِّح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية ؛ مشيئتك أنت فى السماء مشرقة .

نسألك أن تكشف لنا مشيئتك على الأرض ؛

فإن مشيئتك تطيل الحياة وتبسط الرجاء

وتشمل كل كائن .

وأنت تقضى بالعدل فى أقدار الناس ،
وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .
أنت رب الأرباب تجلّ عن الشبيه والنظير .

وراح إبراهيم يتأمل فى هذه الصلاة ، أهذه صفات التمثال الذى صنعه أبوه بيديه ؟ ! إنه لأعجز من أن تكون له قدرة ، أعجز من أن يجلب غيثا ، أعجز من أن تكون له إرادة ، إن كان له فى الأرض صيت فما له فى السماء قرار ولا برهان ولا مشيئة .

وانتبه إبراهيم على صوت أبيه يناديه بعد أن فرغ من صلاته :

— إبراهيم ؟ أين كنت ؟

— فى المعبد .

وتهللت أسارير الأب فقد حسب أن إبراهيم إنما ذهب إلى المعبد ليؤدى للأرباب صلاة تطيل أيامه على الأرض . وما دار بخلده أن الذى قاده إلى المعبد إنما هو الشك فى الآلهة وفى الملك الإله وفى الإيشاكو والأوريجاللو والكهنة ورجال الدين .

قال الأب وهو فى طريقه إلى حيث يصنع تماثيل الآلهة :

— لقد انتهيت من صنع بعض تماثيل الآلهة ، فخذها وبعها .

فحمل إبراهيم تماثيل مردوخ ونانا وعشتار وانطلق إلى المعبد يقلب التماثيل بين يديه فى هزء وسخرية ، ويعجب فى نفسه : كيف يركع إنسان عاقل لهذه التماثيل التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟ كيف يعقل أن تطيل مشيئتها الحياة وتبسط لها الرجاء ، وأن تكون لها أسرار لا ينفذ إليها أحد ؟

وقف أمام المعبد يحمل تماثيل الآلهة بين يديه ويقول :

— من يشترى من يضره ولا ينفعه ؟ . من يشترى ما يضره ولا ينفعه ؟

وبلغ نداؤه آذان الناس فراحوا يرمقونه فى غيظ وعيونهم يتطاير منهم الشرر ، إنه يسفه أحلامهم على الملأ دون أن يخشى بطشهم ، وهمّ رجل بأن يضربه وإذا بآخر يقول له :

— دعه لانتقام الآلهة فإنها ستثأر منه ، وسيكون العقاب الذى تنزله به رهيبا .

— لو تركناه فلتنزلن الآلهة علينا خسفا من السماء ، إذ تركنا من ينال منها يمشى على الأرض .

— إنه فتى لمـّا يدخل الإيمان قلبه ، فلعل الآلهة أن تهديه .

— لا بد من تأديبه .

— إن أردت أن تكرم الآلهة فلا تدعها بين يديه . ادفع ثمنها وخذها .

— أنا لا أشتريها ممن يسخر منها ومنا .

ودار الرجل على عقبيه وانصرف وهو يرمى إبراهيم بنظرات يتطاير منها الشرر ، وعاد إبراهيم يقول وهو ثابت الجنان وقد هان الناس فى عينيه :

— من يشترى ما يضره ولا ينفعه ؟

وضاقت إحدى العاهرات المقدسات بهذه السخرية ، فقامت إليه واشترت منه تمثال عشتار لتنقذها من المهانة . فقد عز عليها أن ينال فتى من كبرياء عشتار المتألقة دون أن تخشى أن تذله ، وقد أذلت من هو أرفع منه شأنا ؛ أذلت الآلهة فجعلت تموز

إله الإنبات يركع تحت قدميها ، وأذلت صناديد البشر وأحرقتهم بنار الوجد .

وقبل أن تنصرف قالت له :

— لولا أنها عطوف لأنزلت بك غضبها ، ولكن لا تطمع فى عطفها كثيرا فإنها متقلبة ، فحاذر يا فتى من تقلباتها .

وابتسم إبراهيم فى هزء فقالت له :

— إن فيك غرور الشباب وتمرده ، غدا عندما تكبر تعلم ما لذة الخضوع للآلهة ، وما لذة التضحية .

وشردت ببصرها قليلا وغمغمت :

— ما ألذ التضحية !

ثم مدت إليه يدها وقالت :

— تعال معى أعلمك كيف تضحى ، كيف تتذوق حلاوة الإيمان .

فأشاح إبراهيم بوجهه عنها ، ثم دار على عقبيه وانصرف يحمل بين يديه تماثيل الآلهة ويحس فى قلبه رضا ، فقد نفس عن بعض ما يحسه نحو هذه الأصنام التى لا تبصر ولا تسمع .

وسار على الشاطئ ، وإذا به يرى الفرات يجرى عذبا ليصب فى بحر الشمس المشرقة العظيم ، فخطر له أن يسخر من الأصنام التى يحملها ، فهبط إلى حيث الماء العذب وغمس رءوس التماثيل فى الماء وقال :

— ألا تشربون !.

وكان لوجال عائدا من رحلته فى طريقه إلى البيت فوقعت

عيناه على ما يفعله إبراهيم بآلهة قومه ؛ فوقف يرقبه من بعيد فى إكبار .

كان لوجال يسخر فى بعض الأحيان من معتقدات قومه ولكنه لم يفكر فى أن يعلن رأيه على الملأ ، ولم يخطر له على قلب أن ينال منها أو يفعل بها ما يفعله ذلك الفتى .

إن إبراهيم لشجاع ، فهو ينال من الآلهة على أعين الناس ، ويحقر الأصنام وإن كان أبوه يصنعها ويعول أسرته من أثمان بيعها ؛ ترى أدار ذلك بخلد إبراهيم ؟ إنه ولا ريب يعى كل ما يفعل .

وظل لوجال يرقب إبراهيم فى إعجاب وصوت يهمس فى أغواره :

— ليكونن لك شأن مع أبيك .:. وقومك .:. والآلهة جميعا !

٨

جن الليل على إبراهيم فدخل لينام ، بيد أن الوسن لم يطف بعينيه . كانت الأفكار تتوافد على رأسه توافد الموج ، كان يفكر فى الكون وفى القدرة التى تسيره . إن لهذا الكون إلها ، إلها واحدا لا شريك له ، وإن روحه لتهفو إلى معرفة هذا الإله العظيم والأنس به :

كان السكون مخيما على أور ، لا همسة ولا نأمة ، وكانت الليلة حالكة الظلام فلم يكن يتسلل إلى الغرفة بصيص نور ؛ ولكن النور الذى بدأ يضىء فى قلب إبراهيم كان يمكّنه من رؤية ما يدور فى ذهنه من أفكار فى وضوح .

وتأبىَّ النوم على إبراهيم فقام وخرج إلى الشرفة المطلة على فناء الدار ، وهب النسيم رخاء يداعب وجهه وينعش روحه ويغذى الأفكار التى تشغل عقله : إن هذا الهواء يرق تارة حتى لكأن الكون يتنفس أنفاسا نديّة ، ويثور أخرى حتى لكأن الكون ينفث نارا ودخانا .

ورفع إبراهيم بصره إلى السماء فرآها زرقاء صافية ، سافرة بلا حجاب ، لا توشى صفحتها رقع السحاب : إن السماء الليلة رقيقة مشرقة ، فلو دامت لها هذه الرقة وهذا الإشراق لما نزل منها الماء ، ولجفت الأرض وماتت وحل بالناس الدمار .

إن هذا الكون حى .. إن الروح التى تسرى فيه هى روح

الإله .. وإن الأنفاس التي تتردد بين جنبانه هي أنفاس الرب .
وأحس إبراهيم بروحه تهفو إلى روح الرب ، وبرغبة طاغية في
أن يذوب بكل وجدانه في هذا السكون .

وعلى الرغم من السكون الشامل أحس بأن كل شيء حوله
ينبض بالحياة ، وأن ذلك النبض لا بد ينبع من حياة خالدة ..
حياة عميقة ، حياة يتغلغل سرها في كل شيء . ولكن أين هي
هذه الحياة الخالدة ؟ أين هي هذه الحياة العميقة ؟ أين هو هذا
السر .. سر الحياة ؟

وراح يهبط في الدرج كالمسحور تتلى بين جنبيه صلاة وإن
لم تتحرك بها شفتاه : « إنك في كل شيء ، في الماء الذي يتغلغل
في أحشاء الكون ، في عبير الأزهار ، في نضارة الثمار ، في اخضرار
الأشجار ، في السماء ... وفوق السماء ... قلبي يعرفك ... روحي
تشعر بك ، ولكني أريد أن أراك ... أريد أن أهتدي إليك ...
فكيف الوصول إليك ؟

وانساب في فناء الدار وهو خاشع لا يسمع إلا الأصوات
التي تنبعث من أعماق ضميره ، وإذا بصرير متصل يعكر سكون
الليل ؛ فالتفت فوجده ينبعث من غرفة آزر التي يصنع فيها تماثيل
الآلهة ، فسار إليها وفتح بابها ولكنه لم ير في أول الأمر شيئا ،
فقد كان الظلام ثقيلا .

وبدأت عيناه تألفان الظلام ، فرأى الجنادب تسعى على وجوه
الآلهة وتلحس أعينها وتدخل في آذانها .

فقال :

— أفواه لا تنطق ، وأعين لا تبصر ، وآذان لا تسمع ، وأقدام لا تسعى ، وتماثيل عاجزة لا تنفع نفسها ولا تغنى عن غيرها شيئا .

وسار حتى خرج إلى الطريق فألفى نفسه أمام الكون العريض وجها لوجه . فضاء لا يحد .. لا حواجز زائفة بينه وبين الدنيا التى يثوى بين أحضانها .

أحس الوجود كله يسرى إلى روحه ، وفرحا عظيما يغمره . فقد أخذ ظلام نفسه ينقشع ليحل مكانه نور جليل ، نور تدركه بصيرته قبل أن يراه بصره .

وراح يقلب وجهه فى السماء ليدرك الحقيقة العميقة التى تتلهف عليها نفسه ، ليكشف حقيقة الإله الذى يحس به يسرى فيه مسرى الدم ، وأخذ يبتهل :

— يا رب ! أنا محب .. قلبى يعرفك .. روحى تشعر بك .. أريد وجهك .. أريد أن أراك ..

وصفت نفسه وأرهفت روحه حتى لكادت أن ترى روح الحقيقة التى حوله ، بيد أنه ما يزال يبحث عن وجه إلهه ، فراح يعاود الابتهال فى حرارة :

— أريد وجهك .. يا رب أرنى وجهك .. أريد أن أراك .

وكانت الليلة بلا قمر ولا نجوم ، ليلة من ليالى آخر الشهر ، وكان كوكب المشترى بازغا يتلألأ فراح ينظر إليه ويفكر فيه ، فاذا بوجد فياض يملأ وجدانه ويغمر روحه ، وإذا بطمأنينة عجيبة تغشاه فقال فى فرح :

— هذا ربى !

وخيل إليه أنه اهتدى إلى مفتاح الأسرار المغلقة ، أسرار الحياة الخالدة . الحياة العميقة : ألم يسفر له الإله عن وجهه !

ورفع عينيه إلى السماء وبين جنبيه فرح فياض ؛ وكادت الحكمة تستقر فى قلبه فقد اهتدى إلى الإله وعرف طريق الوصول إليه . بيد أن نبع سروره غاض فجأة ، ونضبت الحكمة قبل أن تستقر فى سويداء قلبه . فقد اختفى الإله من رقعة السماء ، وتركه فى بيداء الحياة وحده بلا سند ولا معين .

أفل الإله . أيكون إلها ذلك الذى يأفل ؟ لا .. إنى لا أحب الآفلين .

ودار إبراهيم على عقبيه وكر راجعا إلى الدار وما تسرب اليأس إلى قلبه . فقد غشيه الإشراق وانسل نور الإله إلى وجدانه ، فإن كانت عيناه عجزتا عن إدراك كنهه ، فإن إلهه الذى يحبه والذى تعلق به فؤاده لن يتركه فى حيرته يبحث عنه دون أن يجده ، فإن الحب لا يكتمل إلا فى فناء المحب فى المحبوب .

ودخل إلى فراشه ونام ؛ ولكن نفسه كانت متيقظة تجاهد أن ترى وجه إله الكون فى وضوح ، فإن كان سنا الكوكب قد بهر عينيه عن الحقيقة الخالدة زمنا حتى أفل فكفر به ؛ فالحقيقة العميقة لا تزال تخفق بين جنبات الكون وإن لم يهتد إليها . إنها موجودة وإن لم يضع يده عليها ، كل ما فى الحياة يعلن عن بديع صنعها ، عن قدرتها ، عن مشيئتها .. فإن خدع بنور الكوكب الليلة فإنه سيعاود البحث حتى يجد رب الأرباب .

واستيقظ من نومه وخرج إلى الشرفة المطلة على فناء الدار والتى يستطيع منها أن يمد عينيه إلى السماء ، السماء التى انجذب إليها فراح يتأمل فيها كما يتأمل فى كل ما تصل إليه عيناه : فأحس تناسقا مع كل ما حوله ، وتعاطفا مع الكون العظيم . إنه ينهب الوجود بروحه ويستشعر زحابة الحب التى تملأ جوانحه ، بيد أن البذرة التى بذرت فى وجدانه لم تتحول بعد إلى نبتة روحية تسمو إلى ما فوق الطبيعة والجثمان ، وإن زيت نفسه الذى يغذى أفكاره لم يتحول بعد إلى نور إلهى فياض .

إنه لا يزال مقيدا بأغلال الطبيعة التى يثوى فى أحضانها ، مشدودا بذاته المحصورة بين السماء والأرض : وإن روحه لا تزال فى طريق التحول إلى نور طاهر يستطيع أن يبدد الظلام عن الحقيقة الخالدة .

وأخذ يقلب وجهه فى كل ما حوله : السماء .. السحاب .. الشجر .. الطير .. عبير الحقول .. ماء النهر الرقراق .. إن هذه كلها رسل الخالق إلى ضميره . إنها تملؤه بالحنين إليه . إنه على وشك أن يصل إلى غاية الوجود ؛ بيد أنه ما يزال سجين فكرة .. فكرة رؤيته وجه الإله .

وهبط فى الدرج وكل ما حوله يجذبه إليه وتملأ نفسه بالفرح ؛ وما كان يعكر اكتمال نشوته إلا اللهفة على أن يهتدى إلى الإله الذى يبحث عنه . وانساب فى فناء الدار خفيفا كالطيف . يحس أنه ولد من جديد ميلادا أعظم من ميلاده يوم وضعته إمتالى منذ سنين .

ووصل إلى معبد البيت الخاص ، وبلغ سمعه صلوات أبيه وأخويه ناحور وهاران ، وعجب فى نفسه كيف يركع أبوه وأمه وناحور وهاران لتمثال صنعه آزر بيديه كانت الصراصير منذ قليل تسعى على وجهه وهو عاجز أن يبعدها عنه .

لقد هزمت نفوسهم أرواحهم وطمست عقولهم . إنهم ضحايا زيف حجب عنهم لب الحقيقة وحطم التناسق بينهم وبين الكون . لقد استبدت بهم تقاليد الأجداد فأطفأت النور الباطنى الذى ترى به البصائر رسل الخالق فى زفيف الهواء ورفيف أوراق الشجر . فى السحر . فى الشروق والغروب .

لقد اهتدى إلى أن عبادة التماثيل ضلال مبين ، وأن لهذا الكون العريض ربا ينشرح صدره كلما استشعر وجوده فى أعماقه ، ويتهلل بالفرح كلما امتزجت روحه بروح الحياة التى تضمه فى حنان إلى صدرها ، فإن كان لم ير وجه الله بعد فإنه فى الطريق إليه .

وتحرك حبه الفياض لأمه وأبيه وأخويه فساءه أن يتركهم فى ضلالتهم يعمهون ، ودفعه ذلك الحب إلى أن يقتحم المخاطر لينقذ أحب الناس إلى قلبه . ليخرجهم من الباطل إلى الحق ، وهل هناك خطر أعظم من تسفيه العقائد ورفع معول الهدم فى وجه الدين ؟

وكانت الشمس تغمر المعبد كله إلا أن إبراهيم كان يراه غارقا فى الظلمات . وكان آزر وأهل بيته يحسبون أنهم أقرب ما يكونون إلى الحقيقة الخالدة .. إلى رب الأرباب مردوخ ، بيد أن إبراهيم كا يراهم يخبطون فى مستنقعات الباطل . لقد طهروا أنفسهم بالماء

قبل أن يقفوا بين يدى أصنامهم ، غسلوا أجسامهم به ولكنه لم يمس أرواحهم ولم ينظفها من أدرانها . ألا ما أجمل الاغتسال إن أحس المغتسل أنه بالماء الطاهر إنما يغسل روحه .

ودخل إبراهيم المعبد وتقدم إلى تمثال الإله وهو يستشعر ألما ، ولم يجعله الألم ينكص على عقبيه فقد عرف أن السعادة ليست فى اجتناب الألم بل فى تحمله من أجل من فاض قلبه بحبهم .

وانتزع الإله من مكانه وألقى به بعيدا ، فإذا بصيحات إنكار تنبعث من كل الأفواه ، وإذا بالفزع يرتسم على الوجوه .وإذا بوجه إيمتالى يمتقع وقلبها يخفق فى رعب وهلع . كانت فى فزع من أن يحل غضب الآلهة جميعا على ابنها الآبق من حظيرة الإيمان !

وهرع آزر إلى التمثال والغضب يكاد يفجر صدره ويكتم أنفاسه ، وراح يمسح التمثال فى خوف ويقول لإبراهيم :

— أجننت ؟ ماذا فعلت أيها الشقى ! لتنزلن الآلهة غضبها عليك .. إنى برىء مما فعلت ..

وذهب آزر ليعيد تمثال مردوخ إلى مكانه ، إلا أن إبراهيم ألقى بتمثال نانا على الأرض وهو يقول :

— ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟

فقال ناحور فى غضب :

— إنها آلهتنا يا إبراهيم !

فالتفت إبراهيم إلى أبيه الغاضب وقال :

— يا أبت ، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ !

فقال آزر فى غضب :

— وجدنا آباءنا لها عابدين . أراغب أنت عن آلهتنا يا إبراهيم ؟

— أنا برىء مما تعبدون .

فدنت إمتالى من ابنها وقالت :

— يا بنى هذه آلهتنا التى نضرع إليها كل يوم لتعطينا الخبز الذى نأكله ، ولولاها ما نصب ملك ولا ولد كاهن أعظم :

ورأى آزر أن ينضم إلى زوجه فى نصح ابنه الذى أتى أمرا إدًّا ، وأهان الآلهة دون أن نخشى بطشها فقال :

— ولولاها ما جادت السحب ولا هطلت الأمطار من السماء ، ولا خرجت النباتات من الأرض ولا فاضت الأنهار بالماء .

— إنها يا أبت من صنع يديك ، أنت ربها ، فكيف صارت يا أبت أربابا لك ؟

فقال آزر فى هدوء لينزع من رأس ابنه الفكرة الخاطئة التى استقرت فيه ، ويمحو من قلبه ظلال الشك التى رانت عليه :

— إنها يا بنى رمز لمن رهبته وخشيته تضاهيان السماء ، وظله منتشر على جميع الأقاليم ، وتساميه يبلغ عنان السماء . إنها رمز لمن يحمل إليه السادة والأمراء الهدايا والقرابين المقدسة ، ويقيمون له الصلوات ، ويتلون له الدعوات والتضرعات .

وتناول إبراهيم تمثالا من تماثيل الآلهة وحطمه بين يديه وقال :

— ألا ترى يا أبى أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا يدرأ عن نفسه الهوان ؟ ألا ما أحقر ذلك الإله الذى أدق عنقه بيدى .

فقالت إمتالى فى رعب :

— صه ، صه يا إبراهيم حتى لا تسمعك الآلهة فتبعث بك إلى العالم السفلى ، للدود وعذاب الهون .

فقال إبراهيم ساخرا :

— أولم تسمعنى بعد ؟

وأشار إلى أذنى مردوخ الكبيرتين اللتين ترمزان إلى الحكمة :

— وما فائدة هاتين الأذنين الكبيرتين إن كان لا يسمع ؟ وهاتين العينين الواسعتين إن كان لا يرى ؟ وهاتين الشفتين إن كان لا ينطق ؟ وهذا الأنف إن كان لا يشم ؟ ..

والتفت إلى أمه وقال :

— لا تراعي يا أماه فآلهتكم أهون من أن تنالنى بسوء .

فصاح ناحور ليرضى أباه وأمه :

— كفى يا إبراهيم ، فآلهتنا قادرة على أن تحيلك حجارة .

فقال إبراهيم فى مرارة :

— عجبت لمن يرى النور ويصر على أن يغمض عينيه على الظلام خشية أن يبهره النور ، ليست آلهتكم على شىء . فان كانت لها قدرة ومشيئة لكنت أول الراكعين لقدرتها الساجدين لمشيئتها ، ولكنها أعجز من أن يكون لها شىء . .

فقال آزر وإمتالى وأخواه :

— إنها آلهة آبائنا وسنعبدها يا إبراهيم ! وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال وهو ينظر إليهم فى إشفاق :

— لقد كنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

هجعت الكائنات وراح الكون فى سبات ، إلا إبراهيم كان شاردا يفكر فى ملكوت السماء .

ودخلت عليه أمه وقالت :

ـ ألا تأكل يا إبراهيم ؟

فقال فى اقتضاب :

ـ شكرا لك يا أماه .

إنه لم يذق شيئا منذ الصباح فقد عزفت نفسه عن الطعام والشراب إنه إنما يريد غذاء لروحه ، وريا لظمئه إلى الحقيقة . إنه يطمع أن يتجلى له الإله .

ووضعت أمه المسرجة عن كثب منه ، وكانت آنية من فخار تسبح فى وسطها فتيلة طافية على الزيت ، فراح نورها يتراقص على الجدران .

ولم يحفل إبراهيم بالنور الذى غمر المكان ، وإنما كان يرقب شروق النور فى قلبه ، كان يبحث عن النور الإلهى فى كل ما حوله ، كان يفتح عينيه وفؤاده وذاته ليرى جمال الذات الإلهية ، ليرى أنوار التجليات .

إنه يتحرق شوقا إلى معرفة كنه الإله .. إلى الوصول إلى جوهر الحقيقة ، إلى الوصول إلى الاستقرار والطمأنينة والسلام . إنه

لا يطيق البقاء داخل البيت ممددا فى فراشه بغير عمل : إنه يتلهف إلى الخروج إلى الدنيا الواسعة ليغترف من كنز الوجود فيزيد ثروة روحه ، ليبحث عن المفتاح المقدس الذى يفتح له أسرار السماء فتتبدى لعينيه الحقيقة سافرة ناصعة .

وهب من فراشه وهو مفعم بإحساسات زاخرة بالإيمان ؛ إلا أنها إحساسات يشوبها قلق ، قلق من لم يقبض بيديه بعد على مفتاح الأسرار الذى يفتح به عالم النور . وملكوت السماء .

وذهب يغتسل ليطهر بدنه ويطهر روحه ، فقد كان من فرط إيمانه يحس أن الماء يغسل وجدانه . وأسبغ الاغتسال فخرج نقى السريرة سليم القلب ، يعاود البحث عن الله .

وثوى فى أحضان الكون وألقى إليه السمع ومد إليه البصر وفتح له الفؤاد ، فإذا به يحس أن كل شىء حوله حى تخفق بين جنبيه روح ، حتى الأرض التى يطأ أديمها تنبض بالحياة . حتى الجبال الشامخة المجللة بالسحر من حوله تعكس اللمسة الإلهية كما تعكسها كل الكائنات . إن الروح التى تسرى فيه لكالروح التى تسرى فى كل ما حوله : فى الشجر والماء ، فى النسيم والسماء ، وخشع يصغى إلى الكون ويتلقى فى فرح كل ما يوحى به إليه .

وفاضت نفسه بالنشوة وهز وجدانه ما فى الكون من جمال ، وأصبح لكل ما يفتح عليه عيناه معنى جديد ، معنى روحى لم يكن يدرك سره قبل أن ينظر فى نفسه وفى كل ما حوله . وتهلل بالفرح لهذا التناسق العجيب بين روحه وروح العالم الذى يحتويه فى أحضانه

وشعر كأنما صيغ من رقة ، كأنما أصبح روحا هفهافة شفافة

انطلقت من سجن النفس تهيم فى السموات . وتملأ البصيرة بجمال ذات الله .

وراح يتلفت مبهورا وكل خلجة من خلجات نفسه الزكية تقول فى تسبيح :

— ربنا ما خلقت هذا باطلا .

وكاد أن يضع يده على كنز الوجود ، أن يرفع الأستار المسدلة على بصيرته فيرى وجه الحقيقة العميقة ، الحقيقة الخالدة ، الحقيقة الأزلية ؛ بيد أنه عاد للفكرة التى استولت عليه فقال فى ابتهال :

— يا رب أين أنت ؟ أريد وجهك .. أريد أن أراك .. يا رب تجلّ علىّ .

ورفع بصره إلى السماء ، وكان القمر فى تمامه يرسل ضياءه فيغمر الدنيا بنور عذب ساحر ، ويبعث فى كل ما يلمسه روحا تفيض بالصفاء ؛ راح ينظر إلى القمر وهو مأخوذ . إنه نفس القمر الذى رآه منذ أن رفع عينيه إلى السماء ، ولكنه الليلة يرى فيه شيئا جديدا لم تكن تدركه بديهة قلبه من قبل . إن ما كان يبحث عنه هو هذا السناء .. وهذا التألق .. وهذا النور .. وهذا السمو ، ها هى ذى الحقيقة الأزلية تتجلى لعينيه ، لقد عثر على سر الوجود الحقيق بأن يغنى روحه بكنوز من الفيض الإلهى ! وتهلل بالفرح فقد حسب أنه اكتشف كل بهاء العالم ، وأنه اهتدى إلى الإله الحق ، وأن السلام عرف طريقه أخيرا إلى قلبه .

وراح يرنو إلى القمر فى خشوع كأنما هو فى صلاة ، وكل

خلجة من خلجات نفسه ، وكل خفقة من خفقات قلبه ، وكل زفرة من زفرات روحه ، وكل نبضة من نبضات عقله تقول : « عرفت الإله ! عرفت الحقيقة الأبدية التى يبدد نورها ظلمات النفس ، وتمد الأرواح بالنور الإلهى الفياض » .

وراح يبتهل فى حرارة :

— يا رب ارض عنى .. إنى أحبك فامنحنى يا رب حبك . إنى أريد أن أرى بك ، وأن أسمع بك ، وأن أنطق بك ، وألا أسعى إلا فى طريقك ، وألا أحب إلا فيك ، وألا أبغض إلا من أجلك .

يا رب إنك قديم جديد ، إنك الليلة شاب . ومن قلبك ينبثق الشباب الخالد ، فأمدنى يا إلهى بالقوة ، وأيدنى بروح من عندك ، ما دمت يا إلهى قد رفعت الحجاب عن عينى . وفرشت طريقى بالنو .

لقد بذرت فى روح إبراهيم بذرة الإيمان ، بذرة الحقيقة العميقة ، بذرة الحقيقة الخالدة ، بذرة الحقيقة الأبدية .. فإن كان اتجه إلى القمر فإن البذرة لا تنم عن نوع الشجرة ولا طعم الشجرة ، إلا بعد أن تنمو وتترعرع وينضج الثمر .

إن بذرة الإيمان الحق ، بذرة معرفة الله القادر بذرت فى ضمير إبراهيم ، ولن تكشف عن حقيقة جوهرها وكنوز معدنها إلا بعد أن تتغلغل جذورها فى أعماق روحه . وتنمو وتتفرع فى السماء ، وترتفع إلى ما فوق الطبيعة والحسبان .

— يا رب أيقظ روحى ، وابعث شعاعك المقدس ينير ظلام

نفسى ، ويسرنى يا إلهى لأن أعكس نورك ، وأن أنفذ فى الأرض مشيئتك .

واختفى نور القمر فجأة فخفق قلب إبراهيم فزعا ، ورفع عينيه إلى السماء ليرى ما غشى وجه الإله ، فإذا بسحابة داكنة تحول بين القمر وبين أن يبعث نوره إلى الأرض .

واستولى القلق على إبراهيم ، وعرف طريقه إلى قلبه مرة أخرى بعد أن حسب أن السلام قد استقر فيه ، وراح يقاوم ظلال الشك التى رانت عليه . أخذ يقنع نفسه أن نقاب السحاب لا يضير الإله ، فهو وإن كان حجبه عن الأرض فإنه ما يزال يتألق فوق السحاب بنوره وجلاله وسناه .

ومر بعض الوقت وإبراهيم يرنو إلى السماء فى قلق ورجاء ، حتى إذا انقشعت السحب ورأى القمر بازغا قال :

— هذا ربى .

وانقلب إلى أهله مسرورا ، فقد حسب أنه اهتدى إلى نبع النور ، إلى نور النور ، إلى القديم الجديد ، إلى الحقيقة الأزلية .

* * *

وخرج ناحور وهاران يحملان تماثيل الآلهة التى صنعها آزر يبيعانها أمام معبد نانا ، وكانا سعيدين بعملهما ، فقد كانا ينسلان بين الفينة والفينة إلى حجرات المعبد المنعزلة يصغيان إلى الموسيقى التى تتلقاها فتيات المعبد على أيدى الكاهنات ، ويسعدان بالأنغام الشجية المنبعثة من المزامير والأبواق ، والدفوف والعيدان ، والطبول والصنوج . وكانا غالبا ما يمزحان مع العاهرات المقدسات ،

بيد أنهما لم يستنكرا عملهن كما فعل أخوهما إبراهيم ، فقد غرس في قلبيهما حب فتيات المعبد والنظر إلى ما يفعلن نظرة إجلال ، فهن إنما يضحين بأجسادهن في سبيل الآلهة ، في سبيل هدف سام !

وخرج إبراهيم يرعى الغنم ليأكل من جهده ، فقد أدرك ببديهة قلبه أن المال الذى يكسبه أبوه من بيع تماثيل الآلهة مال حرام ، وقد عزم ألا يدخل جوفه مأكل من حرام ، بعد أن اهتدى إلى نور الحقيقة الخالدة .

وترك إبراهيم الغنم ترعى في المروج الخضر وراح يتلفت في الكون وهو مفعم بالفرح ؛ كان كل ما حوله يسبح بجمال ذات الإله . لكأنما الزنابق البيض خلقت من نوره ، وكأنما النوار الأصفر الذى يمتد حتى الأفق يمنح النفس إشراقه ، وكأنما تلك الخضرة الزاهية التى تكسو الأرض وبينها البنفسج الأزرق والورد الأحمر حلة سندسية موشاة بيواقيت وزبرجد ومرجان . كل هذا التناسق في الألوان إنما يسبح للفنان المبدع الذى ينفخ في كل ما يبدع من روحه وجماله .

واتسعت نظرة إبراهيم ونما إدراكه ورحب أفقه ، فكان يرى الجمال في كل ما تقع عليه عيناه ؛ لم تصبح الألوان المتناسقة هى كل ما يحرك سروره ، بل صار كل ما في الدنيا حبيبا إلى قلبه : الأرض الجرداء .. الجبال الصماء .. الريح الصرصر .. الإعصار الجبار .. قيظ الصيف وقر الشتاء .. موج البحر وسيول السحاب .. حتى الموت لم يعد يخشاه ، فقد أحب إلهه من كل قلبه ، فأحب كل ما جرت به مشيئته وكل ما خلق من كائنات

فى الأرض أو فى السماء .

تحررت روحه وانطلقت من سجن النفس فاتسقت آفاق رؤيتها ، أحست أن الكون ليس هو ذلك الجزء الضيق من الدنيا الذى تراه عيناه ، وتسمع ترددات أنفاسه أذناه ، وتطويه قدماه ؛ إنما الكون رحيب واسع زاخر بقدرة الإله ، فإن عجز عن أن يراه وعن أن يحتويه فى فؤاده ، فإنه لم يعجز عن أن يحبه وأن يتناغم معه ، وأن ينعم بالسرور لذلك النبض الحى السارى فى كل ما حوله .

وبصر بشاة صغيرة ، بيضاء جميلة ، تثب فى فرح بين القطيع ، وتمرح فى الخلاء ، وتسرى فى الكون سريان الروح . كانت فى وثوبها آية ، وفى مرحها آية ، وكان بريق الفرح الذى يشع من عينيها آية ، وانفعال القطيع بمرحها ومشاركته إياها فى حبورها آية .

وهب النسيم ينفخ فى مزامير الطبيعة ويداعب أوتار عيدانها وينقر فى رقة دفوفها ، فبدا كأنما الكون جميعه يعزف لحنا علويا ، فتهللت نفس إبراهيم بالفرح وأفعم بالنشوة ، فالحياة ترقص من حوله .

وراح يرقب اللوحات التى يبتدعها الفنان الأعظم على صفحة السماء ؛ إنها لوحات رائعة لا تعرف الجمود ولا يدب فيها الفناء . إنها حية متجددة نابضة بروح الإله .

إنه يرعاها منذ شروق الشمس حتى غروبها ، ويرعاها فى فحمة الليل وتألق النجوم وبزوغ القمر ، ويرعاها فى الصيف

والشتاء والربيع والخريف ، ويرعاها والسماء صافية الأديم ثم وهي ملبدة بالغيوم ، ويرعاها والهواء يهب رخاء ثم والرياح تعصف ، ويرعاها والطبيعة تتنفس أنفاسا رقيقة عطرة ، ثم وهي غاضبة ثائرة . إن هذه اللوحات في هدوئها وثورتها ، في إشراقها وتجهمها ، في نورها وظلمتها ، إنما تسبح على الدوام بمجد الإله !

وخشع إبراهيم وحنى رأسه لعظمة الخالق ، وراحت مشاعره تردد صلاة عميقة حارة ، صلاة لم تجر على لسانه فقد كانت الألفاظ أعجز من أن تعبر عنها أو ترتفع إلى نبضها .

كان نور الإيمان يتسامى من قلب إبراهيم إلى السماء ، وكان نور الإله ينسكب من فوق الكون كله في قلبه لينير له طريق الوصول إليه .

أحس إبراهيم رحابة واتساعا في بصره وبصيرته ، في قلبه ووجدانه ، وانطلقت روحه حرة ترفرف في كل مكان . وتسمو وتتسامى حتى لتكاد تجاوز المكان وتمحو الزمان من حسابها . حطمت روحه كل القيود التي تشدها إلى الأشياء والكائنات إلا ذلك القيد الجديد الذي ربطها بروح الكون ، بالحقيقة الخالدة ، بالحقيقة الأزلية : قيد المحبة الذي تتهلل له نفسه بالفرح .

وغمرته أنوار التجليات وإن كان المساء قد أظل دون أن يحس بالظلام الذي تلفع به الكون ، وأشرق النور في قلبه وإن غابت الشمس وذاب الشفق في سواد الرداء ، واستمر في السجدة الطويلة التي سجدتها روحه إلى أن أحس حركة الغنم من حوله ، فأفاق من وجده وعاد إلى الأرض من رحلته الروحية التي حلقت

به فوق السماء ، عاد لينعم بالأنس وغذاء الروح ، ويرى الحقيقة التى تبلجت لعينى بصيرته كفلق الصبح أو كرائعة النهار . .

وتلفت حواليه فإذا الليل البهيم قد جثم على صدر دنياه التى تحدها جبال مغبر وأرض أور وبحر الشمس المشرقة العظيم . ونظر إلى غنمه فألفاها تحن إلى الأرض ويداعب أعينها النعاس ، فتحركت شفقته وود لو يمرر يد الحنان على ظهورها وأن يضمها إلى صدره ، فقد أحب فيها اللمسة الإلهية التى وهبتها الحياة .

وسرى هو والغنم الوديع فى ملكوت الله ! كان الغموض قد انجلى عن روحه ورفعت الأسجاف عن عينى بصيرته ، بيد أن عقله كان ما يزال يلح فى رؤية وجه الإله . فإن بذرة الإيمان التى بذرت فى أعماقه قد بدأت تنمو وتمتد جذورها ، وتتفرع غصونها ، وتترعرع أوراقها ليتفيأ ظلالها الضمير والبصيرة والوجدان ، أما عقله فقد كان ما يزال تحجب جوهره كلف من غموض ، لا يلبث أن يتبدد يوم يكتمل نمو شجرة الإيمان .

ورفع عينيه إلى السماء يبحث عن القمر ، لقد رأى الحقيقة الأزلية ببصيرته ، وكادت روحه أن تتحد مع روح العالم فى صلواته وابتهالاته وسجود وجدانه لخالق الكون والجمال . ورأت عيناه جمال ذات الإله فى الورود ، وفى الزنابق ، وفى الأشجار ، وفى سريان النسيم ، وفى هبوب الرياح ، وفى نفسه ، وفى كل ما حوله ؛ بيد أن عينيه كانتا ما تزالان تتطلعان إلى القمر استجابة لنداء العقل الذى لم يغتسل بعد كاغتسال الروح فى فيض النور .

لم يكن القمر فى تمامه بل كان ينحدر نحو النقصان ليعود إلى

المحاق وقد فقد كثيرا من سحره ورونقه . وإن تأثره الذى ملأه بالفرح ليلة اكتماله بدأ يضعف . إنه متقلب لا يستقر على حال ، أيمكن أن يزدهر الإله ويذبل كما يزدهر النوار ويذبل ؟ أيمكن أن يموت الإله ويولد كما يموت الزرع ويولد ؟ أيمكن أن يكون إلها ذلك الذى لا يتحكم فى إرادته بل يخضع لإرادة أخرى تكتب عليه الاختفاء والظهور ؟ !

خيل إليه أن القمر هرم فسرى فى نفسه الكدر ، لقد اطمأن إليه وحسبه الشباب الدائم وكنز الوجود ، فإذا الشباب تعبث به الليالى وإذا كنز الوجود يغيض .

وعكرت الحقيقة التى تبدت لعينيه صفو السلام الذى عاش فيه . إنها حقيقة مرة ، ولكن على الرغم من مرارتها فإن فيها طعم الحقيقة .

وعاوده القلق ولكن لم يدب إلى قلبه اليأس ، إذ كيف يعيش اليأس مع النور الإلهى الذى تجلى لروحه وراح يزحف ليغمر حسه ويبهر عقله بسناه !

ظل يرنو إلى القمر ، إلى من هلل له عقله ليلة زعم وهمه أنه اهتدى إلى الحقيقة الخالدة : « عرفت الإله ! عرفت الحقيقة الأبدية التى تبدد ظلام النفوس وتهدى الأرواح إلى النور الإلهى الفياض » فأحس تضاؤلا ، فمن حسب أن نوره يبدد ظلام النفوس لا يقوى على أن يبدد ظلام الليل من حوله . فكيف يقوى وهذا حاله على أن يهدى الأرواح إلى النور الفياض .

لقد ركن إلى عقله يسأله ويستخبره ويطلب عنده النصح

وإن لم يفطن بعد إلى حقيقة كامنة فى نفسه ، حقيقة أن بديهة القلب أصدق من بديهة الذهن ، وأن بصيرة القلب أحدُّ من بصر العقل الذى تعوق انطلاقه الحواجز والسدود .

وما انفك يرصد القمر وفى عقله إنكار ، وإن يكن فى قلبه نور يبهر نور الهلال الذى كان يذبل ويذبل . فلما أفل القمر قلب إبراهيم وجهه فى الكون وقال :

— لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

١٠

جلست سارة تتزين وتتأهب لأهم حدث فى حياة كل فتاة ، فالليلة يقدم إبراهيم ابن عمها آزر لخطبتها . كانت سعيدة يترقرق فى عينيها الجميلتين الآسرتين الفرح ، وتتراقص على شفتيها إشراقة تعكس إشراقة روحها . وكانت جاريتها عن كثب ترقبها فى غدوها ورواحها مبهورة بجمالها الفتان ، فما كانت تمتد عينان إلى سارة إلا وتسحران بجمالها الذى تخشع لجلاله القلوب .

لقد شغف سارة ابنُ عمها الفتى حبا ؛ كان رقيق القلب وديعا ، راجح العقل مستقل الرأى ، عزوفا عن اللهو الذى ينغمس فيه شباب أور ؛ فما كان يؤم الحانات التى تنتشر فى أحياء المدينة ويتصاعد منها صياح السكارى ، وصراخ صاحبة الحان وهى تصر أن يكون ثمن خمورها شواقل من الفضة لا أجوارا من الشعير ؛ وما عرف عنه التردد على فتيات المعبد المقدسات فما كان من المؤمنين بعشتار وفسقها .

انطبعت صورة إبراهيم فى قلب سارة واستولت على خيالها ، فقد كان إبراهيم ربعة فى الرجال ، ناصع الجبين أدعج العينين ، مسترسل الشعر تزين وجهه لحية . كانت العين ترتاح إلى صورته . أما ما كان يجذب العيون والقلوب إليه جميعا فجمال روحه وحسن منطقه ورجاحة عقله . وطاف بذهن سارة ما كان بينه وبين أبيها

هاران من مساجلات فتهللت بالفرح . كان قوى الحجة يميل إلى السخرية وإن كان لا يقول إلا الصدق ، وكان لا يخرج من نقاش إلا وقد بهر السامعين بقوة بيانه وسلامة حججه .

وأحست فى أعماقها أنه سيكون لها ولإبراهيم شأن وأن زواجهما سيكون مباركا ، فهو زواج لم تسعد بمثله أور : زواج الجمال الساحر الرائع الأخاذ ، بالعقل الراجح والروح القوية والعزيمة الصادقة .

وراحت أم سارة تجعد شعر سارة من أمام ليتموج فوق جبينها ، وترسل ذوائبه لتتدلى على صدرها ، وكانت تتطلع إلى ابنتها مزهوة ترقص النشوة بين جوانحها ، ولم تستطع أن تكتم إعجابها بجمالها فقالت :

— كان مباركا اليوم الذى أطلقنا عليك فيه اسم سارة : أتعرفين يا حبيبتى ما معنى سارة ؟

فقالت سارة وهى تبتسم :

— معناها أميرة .

فقالت الأم وانعكست فرحتها على وجهها :

— أنت أجمل من أية أميرة فى قصر أى ملك .

فقالت سارة وابتسمت عن لؤلؤ نضيد :

— ولكنهن نبيلات يا أماه !

فقالت أمها فى حماسة :

— لأنت أنبل منهن جميعا .

وراحت الجارية تعد ثوب سارة ؛ كان لباسا كاملا ذا أكمام

طويلة وتنورة فضفاضة ذات حواشي مزركشة ، وراحت تستخرج الحلى من صناديقها : كانت قلائد وأطواقا وأساور وخلاخيل .

وأخذت الجارية تغنى فى غدوها ورواحها بصوت جميل :

أيها العروس الحبيب إلى قلبى .

جمالك الباهر حلو كالشهد .

أيها الأسد الحبيب إلى فؤادى .

أسرت مهجتى ، فدعنى أقف بين يديك وأنا أرتجف من الخوف ، أملأ عينى بجمالك الفتان ،

وأمد إليك أناملى . فمبسك أشهى من الشهد .

إن قلبك متعطش إلى الحب . وأنا أعرف كيف أدخل إليه السرور ،

وروحك تنشد البهجة . وأنا أعرف كيف أبهجها .

أنت مولاى ! أنت إلهى ! أنت سيدى !

نم فى بيتنا يا حبيبى حتى انبلاج الفجر .

وسيطر السكون وامتلأت القلوب بالنشوة . وهامت الأرواح فى عالم السحر . حتى انبعثت دموع الرقة من عينى الأم ونظرت إلى الجارية فى إعجاب وقالت :

— صوتك رائع ينفذ إلى القلب ويستقر فى الأعماق .

فقالت الجارية وقد شردت ببصرها :

— كانت أمنيتى أن أغنى لإلهنا نانا العظيم . سيدنا وحامينا .

— وما الذى حال بينك وبين تحقيق أمنيتك ؟

فقالت الجارية فى أسى :

ـ دَيْن كان على أبي ، فقد عجز أن يسدد دينا اقترضه فتنازل لدائنه عني فباعني فى السوق .

وسمعت فى فناء الدار جلبة ، فقالت سارة فى اضطراب :

ـ جاءوا .. جاءوا يا أماه !

فهرعت الجارية إلى الشرفة تنظر وقالت :

ـ هؤلاء مزارعون جاءوا لمقابلة سيدى .

واتجه المزارعون إلى الغرفة الواسعة القائمة فى مواجهة باب الدار ، ودخلوا على هاران وحيوه باسم مردوخ والآلهة جميعا ؛ كانوا سعداء فقد كان الحصاد مباركا والمحصول وفيرا .

وبدأ الذى شاركه هاران على مزارعة أرضه يتحدث ، قال :

ـ لقد زاد نصيبك هذا العام الثلث عن نصيبك فى العام الماضى .

فقال هاران وهو مسرور :

ـ هذا ببركة الآلهة ثم ببركة جهودك .

ـ الواقع أننا أنفقنا على الأرض ولم نبخل ، فقد أجرنا خمسة رعاة ليرعوا أغنامنا ومواشينا وأعطينا كلا منهم ثمانية أجوار من الشعير ، وأجرنا بعض الثيران لدرس القمح ، وإن القانون حدد أجر الثور بعشرين قا فى اليوم إلا أننا لوفرة محصول هذا العام دفعنا عن الثور واحدا وعشرين قا .

فقال هاران وهو جذلان ، فاليوم يوم مبارك جاءه فيه شريكه يدفع له نصيبه فى الزراعة ، وسيأتى ابن أخيه إبراهيم ليخطب سارة :

— لا بأس .. لا بأس أن نزيد فى الإنفاق ما دام أن الإيراد يزيد .

فقال الشريك منشرحا :

— وأجرنا عربات تجرها الثيران . ودفعنا فى العربة والثور وسائقهما مائة وثمانين قا فى اليوم .

— أليس هذا كثيرا ؟

— هذا ما حدده القانون يا عزيزى هاران .

والتفت الرجل إلى أحد الرجال الذين جاءوا معه وقال :

— مع صاحبى هذا كل الحساب ، فقد دونا فى الألواح ما غلته الأرض وما أنفقناه وما بعناه وقبضنا ثمنه ولم نهمل قا واحدا ، وتشهد الآلهة على ذلك . وكتب مردوخ الخراب على من خان أو دلس .

وساد الصمت برهة ثم قال شريك هاران :

— إن الضرائب التى ندفعها باهظة والعشور كثيرة . فلو استطعت أن تحصل من الملك على لوحة إعفاء من الضرائب والعشور ومن نصيب الملك فى المراعى وباكورة المحصول والهشيم وتسخير الرجال والحيوان والعجلات . فستزيد أرباحنا كثيرا .

— أرباحنا لا بأس بها ، فلماذا نطمع فى المزيد ؟

— إننا لو اقتصرنا على إقراض أموالنا بفائدة عشرين فى المائة كما يحدد القانون ، لحصلنا على ما نحصل عليه الآن . ولوفرنا ما نبذله من جهد وعرق ومخاطرة .. إن لوحة الإعفاء من الضرائب والسخرة تحقق غاية أمانينا .

ــ ولكنى لا أعرف أحدا فى القصر .

ــ مين من الفضة يفتح لك أبواب القصر .

ــ والإيشاكو ؟

ــ يكفى نصف مين من الشعير ليرضى الإيشاكو والكهنة .

فشرد هاران قليلا وقال :

ــ سأحاول .

ــ لوحة الإعفاء من الضريبة تستحق أكثر من المحاولة .

وظهر على الرجل أنه تذكر شيئا فقال :

ــ ولم أحدثك عن الأرض البور ، فسينتهى إصلاحها هذا العام ويتم تنظيم الرى وإقامة الخزان بها ، وسنضع عليها أحجار الحدود لتخفق فوقها حماية الآلهة وتصبح ملكا لنا بحكم القانون .

فقال هاران :

ــ هذا صحيح ، فالأرض البور حق لمن يستغلها أولا .

ــ وسنسجلها هذا العام فى لوحات الملكية ونضع اللوحات فى المعبد .

ــ معبد نانّا .

ــ كما تشاء ، وإن كنت أنا من عباد عشتار .

فابتسم هاران وقال :

ــ كيف حال الأمن فى المنطقة ؟

ــ لم تقطع إلا يد واحدة ، فقد سرق بعضهم شيئا من الحنطة وضبط فحكمت عليه المحكمة بقطع يده ، وسرق آخر بقرة فحكمت عليه المحكمة بدفع عشرة أمثال ثمنها ، فلما عجز عن

السداد حكمت عليه أن يظل مربوطا بالأرض كالماشية .

وما قام الفلاحون وانصرفوا حتى سمعت جلبة فى فناء الدار ، فخرج هاران من حجرته ينظر ، وأطلت سارة وأمها والجوارى من الشرفة فرأوا رجالا يسوقون بقرتين وثلاث خراف ويحملون سلالا بها دواجن وأسماك وبلح وتين وفطائر وجمار نخيل .

وسرى الهمس بين الجوارى : إنها هدية إبراهيم لسارة .. هدية تليق بأميرة .

وسمعت الأم الهمس فقالت :

— وأين من سارة الأميرات ؟

ودخل فناء الدار إبراهيم وآزر وإمتالى وناحور وهاران ، فقالت إحدى الجوارى وهى تمد عينيها إلى إبراهيم :

— إنه فتى يأخذ بمجامع القلوب ، ما رأيته إلا وتفتحت له نفسى .

ولحظتها الأم بنظرة زجر قاسية ؛ فقد سرى الهمس بأن جاريتها لم تولد لأبوين من الرقيق ، بل ضبطها زوجها متلبسة بالزنا فباعها بيع الإماء بعد أن سلب حريتها عوضا عن روحها .

وهرع هاران لاستقبال أسرة أخيه وصافحهم جميعا ، حتى إذا بلغ هاران الصغير قال له :

— وأنت يا سميّى العزيز متى تتزوج ؟

فقال هاران الصغير وهو يبتسم :

— الآن إن شئتم ما دام أبى سيدفع لى « الترهاتو » . إنى أعمل مع أبى وأستحق أن يدفع المهر عنى ، ولن أقول كما قال

إبراهيم : إنى أريد أن أتزوج بجهدى وعرق جبينى فلن أقبل أن يدفع مهرى من حرام .

فقال هاران فى صوت خافت :

— حرام !

فقال ناحور ليوضح الأمر :

— إن إبراهيم يعتقد أن الأموال التى نكسبها من بيع تماثيل الآلهة حرام .. فلا يدخل جوفه طعام اشترى بمال حصلنا عليه من بيعها .

وقال هاران الصغير دون أن يأبه النظرات التى تصوبها أمه إليه :

— لم يدخل فى « الترهاتو » الذى سيدفعه شاقل واحد حصلنا عليه من بيع تماثيل الآلهة .

وصعدوا فى الدرج إلى الطبقة العليا حيث كانت سارة وأمها والجوارى ، وكان إبراهيم صامتا وإن كان فى قرارة نفسه راضيا عما ثرثر به ناحور وهاران الصغير ، فقد كان يحب أن يعرف عمه أنه كفر بالأصنام جميعا ، وما كان يجب أن يكتم عنه مثل هذا الأمر الخطير وهو يتقدم لخطبة ابنته .

وبلغوا الشرفة فخفت إليهم الأم تستقبلهم بالترحيب والقبلات ، وقادتهم إلى حيث كانت سارة تتألق كالبدر . ونظرت إليها إمتالى طويلا فأحست كأن روحها ترشف كل ما فى الكون من جمال ، فالتفتت إلى إبراهيم وقالت :

— أنت سعيد الطالع يا بنى ترعاك الآلهة .

فقال هاران وهو يبتسم :

— قال لى أبى مرة : « إن ابن أخيك هذا مبارك يا هاران » ، ومنذ ذلك اليوم تفتح قلبى لإبراهيم .. لقد كان أبى يعرف كثيرا من الأسرار .

وتذكر آزر قول أبيه بيد أنه عجب فى نفسه كيف يكون مباركا ذلك الذى يسفه الآلهة جميعا ولم يركع لها أبدا ، وشخص ببصره إلى السماء وهمس فى حرارة وابتهال :

— إلهى مردوخ ! إلهى نانا ! أيتها الآلهة جميعا ! ارفعى مقتك وغضبك عن إبراهيم ، واجعليه مباركا مصداقا لما رآه أبى فى المنام وفى النجوم وفى أكباد الضحايا .

ولم ينشرح صدر آزر لذلك الابتهال فقد تذكر أن الآلهة خرت على وجوهها يوم نظر أبوه فى كبد الشاة ، وتذكر أن إبراهيم طوح بتمثال مردوخ وتمثال نانا وتماثيل الآلهة الأخرى مرات ومرغها فى التراب ، ولن يكون هذا إلا نذير سوء .

وبدأت مراسيم الخطبة فوضع إبراهيم اثنى عشر شاقلا من الفضة فى صفحة وقدمها لعمه . فتناول هاران « ترهاتو » ابنته وهو سعيد ، وما كان يهمه إن كان إبراهيم وضع شاقلا واحدا أو عشرين شاقلا ، وما كان الأمر يختلف إن لم يدفع صداقا على الإطلاق ؛ فقد كان فرحان لأن سارة ستتزوج إبراهيم وما كان يدرى سر ذلك الفرح .

وتأهب الكاتب ليسجل واجبات الزوجة وحقوقها . فسأل إبراهيم :

— ماذا تريد أن تذكر فى واجبات الزوجة ؟

فقالت إيمتالى :

— إن سارة تعرف واجباتها جيدا ، فليس ثم ضرورة لتسجيل واجباتها .

فقال الكاتب :

— كل عقد لا يحدد فيه الزوج واجبات زوجه باطل .

فقال آزر :

— اكتب فى العقد ما يكتب فى مثل هذه المناسبات : أن على الزوجة أن تصون العرض ، وترعى البيت ، وتطيع الزوج .

أخذ الكاتب يكتب وقد تعلقت بقلم القصب العيون ، كان يكتب على ألواح من طين طرى تجفف فى الشمس ثم تحفظ فى سجلات المعبد . وكان إبراهيم ينظر وقد عزم على أن يحفظ العقد فى أى مكان إلا فى معابد الأصنام التى لا تملك لنفسها نفعا ولا تدفع عن نفسها ضرا .

وانتهى الكاتب من كتابة واجبات الزوجة فالتفت إلى هاران وسأله :

— هل نثبت فى العقد الـ « شريقتو » الذى تدفعه لسارة ؟

فقالت أم سارة :

— نثبت البائنة بالتفصيل ونؤكد حقوق الزوجة .

والتفتت الأم إلى هاران وقالت :

— أمل عليه تفصيلات الـ « ترهاتو » يا هاران .

فاعتدل هاران وأخذ يملى :

— مين من الفضة ، وعبدان ، وسرير أكادى ، وطست من نحاس ...

وقالت أم سارة :

— واكتب أن للزوجة أن تتصرف فى أملاكها دون موافقة زوجها ، ولها أن تبيع عبيدها .

فالتفت هاران إلى آزر وقال :

— إنها مجرد إجراءات وإلا بطل عقد الزواج .

فقال آزر وهو يبتسم :

— أعرف يا عزيزى هاران ، وقد كتب مثل هذا العقد يوم خطبت إمتالى وهو محفوظ فى سجلات معبد نانا .

وقال إبراهيم فى هدوء :

— أما عقد زواجى فلن يحفظ فى المعبد .

ولاحت الدهشة على الوجوه ، وقال إبراهيم :

— فليحفظه عمى مع وثائقه .

وذهب روع أم سارة فقد خشيت أن يطلب إبراهيم أن يحتفظ بالعقد عنده ، فتضطر أن تعترض عليه مما قد يعكر صفو الليلة ، ولم تشغل سارة رأسها بهذه التفاصيل فقد كانت سعيدة فرحى لأنها ستصبح زوجة لابن عمها الذى شغفها حبا واطمأنت روحها إلى روحه .

وانتهت مراسيم الخطبة ، وقفل آزر وإمتالى وأبناؤهما عائدين إلى دارهم وصدى غناء الجارية يتردد فى الفضاء وفى جوف سارة :

أنت مولاى ! أنت إلهى ! أنت سيدى !

نم فى بيتنا يا حبيبى حتى انبلاج الفجر .

ولم ينم إبراهيم فى بيت عمه حتى انبلاج الفجر بل سار بجنب أبيه صامتا يفكر فيما قالته امرأة عمه : « أريدك يا إبراهيم أن تبنى بيديك بيتا لسارة ، فإن البيت الذى نبنيه بأيدينا ونرفع قوائمه بعرقنا وانبهار أنفاسنا ، مثل هذا البيت نحبه وتهفو إليه قلوبنا : إن سارة هى أعز ما نملك يا إبراهيم ، وهى وديعة غالية أحب أن تضعها فى بيت تحبه ويتعلق به فؤادك » .

ورن فى أذنيه صوت أخيه هاران وهو يقول لها : « اطمئنى يا امرأة عمى فإن إبراهيم بناء ماهر ، وسيبنى لها البيت الذى تشتهيه نفسك » .

وابتسم إبراهيم ، وابتسم آزر فقد حسب أن زواج ابنه من ابنة أخيه الجميلة الآسرة سيصرفه عن العيب فى الآلهة وعن تسفيه أحلامهم .

وبلغوا الدار فإذا نار مشبوبة ؛ فاستبقوا ينظرون فوجدوا النار تلتهم أصنام الآلهة التى صنعها آزر ، فهرع آزر وإيمتالى وناحور وهاران إلى الماء يطفئون النار ، ووقف إبراهيم ينظر وعلى شفتيه ابتسامة زراية . فلما أخمدوا النار وأفرخ روعهم دنا إبراهيم من أبيه وقال :

— يا أبت ! إن النار أحق من أصنامك بعبادتك لأنها تحرقها .

فاربد وجه أبيه وقال له فى حنق :

— ولماذا لا تعبدها أنت ؟

فقال إبراهيم فى هدوء :

— لأن الماء يخمدها .

ووضحت الحقيقة الأليمة لآزر ، فقد أوهمه قلبه أن زواج إبراهيم من ابنة عمه الجميلة سيشغله عن العيب فى أصنامه ، وإذا الأحداث تؤكد له أن ابنه لن يرعوى عما هو فيه ، بل إن سخريته من الآلهة ستزداد ضراوة على مر الأيام .

ووسع آزر من خطوه وانطلق لا يلوى على شىء ، وإن كان يحس فى فيه طعم المرارة التى سرت فى روحه .

١١

جلس إبراهيم وسارة يتناولان فطورهما ، وكان يرنو إليها وهو مفعم بالنشوة فجمالها الآسر يدغدغ الحواس ويملأ الجوارح بهجة ، بيد أن روحه كانت ظمأى إلى جمال آخر لا يسمو إليه كل ما فى الكون من جمال ، كانت روحه تهفو إلى جمال ذات الله .

وتناول إبراهيم لقيمات يقيمن صلبه ثم كف عن الأكل ، فقالت له سارة :

ـ أنت لا تأكل !

فابتسم ولم يقل شيئا ، فقد اهتدى بتجاربه إلى أن من أكل بشهوة نفس أعمى الإله عين قلبه عن رؤية تجليات حقيقة الوجود ..

إنه أحب سارة بكل خلجة من خلجات نفسه ، بكل جارحة من جوارحه ، بكل رفرفة من رفرفات روحه ، إلا أن الحب الذى يكنه للإله يفوق كل حب خفق به قلبه ، إنه يبعث فى روحه سرورا فياضا يملأ أقطار نفسه بالبهجة والإشراق ، بالفرح الصافى الذى يفوق كل ما فى الوجود من أفراح .

وقام يغتسل لينطلق فى ملكوت السماء قاصدا الله ، ساريا فى طريقه ، مبتهلا إليه أن يسفر له عن وجهه ، حتى يطمئن قلبه بمعرفة حقيقة السلام . وأسبغ الاغتسال كأنما يريد أن يذيب جسده

وأن يفنى بشريته ، لتنطلق روحه حرة تسبح فى بحر النور حتى تلتقى بالجوهر المنير ، بنور السموات والأرض .

وودع سارة وغادر البيت المتواضع الذى بناه لها بيديه ؛ خرج إلى الكون العريض يسوق غنمه وثيرانه وأنعام زوجه ، وقد شغل عنها بكنوز قلبه وغنى نفسه ، والصلة التى بدأ يحسها بين روحه وروح الوجود :

ورأى أشجار النخيل باسقة يعبث الهواء بسعفها وتتدلى منها أعذاق البلح كعناقيد اليواقيت . لقد رأى أشجار النخيل مذ فتح عينيه للنور ، أما فى هذه اللحظة التى تفتحت فيها عيون قلبه فانه يراها أنوارا إلهية تبهر الروح . وراح يتلفت حواليه وهو مشدوه ، فقد تحول الكون جميعه إلى ألواح يخط فيها الإله بقلمه آيات إبداعه وحسن خلقه .

وولى وجهه قبل المشرق فرأى الشمس ساطعة ترسل أشعتها إلى الكون فتغمر الأرض والسماء بالنور . وحاول أن يطيل إليها النظر فعشيت عيناه . إن الشمس عظيمة جليلة لا يقوى على ضوئها بشر . إن الشمس ترنو من عليائها فى كبرياء إلى الأرض ، وإلى الناس ، وإلى كل الوجود . إن الشمس سر الوجود ، كنه الحياة ، ذات الذوات ، روح الأرواح . بأمرها تدب الروح فى كل ما يخفق بالحياة . فلما رأى الشمس بازغة قال :

— هذا ربى ! هذا أكبر :

وسار حتى بلغ سفح الجبل وهو يفكر فى روحه التى تسرى بين جنبيه ، إنها ظل نور السر الذى يبحث عنه . أيمكن أن تكون

هذه الروح من جوهر الشمس ؟ إنه يحس أن قلبه يتفيأ ظل حقيقة أزلية ، أحقا أن الشمس هي هذه الحقيقة ؟ إنه اهتدى إلى أن لهذا الكون ربا ، أتكون الشمس هي ذلك الرب ؟

وراح يصعد فى الجبال ، إن الصعود والهبوط لا يقربانه من الإله الذى عرفه قلبه ورأته روحه . إنه يحس أن ذلك الإله قريب منه أقرب من الشمس ، وأن محبته لطيفة ألطف من محبة الشمس ، وأنه فى ارتفاعه يرتفع فوق الشمس ، وأن شروق نوره فى القلب يفوق كل أنوار الكواكب والأقمار والشموس .

وظل يرقب الشمس من فوق الجبل وهى تنحدر نحو الأفق إن الشمس تغرب ولكن نور الإله الذى رآه قلبه لا يعرف الغروب . إن الشمس تغوص فى الأفق البعيد ولكن نور الإله الذى تجلى لبصيرته ينبلق بالرحمات . إن الشمس تختنق وتموت ولكن الإله الذى تجلى لروحه حى لا يموت .

وراح قلبه يحيا بنور الكشف عن سر الحق . إن الله الذى يبحث عنه ليس هو الكواكب ولا القمر ولا الشمس . إنه لا يمكن أن يكون مردوخ أو نانا أو شماش أو أية ظاهرة من ظواهر الكون . إنه فوق الكون جميعه ، ومشيئته فوق كل مشيئة . فالكواكب والقمر والشمس لا تملك مشيئتها ، إن الله هو خالقها وهو الذى فرض عليها مشيئته وسخرها وقدر منازلها .

وراح ينظر من فوق الجبل فرأى الكون لأول مرة يخفق بالروح الحق ، بالروح الأزلية ، بالروح التى خلقت من سواطع جمالها وأنوار جلالها كل شىء .

إن رب هذا الكون واحد لا إله سواه ، عظيم له ما فى السموات وما فى الأرض ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، هو روح الحياة وسر الأسرار ، فإن كانت أسرار الأزل احتجبت عن العقول فسبحات الجلال سترت عنه الأبصار . إنه يدرك كل شىء ولا تدركه العيون .

وجاشت نفس إبراهيم بالرضا وانشرح صدره للإيمان وتألق نور الله على رياض قلبه .. فإذا الكون جميعه ، الكون الذى كان غائبا عنه بالانسجام مع روح الوجود ، يصبح فى لحظة ألسنة ناطقة بوحدانية الله .

كان إبراهيم فوق الجبل لا يكاد يُرى ، إلا أنه كان كإنسان العين صغيرا وجوده كبيرا شهوده ، كان ذرة فى الكون إلا أن اللمسة الإلهية التى مست روحه جعلت الوجود كله يثوى بين جنبيه ويخفق به فؤاده .

ولف الظلام مدينة أور ، وسكنت الوحشة جبال مغير ، وجثم على المكان سكون أشبه بسكون الرموس يجعل الخوف ينزع الأفئدة من الصدور ، إلا أن إبراهيم كان ممتلئا أنسا ، فقد تناسق مع كل ما حوله وأصبح يرى كل شىء بوضوح بعد أن أنار الله له السبيل وهداه إلى الرشد .

وخشع إبراهيم وراح يناجى ربه وينفث زفرات قلبه . ثم سجد وعبراته تجرى على خديه وراح يبتهل ويسأل الله أن يريه وجهه ليطمئن قلبه .

غمر المكان نور ، وهبت نسائم رقيقة تحمل الرحمة ، وسرى

فى الوجود همس شجى يشرح الصدور كأنه تسبيح الملائكة ، وبدا أن الأرض تتأهب لاستقبال وحى السماء . وألقى فى روع إبراهيم أن سيلقى ربه ، ففاضت عيناه بالدمع وثبت فؤاده وأرهف حسه وشرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه .

وانجابت عن قلبه الغشاوة وجاءته البينة من ربه فرأى فى وضوح مبين أنه ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، وأنه لو تجلى الله للجبل لجعله دكا ، فخر ساجدا .

وشعر بوحى السماء يصب فى صدره والحكمة تملأ جوانحه وأنه يسمع فى وضوح ما يوحى إليه : إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى .. إنه أنا الله العزيز الحكيم .. إنى أنا الله رب العالمين .. ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ، إن الله غفور شكور .. إن الله يعلم غيب السموات والأرض وهو الرزاق ذو القوة المتين .

قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله .. قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون . قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا . قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا .. قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون .

قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو

يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل فأنى تسحرون ؟

وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين .

وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .

قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين .

قل إنما أنا نذير وما من إله إلا الله الواحد القهار .

قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم .

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور .. وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا .. جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء .. الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا .. لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه .. ليذكروا اسم الله على ما رزقهم . الحمد لله رب العالمين .

له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون .. وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون .. له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شىء قدير .. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين .. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود .

(إبراهيم أبو الأنبياء)

واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار .. ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى .. وتوكل على الحى الذى لا يموت .

إن هذا لهو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم :

وراح إبراهيم يقلب وجهه فى ملكوت الله وهو مفعم بالفرح وقد ذهب عنه الحزن ، وظل ينظر وهو مسحور بكنوز الحكمة التى أريقت فى فؤاده ، وهو مبهور بالنور الإلهى الذى تجلى عليه ونفذ إلى قلبه وسكن فيه ليشرق دائما بالنور ، فقد هداه الله سواء السبيل .

ومرت لحظات مفعمة بالبركات فأحس كأن كل حلاوة الوجود سرت فى وجدانه ، وأن سلاما أفرغ عليه ، وأن سكينة أنزلت على قلبه فازداد إيمانا وتسليما .

ولما أفاق رفع وجهه إلى السماء وقال :

ـ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين .

دخل الإيمان قلب إبراهيم وحببه الله إليه وزينه فى فؤاده ، فإذا كل شىء مشرق غارق فى النور وإن كانت الليلة حالكة السواد لم يبزغ فى سمائها نجم .

وهم بأن يهبط فى الجبل مطمئن النفس قرير العين مفعما بالسرور ، فقد أوحى إليه ما أوحى خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، من له ما فى السموات وما فى الأرض الواحد القهار ، بيد أنه رأى شيئا هائلا معلقا بين السماء والأرض ، فرجف قلبه واستولى عليه خوف شديد ، وزاغ بصره وأحس

أنه سينهار .

وفر لا يلوى على شىء وراح يعدو ويلهث ، بيد أنه كان يرى ذلك الشىء أينما يولى وجهه معلقا بين السماء والأرض . ولم يدر أين المفر وذهل عن نفسه بذلك الفزع الذى سلك إلى وجدانه واستبد بكل جوارحه وكل خلجة من خلجات نفسه :

ووضح لعينيه ذلك الشىء الذى كان يراه أمام عينيه أينما يوجه بصره ، وسمعه يقول له فى وضوح :

— أنا جبريل رسول رب العالمين إليك ، وأنت إبراهيم رسول الله .

وزاد فزع إبراهيم حتى كاد يموت من الخوف ، وإذا جبريل يقول له :

— أنا رسول ربك إليك ، وأنت خليل الرحمن .

وحاول إبراهيم أن يصرخ ، أن ينفس عن ذلك الخوف الذى استبد به وكاد يكتم أنفاسه ، بيد أنه لم يجد صوته فأخذ يجرى هنا وهناك وهو حائر لا يدرى ماذا يفعل :

ورن صوت جبريل مدويا فى الفضاء :

— أسلم :

فخر إبراهيم ساجدا وقال :

— أسلمت لله رب العالمين .

واستمر فى سجوده ، ثم رفع رأسه ونظر فلم ير إلا السماء وجبال مغبر وأور الخاشعة فى الظلام ، أور التى لم يبلغها بعد النبأ العظيم . واستشعر قوة عظيمة تسرى فى روحه ، فإن الله يؤيده

بنصره ومن ينصره الله فلا غالب له، إنه سيبلغ رسالات ربه ولو كره الكافرون :

والدفع من فوق الجبل وهو يقول :

— يا قوم ! إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

السحر يتنفس فى هدوء ، والناس نيام ، والأحلام تطوف بالدور ، وكل كائنات الوجود تسبح بحمد الله إلا البشر ، فما كان من البشر أحد فى تلك اللحظة يسبح باسم ربه العظيم خلا إبراهيم ، كان يصلى لله فى حرارة وقد انهمرت من مآقيه الدموع . .

وطفق إبراهيم يبتهل وينوح ويتأوه حتى بلغ أصواته مسامع سارة ، فنهضت من فراشها وذهبت إليه ووقفت ترقبه فى دهش ، إنه يركع ويسجد ويصلى صلاة لم تسمع بها من قبل . إنه يصلى دون أن يكون أمامه تمثال من تماثيل آلهة القوم ، ويدعو إلها واحدا دون أن يذكر معه سائر الأرباب ، يفعل ذلك وقد غاب عن كل ما حوله وبدا عليه أن وجوده كله ذاب فى ذلك الإله .

ووقفت لا تبدى حراكا فقد أخذت بذلك الخشوع الذى ران على المكان ، وذلك الصفاء الذى ما كان لها به عهد من قبل . لكم ذهبت إلى المعابد ، وصعدت أبراج الآلهة ، وقدمت القرابين ، وألقت سمعها إلى الإيشاكو والكهان ، وتلقت الصلوات ، بيد أنها فى كل ما كان بينها وبين الآلهة والكهان لم تحس مثل ذلك الصفاء ولا ذلك النور الذى غمر المحراب ، قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

فلما قضيت الصلاة وأتم إبراهيم تسبيحه دنت منه وقالت :

— ماذا تفعل ؟

فقال فى هدوء وأثر الدموع فى عينيه :

— أصلى لله .

— أإله غير مردوخ ونانا وشماش وآلهتنا العظام ؟

— إله لا شريك له فى ملكه ، سخر لنا ما فى السماء وما فى الأرض جميعا .

فقالت فى إنكار :

— ومردوخ ونانا وشماش وعشتار والآلهة الأخرى ؟

— سخر الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربنا .

— من علمك هذا يا إبراهيم ؟

— هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيّما .

— ومن أدراك أن ربك هداك إلى هذا الدين ؟

فقال فى إيمان عميق :

— إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى ، وقد بعثنى رسولا لأدعو الناس لعبادته وحده ، وإنى أدعوك إلى الله الذى لا إله إلا هو .

— أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟

— إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، لما جاءتنى البينات من ربى .

— أإله واحد لكل هذا الكون ؟ وقد كان لنا إله للقمر ، وإله للشمس ، وإله للمشترى ، وإلهة للقضاء ، وإلهة للعطف والمحبة والحرب ، وآلهة كثيرة تطيل أيامنا فى الأرض ؟ !

— أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار !

— كيف يكون فى السماء وفى الأرض إله واحد ؟

— لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله .

— إله فوق الشمس وفوق القمر وفوق الكون ؟

— إنه خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، ومنه الأمر والنهى ، وإليه المرجع والمآب ، رب السموات والأرض ، الإله الأحد الذى لا إله غيره .

— أيدبر كل شىء وحده ؟

— يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .

— أو سنلقى ربك يا إبراهيم ؟

— بعد أن نذوق الموت .

— بعد أن نذوق الموت ننزل إلى الهاوية ، إلى الأرض التى لا رجعة منها .

— الموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون .

— أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟

— وربى لتبعثن ولتنبؤن بما عملتم ، فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون .

— وما جزاء من يؤمن بربك ؟

— وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار .

ـ وما جزاء من يكفر بربك ؟

ـ مأواهم جهنم كلما خبت زادهم الله سعيرا .

ونظرت إليه فى دهش ، فإن ما يقوله يختلف عن كل ما سمعته من الكهان ورجال الدين . إنه شيء جديد ، شيء يسمو فوق الكون ، يجعل الإنسان أعظم من الكون ، إنه فتح مبين وإن كان يسفه أحلام الآباء والأجداد .

وقالت : من علمك هذا يا إبراهيم ؟

ـ هذا ما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله .

ودنت منه وقالت وهى تجهد أن تنهل من فيض النور الذى يشع من عينيه ووجهه :

ـ أحق هو ؟

فقال إبراهيم فى حماس :

ـ إى وربى إنه الحق .

وطمع فى أن تؤمن بالله ورسالته فقال لها :

ـ استغفرى ربى وتوبى إليه ، إن ربى قريب مجيب .

ـ أيسمعنى إذا دعوته ؟

ـ ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ـ لا أدرى ماذا أفعل يا إبراهيم ؟

ـ **اشهدى بالحق يا سارة ، شهد الله أنه لا إله إلا هو .**

— أتريد أن أشهد أن لا إله إلا الله ؟

— وأن إبراهيم عبده ورسوله ، أريد أن يطهر الله قلبك ، وأن يهديك الله ويشرح صدرك للإسلام .

— أرنى الله قبل أن أشهد ، كيف أشهد بالحق ولم يقع بصرى عليه ؟

— ربى لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

— لن أشهد قبل أن أرى وجهه .

— فلله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه . اشهدى يا سارة بالحق أفغير دين الله تبغين ؟ أسلمى يا سارة فمن أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

وما زال ينفث حقيقة الله فى روح سارة ليشعل الإيمان فى قلبها ، ليبهر نور الحق ظلام نفسها ، لتحس تجلى الله فى ذاتها .

ولم تلبث سارة أن أحست غشاوة الظلمات تنشق عن قلبها ، وأبواب الحياة الروحية تتفتح لها ، ونفحات إلهية تهب عليها ، وأنوار التجليات تضىء ما بين جنبيها ، والنور الإلهى يفيض حتى يغمر عقلها . لقد أراد الله لها الهداية فشرح صدرها للإيمان .

وشخصت ببصرها إلى السماء وكانت جميلة رائعة الحسن تبهر ملاحتها العيون ، بيد أن جمال الروح الذى سربلها أزرى بكل جمال حسى وكل حسن يفعم الجوارح بالبهجة والنشوة .

وقالت :

— رب ! إنى ظلمت نفسى .. أشهد أن لا إله إلا أنت وأنه

إبراهيم عبدك ورسولك .

وأسلمت مع إبراهيم لله رب العالمين .

وخرج إبراهيم لينذر قومه من قبل أن يأتيهم عذاب مبين ، ورأى أن ينذر عشيرته الأقربين ، وهل هناك أقرب إليه من أبيه وأمه وإخوته ؟ فانطلق إلى بيت آزر ليقول لآله : إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون .

وبلغ الدار واتجه إلى حيث كان أبوه يصنع آلهته فلم يجده ، وعلم أنه خرج وأن ناحور وهاران ذهبا إلى معبد نانا ليبيعا تماثيل الآلهة التي صنعها آزر .

وقصد إلى حيث كانت أمه . صعد في الدرج الداخلي إلى الشرفة التي تطل على فناء الدار ، وسار حتى دخل على إمتالي فحياها في رقة وقال :

— يا أماه ، إني أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

— وآلهتنا يا إبراهيم ؟

— إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا .

— ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

— أتعبدون ما تنحتون ؟ يا أماه اعبدوا الله واتقوه ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا .

— أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟

— يا أماه أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، تعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا .

— ألا تخاف غضب آلهتنا يا إبراهيم ؟

— وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ يا أماه إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

— أتنهانا يا إبراهيم أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب .

— يا أماه إن هذا لهو الحق اليقين .

— يا بنى إننا فى ريب مما تدعونا إليه . وجدنا آباءنا يعبدون مردوخ ونانا وشماش وآلهتنا الأخرى ، وسنعبد ما وجدنا آباءنا يعبدون .

— يا أماه ما تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم .

— وجدنا آباءنا لها عابدين .

— لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

— يا بنى إنى أخاف عليك غضب الناس ، فدع ما أنت فيه وثب إلى رشدك وعد إلى دين آبائك .

— يا أماه أأشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ؟ يا أماه أأخشى الناس والله أحق أن أخشاه ؟ يا أماه إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم .

— يا بنى استمع إلى نصحى ، إنى أخاف أن يتخطفك الناس . أخاف أن يبطش بك النمروذ .

— يا أماه إنى أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . يا أماه توبى إلى الله واستغفريه من قبل أن يأتى يوم تجادل فيه

كل نفس عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت ، يوم تشهد عليكم ألسنتكم وأيديكم وأرجلكم بما كنتم تعملون . يا أماه قولى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين !

— يا إبراهيم لن أتبع إلا ملة آبائى ، ولن أعبد إلا ما كانوا يعبدون .

يا إبراهيم أعرض عن هذا لكى لا يكون عليك حرج ، ولكى تنجو من عذاب النمروذ وجنوده .. أفلا تتدبر ؟ يا إبراهيم إنا نخاف مما تدعو إليه . نخاف أن يضطهدنا الناس وأن يعذبنا النمروذ وأن يحل بنا غضب الآلهة ، وإنا برءاء مما تدعو إليه .

— وأنا برىء مما تعملون .

ودار على عقبيه وهو يقول :

— حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

وهبط فى الدرج وهو حزين ، كان يريد أن يهدى من يحب وما كان فى الوجود أحب إليه من أمه ، بيد أن الله لم يشأ لها الهداية فأعرضت عن ابنها وأبت أن تصدق أن ما جاء به هو الحق من عند الله العزيز الحكيم .

وسار فى الدار ، وبلغت أذنيه أصوات من غرفة أبيه فقد عاد آزر ليصنع أصنامه ، فهرع إليه إبراهيم وقال :

— يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا .

يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .

قال :

- أراغب أنت عن آلهتى .يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا .

قال :

- سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا .

تزوج ناحور ملكة أخت سارة ، وتزوج هاران وولد له ابنه لوط . ولم يكتف ناحور بزوجته بل رأت امرأته أن تعطيه جاريتها « روما » لتكون له أمة ، فالقانون والتقاليد تقر منح الزوجة جاريتها لزوجها لتكون له محظية ، وقد كتب ناحور فى لوح الزواج أن على روما أن تغسل قدمى زوجته الأولى ، وأن تحمل لها مقعدها إلى معبد الإله :

وكان للزوجة الأولى أن ترد الجارية إلى مرتبة الإماء إن حاولت منافستها فى حب زوجها ، بل كان لها حق بيعها ما لم تصبح أمًّا ، أما إذا ولدت طفلا فإنها تحرر . وقد أنجبت روما ذرية لناحور فاستحال على ملكة زوجته الأولى أن تردها إلى مرتبة الإماء أو أن تبيعها فى السوق بيع الرقيق . وبقى الشرط الذى نص عليه فى عقد الزواج ، فكانت روما تغسل لها رجليها وتحمل مقعدها إلى معبد الإله نانا ».

ورزق ناحور ولدا وبقى إبراهيم بلا عقب ، فإن سارة لم تنجب له ولم يأت الزواج بثمرته الطبيعية : وكان إبراهيم يستطيع أن يطلق سارة ويدفع نصف مين من الفضة ، أو يتخذ زوجة من المرتبة الثانية ، زوجة يشتريها من السوق أو جارية من جوارى سارة تهبها له ، ولكن إبراهيم لم يفكر لا فى الطلاق ولا

فى اتخاذ محظية وإن كان القانون يمنحه ذلك الحق وإن كانت تقاليد القوم تقره وتباركه ، فقد كان يحب سارة حبا جما وما كان يقدم على شىء يخدش كبرياءها :

كان إبراهيم يحن إلى الولد ، وكان التبنى شائعا فى بابل فتبنى لوطا ابن أخيه هاران واتخذه ولدا ، وراح يلقنه منذ نعومة أظفاره عقيدة أن لا إله إلا الله الواحد القهار ، وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وذات يوم خرج إبراهيم إلى معبد نانا يعظ الناس ويدعوهم إلى الله كما اعتاد أن يفعل منذ أمر أن يبلغ رسالات ربه ، ولكنهم أعرضوا عنه ووضعوا أصابعهم فى آذانهم وصدوه عن دعوته مستهزئين به وبإلهه الذى يدعوهم إليه .

فتركهم وسار فى شوارع أور بين منازل الأغنياء التى بنيت من الآجر ودكاكين الصياغ الذين حذقوا صناعة الذهب والفضة ، حتى إذا اقترب من النهر ، رأى التجار فى غدو ورواح وقد شغلوا بدنياهم عن آخرتهم ، فالسفن ترسو فى المرفأ يفرغ منها ما ورد عليها من أخشاب لبنان وخيرات البلاد الأخرى ، ويحمل إليها غلات العراق من القمح والبلح فتنطلق بها إلى بلاد بعيدة ، وراء بحر الشمس المشرقة العظيم .

ورأى إبراهيم أن يذهب إلى هؤلاء التجار وأن يدعوهم إلى الله، فانطلق حتى جاءهم وقال لهم :

— إنى لكم نذير مبين .. إنى أدعوكم إلى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله

ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد .

وخف إليه بعضهم يمنعونه أن يسترسل فى دعوته وقالوا :

— إنا كفرنا بما أرسلت به ، وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب :

— أفى الله شك فاطر السموات والأرض ؟ .. يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .

— إن أنت إلا بشر مثلنا تريد أن تصدنا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بسلطان مبين :

— إن أنا إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لى أن آتيكم بسلطان إلا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

وأعرضوا عنه وتركوه قائما وحده ، فرفع عينيه إلى السماء وقال :

— رب إنك غفور رحيم :

وخلف النهر وراءه وسار إلى معبد نانا" وبرجه الشامخ . وكان معبد نانا" ومعبد زوجته ننكال والحرم المقدس تبدو غارقة فى البخور ، وكان رجال من المدينة والريف فى طريقهم إلى المعبد لتقديم القرابين والنذور من ذهب وفضة وعجول وخراف وقمح وشعير .

وسار إبراهيم فى الطريق المقدس وقد جلست على جانبيه العاهرات المقدسات ، وخلّف وراءه الرجال والنساء الذين وفدوا على مخازن المعبد من المدن والريف لتقديم الهدايا والنذور ، ودخل

إلى حيث تقوم أصنام الآلهة وتماثيل النمروذ بن كوش الملك الإله ، نسل الآلهة الذين هبطوا من السماء إلى الأرض بعد الطوفان ليفرضوا على الأرض حكم السماء .

وكان فى مشكاة تمثال نانا وفى مشكاة أخرى تمثال مردوخ ثم تماثيل أخرى منحوتة من الحجر ، وكان الناس يركعون ويتلون الصلوات ويقدمون القرابين ، فتقدم إبراهيم ثابت الخطو وقال :

— ماذا تعبدون؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون؟ فما ظنكم برب العالمين؟

وتقدم بقلب سليم ، وقال وهو يشير إلى تماثيل آلهتهم :

— ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟

وصوبت إليه نظرات يتطاير منها الشرر ، إنه لا يكف عن تسفيه أحلامهم وعيب آلهتهم ، وكان أكثر الناس غضبا الكهان فجاءوا إليه وقالوا :

— وجدنا آباءنا لها عابدين .

— لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

— أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

— بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين .

ورماه الكهان بنظرة مغيظة ، إنه يدعى أن ثم إلها آخر غير مردوخ خلق السموات والأرض فقالوا له :

— إن مردوخ هو رب الأرباب وإله الآلهة وفاطر السموات والأرض . وإن نانا وشماش وعشتار والآلهة الأخرى أعوانه وممثلوه . وأمرهم شورى بينهم إن أرادوا شيئا أبرموه فى مجمع الآلهة .

ـ يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

والتف قومه حوله يحاجونه ، قالوا له :

ـ أتكفر بمردوخ ؟ ! فى السماء هو أميرها الأول ، وفى الأرض هو عظيمها وكبيرها ، وبين الآلهة هو ربها العظيم ، وعندما يقدّر المصائر وهو فى جلاله ورهبته فلا يجرؤ إله على أن ينظر إليه ، ولولاه لما بنيت المدن ولا أقيمت المواطن .

إنه قادر على أن يخسف الأرض بك أو يصب غضبه من السماء عليك أو يلقى بك إلى الهاوية ، إلى الأرض التى لا رجعة منها .

فقال إبراهيم وهو ثابت الجنان :

ـ أتحاجونّى فى الله !

وصاح صائح :

ـ ما أنت إلا بشر مثلنا ؛ فأت بآية إن كنت من الصادقين .

وارتفعت الأصوات من كل جانب :

ـ نريد آية .. نريد آية .

ـ وحق مردوخ والآلهة جميعا لئن جئتنا بآية لنؤمنن بها .

ـ لن نؤمن بك قبل أن يكلمنا الله أو يأتينا بآية .

ـ أرنا ربك يا إبراهيم . نريد أن نرى الله .

ـ ويل لك يا إبراهيم من غضب الآلهة .

ـ ويل لك من مردوخ فلن يبارك لك فى حياتك .

ـ وليذيقنك غصص الموت ..

وجاء لوط يسعى وكان فتى ذكى الفؤاد ، فرأى عمه وقد

التف حوله قومه يخوفونه بغضب آلهتهم فخف إليه ، وصلت سمعه صوت يهدد عمه :

ـ لئن لم تنته عما أنت فيه فإن لك معيشة ضنكا ، سيكتب مردوخ عليك الخراب .

وثارت دماء لوط فى عروقه : إن عمه الحبيب بل أباه الذى تبناه وغذاه بمبادئه يتلقى من قومه التهديد والسخرية والوعيد ؟ ليته يستطيع أن يفعل شيئا ليشد أزره ، ورأى عمه بدأ يتكلم فألقى إليه سمعه ، قال إبراهيم :

ـ أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ؛ أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

يا قوم .. اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذّبوا فقد كذّب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى

السماء وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير .

وساد القوم سكون وراح لوط يتفرس فى وجوه الناس وهو مسرور ، كانت حجة عمه قوية أخرست ألسنتهم إلى حين ، بيد أن واحدا منهم قال فى عناد :

— مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين .

وعادت الأصوات ترتفع مرة أخرى قالوا :

— ساحر .

— مجنون .

— كذاب .

فقال إبراهيم فى هدوء :

— لى عملى ولكم عملكم .

وصاح كاهن يحرض القوم عليه :

— يا قوم انصروا آلهتكم وليكن يوما عليه عسيرا .

فقال إبراهيم :

— يا قوم أتتخذون من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون ؟ ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ؟

وعاد الكاهن يصيح :

— مجنون . كذاب . إن هذا إلا إفك افتراه . انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وتحرك الناس ليفتكوا بإبراهيم وإذا برجل يقول :

— كفى ما ناله اليوم من خزى ، اتركوه .

وذهب الكاهن إلى إبراهيم ودفعه فى صدره وقال :

— كذاب .. كذاب يريد أن يفتنكم ،أن يضلكم عن سبيل آلهتكم .

فقال إبراهيم :

— ربكم ذو رحمة واسعة .

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

— رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

واغرورقت عينا لوط بالدموع . إن إبراهيم يدعوهم إلى الرشاد وهم يستهزئون به . يدعوهم إلى النجاة وهم يسخرون منه ؛ يدعوهم إلى العزيز الغفار وهم يدعونه ليكفر بالله ويشرك به ما ليس له به علم . يدعوهم إلى الهدى وهم لا يسمعون له ؛ فقد كبر عليهم ما يدعوهم إليه .

ولم يستطع أن يكتم المشاعر التى ماجت فى صدره فقال :

— إن إبراهيم لم يكذب ، إنه لكم ناصح أمين ؛ بل الذين كفروا يكذبون .

فاتجهت الأبصار إلى الفتى تنطق بالهزء والسخرية . ولم يخف لوط بل هان القوم فى عينيه وقال :

— والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم .. والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير .

فقال قائل :

— كذاب آخر .. كذاب صغير .

فعاد الكاهن يصيح :

— نصحتكم أن تنصروا آلهتكم من الكذاب الكبير قبل أن

يفتن الناس فلم تستمعوا إلى نصحى . لئن سحر هذا الفتى إنه يسحركم جميعا .

وقال لوط :

ــ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟

فسأله واحد منهم :

ــ أآمنت بما يدعو إليه ؟

فقال لوط :

ــ آمنت بما أنزل على إبراهيم .

وقال إبراهيم لقومه :

ــ اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ؛ إليه ترجعون .

وأخذ الناس ينصرفون حتى لم يبق فى المعبد إلا إبراهيم وحده ، ولم يصدقه إلا ابن أخيه الفتى الذى تبناه وأحبه من كل قلبه ، فقد أسلم ولماّ يدخل الإيمان فى قلبه .

ورفع إبراهيم عينيه إلى السماء وقال :

ــ رب إنهم يكذّبون .

وإذا بصوت كأنما يلقى إلى روحه فيسمعه بوجدانه يقول :

ــ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلا البلاغ .

فعاد إلى الدار ومعه لوط ، وقد عزم على أن يستمر فى تبليغ رسالات ربه ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

١٤

كانت مدينة أور تغص بالناس فقد وفد إليها عباد إله القمر من كل مكان يسوقون الهدايا والنذور ، فغدا عيد « نانا » الكبير ، عيد الإله العظيم الذى تنازل ورضى أن ينزل فى معبده المقدس فى مدينة أور .

كان عباد إله القمر كثيرين ، أكثر من عباد إله الشمس « شماش » وإلهة اللذة والحرب عشتار . فقد كان شماش وعشتار ولدى نانا ، وما كان للإبن أن يسمو إلى مكان أبيه وإن مارى فى ذلك كثيرون وزعموا أن مردوخ تفوق على أبيه « أيا » ونصب فى مجمع الآلهة إلها على الآلهة أجمعين .

وتدفقت فى شوارع المدينة الأنعام التى أهدتها المدن الأخرى وكبار دافعى الضرائب — فى طريقها إلى حظائر معبد الإله ، وماجت المدينة بالكهنة والكاهنات ، والجنود والقضاة ، وأمناء مخازن الغلال والكتاب ، والأحرار والعبيد ، رجالا ونساء ، وكانوا جميعا يستعدون للاحتفال بالعيد .

وهرع الشبان الوافدون من البلاد الأخرى إلى العاهرات المقدسات اللاتى جلسن على جانبى الطريق المقدس . يلقون فى حجورهن قطع النقود فيتبعنهم ليقدمن أجسادهن قربانا لابنة نانا عشتار العطوف إلهة اللذة .

وانطلق ناحور وزوجته وأولاده ، وهاران وزوجتاه وأولاده إلى بيت آزر ، ليمضوا مساءهم يتسامرون ، ثم يتواعدون على الخروج إلى المعبد لإقامة الصلاة وتقديم القرابين .

وتلقاهم آزر وإمتالى بالترحاب وجلسوا جميعا يتسامرون ، ثم قاموا يصلون فى معبد البيت الخاص ويدعون الإله أن يطيل فى أيامهم على الأرض .

وأتموا صلاتهم وراحت إمتالى تبتهل :

— نمروذ إيلى ، بارك لى فيهم وأطل أعمارهم .

وجاء إبراهيم فسمع أمه وهى تدعو النمروذ الملك الذى ألهوّه ، وحزّ فى نفسه أن تدعو أمه : نمروذ إلهى ! فكيف يكون النمروذ إلها وهو بشر مثلها ؟ !

ودخل إبراهيم عليهم وقال :

— ما تعبدون ؟

قالوا :

— نعبد أصناما فنظل لها عاكفين .

وقال هاران :

— نعبد مردوخ رب الأرباب وإله الآلهة ، من خصه أونو وإنليل بملك أبدى فى بابل . من قال له أبوه « أيا » : « أى بنى ! ماذا هناك لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه تعرف أنت » . نعبد مردوخ ساحر الآلهة وإله الكهنوت وخالق البشر .

وأضاف آزر :

— ونعبد نانا والآلهة الأخرى التي ترزقنا وتذهب عنا أسقامنا .

قال إبراهيم :

— هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟

قالوا :

— بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

قال :

— أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

وقال هاران لأخيه إبراهيم :

— يا أخى تعال معنا غدا إلى العيد ، فسترى أن ديننا حسن . وسترى كيف ندعو « بعلا » مردوخ السيد الكريم ونانا العظيم .

قال إبراهيم :

— أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ؟ !

واقتربت منه إمتالى وقالت :

— يا بنى دع ما أنت فيه ؛ وتعال معنا غدا إلى المعبد تحتفل مع قومك بالعيد إكراما لى .

وكان الليل جن والنجوم بزغت ، فقام إبراهيم فنظر نظرة فى النجوم ، فالتمعت فى ذهنه فكرة وقال فى نفسه : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

وعاد إلى حيث كان أهله وقال :

— إنى سقيم .

ثم استأذن وانصرف وهو يرقب الصبح .

* * *

وفى الفجر دخل الأوريجاللو قدس الأقداس حيث تمثال الإله نانا إله القمر ، فأطلق البخور وركع وتلا صلواته ، وراح الكهنة ينظفون المعبد ويطهرونه للقادمين من كل فج ، ليقدموا الولاء والخضوع لحامى المدينة .

وقدم الكهان إلى الآلهة اللبن فى أوانى من المرمر ، ووضعوا لكل إله أمام عرشه الإلهى اثنى عشر رغيفا ، وأمام البرج المدرج الذى ينتهى بمزار إله القمر ستة عشر رغيفا ، وجاءوا من مطبخ المعبد بالصحاف الرئيسية عليها الثيران والعجول والخراف ، والنعاج غذيت باللبن ، والطيور والدجاج والبط والبيض ، ووضعت جميعها أمام الآلهة .

ثم فتحت أبواب المعبد فدخل السحرة والمغنون والمغنيات يباشرون أعمالهم ، فراح السحرة يطلقون البخور ، والمغنون والمغنيات يتغنون بأمجاد الآلهة ، ويتلون الصلوات الحارة للإله القمر ، يقولون :

— يا رب يا من قدرته الوهابة تمتد بين السماء والأرض ،

ومن يجلب الغيوث والمواسم ،

ويسهر على الأحياء ..

وراح آزر يصغى إلى الصلاة بقلب خاشع والدموع تنهمر على خديه ، فقد كان من الصناع الذين استدعوا لصنع تماثيل

الإله فى عيده الكبير .

واصطف الناس فى شوارع أور ليركعوا لنمروذ العظيم الملك الإله وهو فى طريقه إلى معبد نانا ، ليحمل الإله من معبده ويعبر به النهر إلى معبد الصلوات .

وغصت الشوارع بالأميلو والموشكينو والعبيد ؛ برجال القضاء ورجال الدين والكتبة والموظفين ، والتجار ووكلاء الأعمال وتلاميذ المدارس ، والعبيد والإماء . وكان الجنود بملابسهم العسكرية والحراب فى أيديهم يحافظون على النظام ، ويمنعون تدافع الناس الواقفين خلف ظهورهم حتى لا يضيق الطريق الذى سيمر فيه النمروذ بن كوش .

وعزفت الموسيقى وراح المغنون والمغنيات ينشدون ، وأقبل النمروذ فى عربته وعلى رأسه تاج الملك ، وقد أرسل شعره على كتفيه وأطلق لحيته ، ويغطى كتفه اليسرى جلد ماعز ، وجلس على يسار ناظر القصر وأمين خزائن الملك .

وانطلقت فى أثر عربة النمروذ عربات الوزراء وقواد الجيش ، وكان الناس كلما مر عليهم الملك الإله يركعون ويدعو كل منهم من أعماق قلبه .

ــ ألا فليطل الملك عمرى .

وأفعمت القلوب الرقيقة بالخشية ، فارتفعت زفرات الأفئدة نحيبا ، وسالت العبرات تعلن عن الإيمان العميق .

ووقفت عربة النمروذ لدى الباب الذى يؤدى إلى حرم المدينة ، إلى الطريق المقدس ، فنزل منها ومد بصره إلى المعبد فى

خشوع ، وكان البرج المدرج ينهض فى الناحية الغربية يرمز شموخه إلى علو مكانة نانا فى السماء .

وتقدم النمروذ وخلفه الوزراء ورجال الجيش وكبار موظفى الدولة والعاهرات المقدسات ، فارتفعت الترتيلات والابتهالات . وانطلق الموكب المقدس حتى اجتاز الباب الذى تقوم فوقه مساكن موظفى المعبد ، وتقدم فى الساحة الواسعة مارا بمخازن المعبد ، فغرف الخدم ، فغرف البخور ، فالمطبخ حيث تطهى الضحايا ، فالأفران حيث يخبز الخبز للآلهة ، فغرف الكهان والمغنين والمغنيات وموظفى المعبد ، ومن وهبن أنفسهن لخدمة إله القمر .

وبلغ الموكب الساحة المقدسة حيث يقوم معبد نانا وأمامه معبد زوجته ننكال وبينهما المزار المشترك الحرم المقدس . وكان معبد نانّا بسيطا أما معبد ننكال فكان أشبه بالقلعة ، جدرانه سميكة وأبراجه محصنة ، زين بنقوش الفسيفساء موشاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة من زمرد وفيروز ومرجان .

ودخل الموكب إلى حيث تماثيل الآلهة مردوخ وأنو وإنليل وأيا ونانا وشماش وعشتار والبعول الكرام . فارتفعت الأصوات ترتل الصلاة :

— يا رب من قدرته الوهابة تمتد ما بين السماء والأرض ،
ومن يجلب الغيوث والمواسم ،
ويسهر عن الأحياء ،
ومن يعظم فى السماء عالية وصيته ،
ومن يعظم فى الأرض عالية وصيته ،

ومن تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية ،
مشيئتك أنت فى السماء مشرقة .
نسألك أن تكشف لنا مشيئتك على الأرض ،
فإن مشيئتك تطيل الحياة ، وتبسط لها الرجاء ، وتشمل كل كائن شمولا عجيبا .
وأنت تجرى العدل على قضاء الإنسان ،
وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .
أنت رب الأرباب ، ما لك من شبيه ولا نظير .

وكان هاران يردد صلاته مع المصلين فى حرارة ، ويتمنى لو كان معهم أخوه إبراهيم ليرى كم هو متين هذا الدين الذى آمن به الآباء !

ودخل النمروذ فناء المعبد الرئيسى وحده ، وفتح باب قدس الأقداس ، فخرج منه الأورنجاللو ، فتقدم من النمروذ وخلع عنه التاج وشارات الملك والصولجان والحلقة والعصا ذات الأسنان ، وسار حتى وضعها أمام تمثال كبير الآلهة مردوخ رب الأرباب ، ثم عاد إلى النمروذ فضربه على خده ، وقرَّبه من إله القمر ، وشد أذنيه ليركع ، فركع النمروذ فى خشوع وهو يردد أنه لم يقصر فى حق ألوهيته ، لم يهن زواره ، وأنه عنى بمدينته العظيمة أور ، ولم يهدم أسوارها .

ولم يدر بخلده آنئذ أنه يتلو مثل هذه الصلاة لمردوخ فى بابل ولأونو وشماش وعشتار ، ولكل الآلهة المحليين فى المدن التى تنازلوا وأكرموها بالنزول فيها . وكان يجتهد لتطفر العبرات من

عينيه حتى لا يحل الخراب بالبلاد أو يحيق به غضب الآلهة !

وأعيد إلى النمروذ التاج وشارات الملك ، ثم انطلق والأوريجاللو إلى قدس الأقداس حيث تمثال نانا ، فتقدم النمروذ وحمل تمثال الإله ، وخرج والأوريجاللو إلى حيث ينتظر الوزراء والقضاة ورجال الدولة والأعيان ، وكان هاران بينهم يشرئب بعنقه لتتبارك عيناه برؤية الإله .

خرج الملك والأوريجاللو يحملان بينهما محفة عليها تمثال نانا ، فإذا المكان يضج بالابتهالات :

— فليطل نانا العظيم فى عمرى .

يا رب الأرباب مشيئتك تطيل الحياة ، وتبسط الرجاء .

وراح هاران يبتهل :

— مولاى يا رب الأرباب ، يا من قدرته الوهابة تمتد بين السماء والأرض ، خفف غضبك على إبراهيم واشرح صدره لمحبتك ، فإن كنت يا مولاى غاضبا عليه فلا تؤاخذنا بذنوبه ، ولا تعذبنا بآثامه . امنحنى يا مولاى الحياة أياما طويلة ، وضع الخوف من عظمة ألوهيتك فى قلب أبنائى ، واملأ نفوسهم بالحياة الكاملة .

وما خطر على قلب هاران أن ابنه لوطا كفر بآلهته جميعا ، وأنه أسلم وجهه لله رب العالمين .

وسار الملك والأوريجاللو يحملان تمثال نانا على المحفة وأصوات التهليل ترتفع من كل جانب ، وخرجا من المعبد إلى الساحة الواسعة فإذا الناس ينضمون إلى الموكب المقدس ، وألسنتهم تلهج

بالحمد لإله القمر الذى يحمى مدينتهم .

وسار الموكب فى الطريق المقدس حتى وصل إلى المرفأ ، ويقع المرفأ على رأس قناة تدخل فيها السفن القادمة من البلاد البعيدة تحمل إلى المعبد الذهب والفضة والأحجار الكريمة والبخور والغلال والمواشى والقرابين .

وكانت ترسو فى المرفأ السفينة المقدسة التى ستحمل الإله نانا إلى معبد الصلوات على الضفة الأخرى من نهر الفرات ، وكان ثم سفن تكاد تخفى سطح الماء ، فأهل أور جميعا وكل من وفد إليها من عباد إله القمر سيذهبون إلى معبد الصلوات ليؤدوا الطقوس المفروضة .

وبلغ الملك والأوريجاللو وبينهما تمثال الإله المرفأ ، فدخلوا السفينة المقدسة والمغنون يرددون الأناشيد والناس يهتفون بالدعوات حتى لتكاد تبلغ السماء . ثم هرع الناس إلى السفن ؛ فما انسابت السفينة المقدسة على سطح الماء حتى انطلقت فى أثرها وهى تضج بالابتهالات .

وخلا المرفأ من الناس وبدا كأن ليس فى المدينة المقدسة أحد ، فقد ذهب الكهنة والموظفون والعاهرات المقدسات والناس جميعا إلى معبد الصلوات على الضفة الثانية من النهر المقدس .

وخرج إبراهيم من داره حذرا يترقب ، وكانت الشوارع المؤدية إلى المعبد قد خلت من الناس ، فوسع من خطوه حتى إذا بلغ الساحة الخارجية انسل إلى حيث تماثيل الآلهة وأمامها الأطعمة من خراف ونعاج وثيران ودجاج وبيض وفاكهة كثيرة .

ونظر إلى تماثيل الآلهة المنحوتة من الصخر ، فرأى فى وسطهم كبيرهم مردوخ قائما بأذنيه الكبيرتين اللتين تدلان على الحكمة ، وقد وضع أمامه طعام كثير وأوان فيها نبيذ وخمور ، وكان يحف به نانّا وشماش وعشتار وأونو وإنليل وأيّا والبعول الآخرون ، ووضعت على عروشهم الإلهية أرغفة الخبز ، وأمامهم أطعمة وأشربة كثيرة .

ورماهم إبراهيم بنظرة ساخرة وقال لهم :

ـ ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون ؟

وتناول فأسا وراح يضرب الآلهة ويحطمهم رائحا عليهم باليمين حتى جعلهم جذاذا ، إلا كبيرهم مردوخ فقد علق الفأس بإحدى أذنيه الكبيرتين اللتين ترمزان إلى الحكمة !

وانسل من المعبد فى هدوء وقد تهلل قلبه بالفرح ، فقد حطم أصنامهم وبر بقسمه بعد أن ولوّا مدبرين .

وانتهت مراسيم العيد وعادت السفن تتهادى على النهر : السفينة المقدسة وبها النمروذ والأوربجاللو وتمثال نانا المصنوع من الذهب الخالص ، وفى أثرها السفن الأخرى وقد فاضت أفئدة من فيها بالسرور وسكنتها طمأنينة عجيبة . بعد أن أقيمت الصلوات وقدمت القرابين واحترقت الخطايا فزكت النفوس ، كما تحترق أعواد البخور فيعبق المكان بعبير يشرح الصدور .

ورست السفن عند مرفأ المعبد ، وغادر النمروذ والأوربجاللو السفينة المقدسة يحملان بينهما محفة عليها تمثال الإله ، وسار الوزراء ورجال القصر وقواد الجيش ورجال الدولة خلف الملك والإله : وسار الكهنة على جانبي المحفة برءوسهم وذقونهم الحليقة وملابسهم البيضاء . وانسابت ألحان المزامير والأبواق والدفوف والطبول والصنوج ، وارتفعت أصوات المغنيات يرحبن بعودة الإله إلى قدس الأقداس ، إلى معبده الذى تنازل وقبل أن ينزل فيه ليحمى مدينته المقدسة أور الكلدانيين .

شمل الفرح الجميع إذ حالف التوفيق كل الطقوس التى أجريت أيام العيد ، فذرف النمروذ الدموع لما ركع أمام تمثال نانا وكان هذا بشيرا برضى الآلهة عن أور وأهلها ، وغمرت الأنوار معبد الصلوات ، وتلألأ سنا الإله القمر فى كبد السماء ،

وكانت السماء صافية ولم تجرؤ سحابة أن تخفى وجه الإله عن عبيده فى ليلة عيده !

وقابل آزر ابنه هاران فتهلل فرحا وضمه إلى صدره وقال له :

— فليطل الإله نانا فى عمرك يا بنى .

وانطلق الأب والابن إلى المعبد مع المنطلقين ، وهما يرددان الابتهالات والدعوات فى إيمان عميق وخشوع يليق بمقام الإلهين العظيمين : نمروذ الملك الإله . ونانا الإله الأعظم الذى زين الدنيا بولديه شماش وعشتار !

وسار الركب فى الطريق المقدس . وعادت العاهرات المقدسات يتخذن أماكنهن على جانبى الطريق يمارسن تضحياتهن بتقديم أجسادهن قربانا لعشتار .

ودخل النمروذ والأوريجاللو يحملان محفة الإله إلى المعبد . وإذا بمنظر ما كان يخطر على بالهما يفجأهما ويكاد يذهب بصوابهما . فقد أصبحت تماثيل الآلهة كلها جذاذا إلا تمثال مردوخ فقد ظل سليما كعهدهم به ، إلا أن فأسا علقت بإحدى أذنيه اللتين ترمزان إلى الحكمة .

ورأى الناس ما حل بآلهتهم فامتلأت قلوبهم بالحنق والغيظ . وكان أكثر الناس حنقا الأوريجاللو والكهنة والكاهنات وموظفو المعبد ، فما حل بآلهتهم إنما ينذر بزوال سلطانهم وانقطاع سيل الهدايا المتدفق على مخازن الآلهة .

وفطنوا فى مثل لمح البصر إلى أن ما حدث إنما يهددهم فى

أرزاقهم : ويمنع تدفق الذهب والفضة والثياب والغنم والماشية والقمح والشعير والبلح والتين وكل الطيبات إلى مخازن المعبد : كانوا أكثر الناس علما بأن الآلهة لا يأكلون شيئا مما يساق إلى معابدهم ، وإنما كل هذه الخيرات توزع عليهم هم أنفسهم ، وتحمل إلى بيوتهم وضياعهم .

خافوا أن ينضب ذلك الكنز الثمين ، أن يذهب سلطانهم الذى يمكنهم من أن يسترقوا الناس ويسرقوهم . فكانت ثورتهم عارمة فصاحوا مزمجرين :

— من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين .

ونظر آزر إلى هاران وهو يشعر بالقلق . وإذا ما ارتسم على وجه ابنه يؤكد مخاوفه ، فاشتد وجيب قلبه وراح يتلفت ويقلب وجهه فى وجوه الغاضبين الموتورين .

وقال النمروذ فى غضب وقد أحزنه أن تمثاله تحطم مع ما تحطم من التماثيل :

— لا بد أن أعرف من فعل هذا بآلهتنا .

وتقدم بعض الناس وقالوا وهم يسجدون :

— أيها الملك المعظم .. سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

ونظر هاران إلى أبيه فوجده يترنح ، فلف ذراعه حوله وراح يعاونه على أن يشق طريقه بين الجموع الثائرة التى كانت تتوعد إبراهيم بالويل والثبور .

وقال النمروذ :

— فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .

وانطلق الجنود إلى بيت إبراهيم وفى أثرهم آزر وهاران .
وكان آزر يشفق على ابنه الذى ألقى بيديه إلى التهلكة لما تحدى السادة البعول ، وسخر من كبيرهم مردوخ إله الآلهة ورب الأرباب .
وكان هاران يعتب على أخيه الذى لم يستمع إلى نصحه ، ولو فعل وخرج معهم لرضيت عنه الآلهة وأطالت فى عمره ، ولما كتب عليه مردوخ الخراب .

وأيقن هاران أن أخاه لا محالة هالك ، وأن ربه الذى كان يدعوهم للايمان به لن يستطيع أن ينجيه من النمروذ وجنوده ، ومن الشعب الثائر الذى يطالب برأسه .

وقبض الجنود على إبراهيم وارتسم على وجه سارة الهلع .
ورأى لوط ما نزل بامرأة عمه الحبيب فدنا منها وقال :

— أتعلمين أن إبراهيم مرسل من ربه ؟

— نعم .

— ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . إن ربه لن يتخلى عنه .

وانطلق الجنود بإبراهيم وآزر وهاران ولوط وناحور وأهل بيتهم ، والناس من حولهم يزمجرون :

ورأى أحد الكهنة إبراهيم وهو بين الجنود فهجم عليه وهو يصيح :

— انصروا آلهتكم .

وأراد الناس أن يفتكوا به إلا أن الجنود حالوا بينهم وبينه ؛
وراح لوط يدعو الله قائلا :

— ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . وربنا نجنا من القوم الظالمين .

وألقى إبراهيم فى السجن حتى تحين محاكمته على أعين الناس .

* * *

وانعقدت المحكمة فى ساحة المعبد وكان يرأسها قاضيان وإحدى كاهنات معبد نانتا . وجلس النمروذ يحف به وزراؤه ورجال الدين ورجال الدولة ، وعن يمين المحكمة جلس الشهود ، وعن يسارها المحكمون وكانوا من الرجال والنساء وشيوخ المدينة .

وجيء بابراهيم من سجنه ، ونادى القاضى على الشاهد الأول فمثل أمام المحكمة ، وقال له القاضى :

— أقسم أن تقول الحق ..

— أقسم بمردوخ العظيم إله العدل أن أقول الحق ..

— أتعلم أنه لو ثبت عليك الكذب بعد أداء اليمين لحكم عليك بالموت ؟

— أعلم .

— حسن . قل لنا ما تعلم عن تحطيم آلهتنا . أرأيت إبراهيم وهو يحطمها ؟

— لا ، ولكن فى أحد الأيام إذ كنت فى المعبد جاء إبراهيم وقال لنا : « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » ؟ قلنا له : « وجدنا آباءنا لها عابدين » قال : « لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » .

وأخذ الشهود يلقون بشهاداتهم . وسارة ولوط وإيمتالى وآزر وناحور وهاران وهاران الكبير يصغون ، وهم جميعا وجلون ، إيمتالى وآزر فى كرب شديد . وهاران وناحور وأزواجهما وأولادهما غلب عليهم اليأس . أما سارة ولوط فكادا ينوءان لولا أن ربط الله على قلبيهما .

ونودى على إبراهيم فقام مهيبا وتقدم رافع الرأس ثابت الخطو . حتى إن النمروذ اعتدل ولاح فى وجهه الاهتمام الشديد :

وقال القاضى الجالس فى الوسط :

— أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

فأشار إبراهيم إلى مردوخ وقال :

— بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون :

ورجع المحلفون إلى أنفسهم وراحوا يتشاورون فقال أحدهم :

— لقد صدق ، إن مردوخ رب الأرباب وإله الآلهة وخالق الناس كره أن يعبد معه غيره ففعل ما فعل . إن ما حدث إن هو إلا نذير منه ، آية من آياته ، دعوة إلى عبادته وحده ؟

وقال آخر :

— وهل نعبد إلا إياه ؟ ما الآلهة الأخرى إلا ظل له .

— إن ما يقوله إبراهيم حق .

— إنكم أنتم الظالمون .

ثم نكسوا على رءوسهم :

— لقد علمت ما هؤلاء ينطقون :

قال :

— أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟

وأرسل النمروذ فى طلبه فسار إليه جليلا مهيبا . حتى إذا بلغ النمروذ وقف منتصب القامة ولم يخر ساجدا .

وسرت همهمة بين الوزراء ورجال الدولة ورجال الدين والناس أجمعين ، وانتاب آزر وإمتالى الهلع ، وأحس هاران وناحور وأزواجهما وأولادهما الخزى ، بيد أن لوطا وسارة أحسا شيئا من الاعتزاز وإن غلف الحزن قلبيهما .

وكتم النمروذ غيظه وقال :

— من ربك الذى تدعو إليه ؟

— رب السموات والأرض وما بينهما . فاعبده واصطبر لعبادته .

وقال كبير الوزراء فى إنكار :

— أإله غير النمروذ ؟ إنه رب السموات والأرض وما بينهما . إنه إلهنا العظيم .

ووجه النمروذ الخطاب إلى إبراهيم :

— لماذا لا تعبد ما يعبد قومك ؟

— لقد رأيت النار تلتهم آلهتكم ، فكيف أعبد ما تأكله النار ؟

— فلماذا لا تعبد النار ؟

— أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذى يطفئها .

— فاعبد الماء إذن .

— أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذى يحمله .

— إذن تعبد السحاب .

— أولى من عبادة السحاب أن أعبد الريح التى تبدده وتسير به من فضاء إلى فضاء .

— فما بالك لا تعبد الريح ؟

— إن الإنسان يحتويها بأنفاسه ، فهو إذن أحق منها بالعبادة .

وحاج النمروذ إبراهيم فى ربه وقال :

— إن كنت فى ريبة من أنى ربك ، فقل لى من ربك ؟

قال إبراهيم :

— ربى الذى يحيي ويميت .

فقال النمروذ :

— أنا أحيي وأميت .

فسأله إبراهيم :

— كيف تحيي وتميت ؟

قال :

— آخذ الرجلين قد استوجبا القتل فى حكمى ، فأقتل أحدهما فأكون قد أمته ، وأعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحييته .

قال إبراهيم :

— فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب .

فبهت الذى كفر ، وساد الصمت ، وأخذ آزر ينظر إلى إمتالى فى يأس فقد حكم إبراهيم على نفسه بالموت ؛ تحدى الآلهة وجعل الأصنام جذاذا وألزم الحجة الملك الإله .

والتقت عينا سارة بعينى لوط ، كان فى أعينهما أسى بيد أنها التمعت ببريق الانتصار .

إن إبراهيم وهو فى محنته ينصر ربه ، وما كان ربه ليتخلى عمن ينصره .

وعاد المحلفون يتشاورون . لقد كفر إبراهيم بآلهة آبائه وسخر منهم لما أشار إلى مردوخ وقال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . ولم يكتف بذلك بل تطاول على النمروذ الملك الإله . وقر رأيهم على أمر فقالوا :

— احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وانهارت إمتالى وبكى آزر ، وخف هاران الكبير يشد أزر أخيه ويواسيه ، وعلا الإظلام وجه هاران الصغير فقد لطخ أخوه إبراهيم أسرته بالعار وأتى بما لم يأت به أحد من قومه من قبل .

وجاء الجنود فأخذوا إبراهيم وعادوا به إلى السجن ، وانصرفت سارة وهى تكاد تموت كمدا ، وسار إلى جوارها لوط وهو حزين ولكنه لم يقنط من رحمة ربه ، فكان يرفع عينيه إلى السماء ويدعو الله سرا أن أدخل رسولك فى رحمتك . فإنك يا رب لا تضيع أجر المحسنين .

عكف النحاتون على صنع أصنام للآلهة بدل الأصنام التى جعلها إبراهيم جذاذا ، وكانوا يعملون ليل نهار خشية أن تنزل عليهم الآلهة كسفا من السماء أو يحيق بهم غضبها .

وراح السحرة والكهان يقيمون المراسيم فى معبد الإله نانار إله القمر ، ويحضون الناس على تقديم القرابين حتى ترضى الآلهة ويذهب عنها غضبها الذى أثاره إبراهيم بما فعل .

ودأبت فرق المغنين والمغنيات على ترديد الأناشيد . ولم تنقطع الصلوات آناء الليل وأطراف النهار ، ودبت الحياة فى مطبخ المعبد ؛ فقد زادت القرابين على ما كان يتصور حتى بلغ نصيب كل فتاة من بنات الهوى ضلع خروف .

وتقدم الرجال والنساء إلى تمثال مردوخ فى خشوع وركعوا له ، وراح كل واحد منهم يناجيه :

– إلهى أنا برىء مما فعل إبراهيم .

يا رب الأرباب لئن عافيتنى لأجمعن حطبا لإبراهيم .

يا إله الحكمة يا إله العدل يا خالق البشر ، أطل فى أيامى على الأرض حتى أثأر لعزتك وأنصرك وأنتقم لك ممن سخر من جلالك على أعين الناس .

وذهبوا إلى التماثيل التى راغ عليها إبراهيم باليمين وأخذوا

يناجونها وقد فاضت أعينهم بالدموع :

— أيها الآلهة العظام لئن نال ذلك الجاحد بكم من تماثيلكم ، إن نجومكم عالية فى السماء تبزغ علينا بنورها وترسل إلينا رحمتها .

أيها الآلهة العظام فى السماء . لا تحملوا فى قلوبكم المقدسة غضبا علينا ، فقد أقسمنا لننصرنكم ولنحرقن من فعل بكم ما أوجع قلوبنا وطعننا فى أعز مقدساتنا .

أيها الأرباب قروا عينا فساعة الانتقام دنت ، ولنجمعن له حطبا ما جمع لأحد قبله ولن يجمع لأحد بعده .

أيها الآلهة العالية فى السماء ، إن النار لن تبرد فى صدورنا حتى تلتهم ألسنة النار ذلك الذى اعتدى عليكم دون أن يخشى بطشكم ، وغاب عنه أنكم ستثأرون منه بأيدينا .

شكرا لكم أيها الأرباب أن جعلتم أيدينا هى العليا ولم تمكنوه أن يفر منا .

شكرا لكم أيها الأرباب أن كشفتم لنا مشيئتكم على الأرض ، ومشيئتكم فى السماء مشرقة .

وجاء آزر يمشى على استحياء يحمل تماثيل الآلهة التى صنعها ويتلفت فى خوف . لقد كانت خشيته من الناس أشد من خشيته من الآلهة . وإن كان يحاول أن يقنع نفسه أن مردوخ وحده هو الذى يستطيع أن يكتب عليه الخراب .

وكان ذابلا حزينا فسيلقى بابنه فى النار بما كسبت يداه ؛ وهو لا يقر إبراهيم على ما فعل ولكنه ابنه ، فلذة كبده ، فلئن كان حنق عليه لتسفيه آلهتهم ؛ إنه بضعة منه يؤذيه ما يؤذيه .

وكان ذابلا حزينا لأن نظرات الناس إليه فيها عداوة وتحقير . إنه مثلهم يؤمن بآلهة آبائه ، وقد يكون أشد منهم تعصبا لها ، ولكن ما فعله إبراهيم جعله هدفا لسخريتهم ولزراية الناس أينما سلك فى شوارع أور . وتعرفت عليه إحدى عاهرات المعبد وكانت تشترى منه تماثيل عشتار لتبيعها لمن يعاونونها على تقديم جسدها قربانا إلى إلهة اللذة العطوف ، فقامت إليه . ورآها آزر وهى تقبل نحوه فاغتصب ابتسامة ، فلو أنها اشترت منه تمثالا لقضت على المقاطعة التى فرضها عليه قومه دون ذنب جناه إلا أن يكون إنجابه لإبراهيم ذنبا لا يغتفر .

وأصبحت العاهرة أمامه وجها لوجه ، وكانت باسرة الوجه يشع من عينيها الغضب ، فنظرت إليه شزرا وبصقت على وجهه ، فأطرق آزر فى أسى وتدلت يداه بتماثيله وانسحب من المعبد وهو حزين ، يفكر فى البلاء الذى نزل به منذ جاءهم إبراهيم يدعوهم إلى إلهه ، ويعيب آلهتهم ويحطم أصنامهم .

ولو اقتصر الأمر على مقاطعة الناس للتماثيل التى يصنعها لهان الأمر ، فهو يستطيع أن يعيش من الأرباح التى يحصل عليها من تجارته هو ولوجال ، أو من الفوائد التى يقدرها القانون بعشرين فى المائة على القروض التى يقرضها الناس ، ولكن الأمر أبعد من الخبز وحاجات الجسد ، إنه العداوة القاسية التى انطوت عليها قلوب الناس .

* * *

وراح البناءون يبنون بنيانا ضخما لتوقد فيه النار التى سيلقى

فيها إبراهيم ؛ وكان الناس كلما مروا بهم باركوهم وحثوهم على العمل ليطفئوا بالنار نار الحقد التى اشتعلت فى صدورهم . ولما تم البنيان أقبل الرجال والنساء شيوخا وشبانا والكهنة والكاهنات وبنات الهوى ، أقبلوا من كل فج يحملون صلاب الحطب من أصناف الخشب ليوفوا نذورهم التى نذروها للآلهة .

ثم أشعلوا النار فى كل ناحية من الحطب فاندلعت ألسنة اللهب إلى السماء ، حتى كان الطير من شدة وهجها وحرها يحترق إذا مر بها . وصارت النار جحيما تشوى وجوه من يدنون منها . فأخذ الناس يتشاورون فيما يفعلون ليلقوا بابراهيم فى ذلك الأتون دون أن يصابوا هم بسوء . فاهتدوا إلى أن يصنعوا منجنيقا يقذفونه به فى الجحيم .

وجاء الملأ ينظرون ، وجاءت سارة ولوط وآزر وإمتالى وهاران وناحور وقومهم ، وجاء النمروذ ووزراؤه ورجال الدولة وجلسوا على البعد ينظرون ؛ وكان العرق يتفصد من وجوههم فإن لفح النار كان يسرى فى جنبات أور . وكان الدخان يحجب المعبد والبرج المدرج وجبال مغبر .

وجىء بإبراهيم من سجنه فضج المكان بهتافات السخط والوعيد . وتعلقت به عيون إمتالى وآزر وإخوته وفاضت من عيونهم الدموع ؛ وخفق قلب سارة وتشبثت بلوط أن تنهار .

ورفع إبراهيم رأسه إلى السماء وقال :

— اللهم أنت الواحد فى السماء والأرض . ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى . لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين . لك

الحمد ولك الملك لا شريك لك .

وكانت سارة قد آمنت برّب إبراهيم ، وكان لوط قد تلقى عن عمه تعاليم دينه . ولكن أحدا منهما لم يكن يعبد الله بعد عبادة إبراهيم إياه .

ووضع إبراهيم فى المنجنيق وأطلق فى الهواء فوقع فى الجحيم ، وارتفعت صيحات الفرح تشق عنان السماء ، وضاعت فيها أنات الأسى التى انطلقت من قلوب إمتالى وآزر وسارة ولوط .

ومرت الساعات وألسنة النار تتراقص ، ثم أخذت تخفت رويدا رويدا .

واقترب رجل من الجحيم ينظر فصاح فى فزع :

— رأيت إبراهيم حيا فى النار .. رأيت إبراهيم حيا فى النار ..

وسرت الصيحة بين الناس سريان النار فى الهشيم . وتجاوبوها فى دهشة حتى بلغت النمروذ .

وضمت سارة لوطا إلى صدرها فى فرح . وصاح لوط وهزه السرور :

— إنها آية .. آية من ربه .

وقام النمروذ فركب عربته وانطلق فى أثره رجال دولته . كان فى طريقه إلى برج إلهه نانا ليرى من فوقه حقيقة ذلك النبأ الذى انتشر بين الناس .

وبلغ النمروذ قمة البرج ونظر فإذا إبراهيم قاعدا فى النار حيا . فذهل ، إنه لا يصدق ما يرى فإن النار التى أججت كانت تكفى لتأتى على أهل أور جميعا .

وسمع أخوه هارلن ما ذاع بين الناس فلم يفرح . فإنه إن كان ما قيل حقا فهذا دليل على قدرة إله إبراهيم إذ نجاه من نار كانت تشوى الطير التى تمر بها ، وإنه لما يثير حنقه أن يفعل إله إبراهيم ما لا يقدر آلهته على فعله .

وخرج إبراهيم من النار ولم تحرق إلا وثاقه ، وصاحت سارة من الفرح وقال لوط فى ابتهاج :

— كانوا يسألونه أن يأتى بآية ليصدقوه ، وها هى ذى أعظم آية ، إنهم سيؤمنون . ليؤمنن جميعا .

وانطلقت إمتالى نحو إبراهيم تصيح وتغسل الدموع وجهها :

— ابنى .. ابنى الحبيب .

إلا أن الجنود حالوا بينها وبينه إذ كان فى طريقه إلى النمروذ .

وذهب إلى حيث كان النمروذ مرفوع الرأس ثابت الجنان يردد ما كان يقوله وهو فى النار : « حسبى الله ونعم الوكيل .. حسبى الله ونعم الوكيل » وقد هانت فى عينيه قوى الأرض جميعا بعد أن رأى قدرة الله . إنه يسير وروح القدس معه أينما سار ، تخفق بين جنبيه قوة روحية هائلة ، قوة تيسر له أن يتحدى جبارى الأرض أجمعين .

وراح النمروذ الملك الإله الذى يخر الناس سجدا تحت قدميه يقلب نظره فيه وهو مشدوه . وقد تقاصرت نفسه بعد أن هبت عليه ريح الخوف ، فذلك الخارج من النار عليه مهابة وجلال وإشراق تعنو لها الجباه .

ولم يفرخ روع النمروذ وراح يرقب إبراهيم وهو مأخوذ

ثم قال :

— ما أعظم ربك يا إبراهيم ؟ كيف خرجت سالما من هذا الجحيم .

— أوحى إلى ربى أنه قال : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، فكانت كما أمرها ربى .

وخشى الكهان أن يؤمن النمروذ بإله إبراهيم فتذهب ريحهم ويمحق سلطانهم فقالوا :

— خرج منها بسحره . هذا سحر مستمر .

ولم يأبه النمروذ بما قالوا فقد رأى آية لا يستطيع أن ينكرها فقال :

— نعم الرب ربك يا إبراهيم . إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة .

— إذا لا يقبل الله منك ما دمت على شىء من دينك هذا حتى تفارقه إلى دينى .

— يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكى ، ولكنى سوف أذبحها له .

وورمت أنوف الأوربجاللو ورجال الدين فقالوا :

— هذا سحر .. سحر مستمر .. سحر مبين ، مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين .

وصاح صائح منهم :

— انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وتحركوا ليفتكوا بإبراهيم ، فأشار النمروذ بيده أن قفوا وقال :

— اتركوه .

وكفروا بآية الله وأعرضوا عنها وراحوا يؤكدون أن إبراهيم ما خرج من النار إلا بسحره المبين .

وذهب لوط إلى أبيه هاران وقال :

— أبى ! آمن بما أنزل إلى إبراهيم من ربه .

والتفت إلى آزر وإيمتالى وعمه ناحور وقال :

— قولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم .

فقال هاران فى كبرياء :

— لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى .

وانصرف هاران وهو يزفر نار الحقد التى تأكل صدره . وقد استولت عليه فكرة أنه إذا كان إله إبراهيم قادرا على أن ينجيه من النار ، فإن آلهته قادرة على أن تجعل النار بردا وسلاما على هاران .

وانطلق إلى المعبد وهو محموم بعد أن اغتسل وتطهر . وذهب إلى صنم مردوخ وراح يصلى فى حرارة ويبتهل إليه أن يأمر النار أن تكون بردا وسلاما عليه كما أمرها رب إبراهيم فكانت بردا وسلاما عليه .

وظل يبتهل إلى الآلهة جميعا لا يرقأ له دمع ويقول فى حرارة :

— أيها الآلهة ، أيها السادة البعول ، امنحونى مثل ما منح إله إبراهيم أخى .. اجعلوا النار بردا وسلاما علىّ كما كانت بردا وسلاما على أخى .. أيها السادة البعول لتكن مشيئتكم فى الأرض مشرقة كما هى فى السماء مشرقة .

وخرج هاران من المعبد وقد استولت عليه الفكرة وملكت كل حواسه ، كان يريد أن يعلن فى الملأ أنه سيدخل النار ويخرج منها سالما بإذن آلهته ، ليؤكد لضعاف الإيمان أن آلهته قادرة على أن تجعل النار بردا وسلاما عليه كما جعل رب إبراهيم النار بردا وسلاما على أخيه ، بيد أنه آثر أن يقوم بالتجربة وحده بعيدا عن العيون قبل أن يعلن على الملأ ذلك الامتحان .

وفى جنح الليل سلك طريقا قفرا . وكان القمر يسطع فأحس راحة فإن إلهه معه يبارك ما هو مقدم عليه .

وجمع هاران حطبا وأشعل فيه النار ثم ألقى بنفسه فيها . فلسعته النار فصرخ وخرج منها يعدو ويصرخ فى فزع ، ثم سقط على الأرض يتلوى ويئن حتى فاضت روحه .. ونور القمر يغمر جثته التى همدت .

١٧

جلس آزر مطرقا حزينا بعد أن أنزل به مردوخ الخراب ، جلس يزفر حسرة على ابنه هاران الذى أراد أن يؤتى ما أوتى أخوه إبراهيم فراح يمتحن قدرة آلهته ، فراح طعمة النيران .

لم تطل أيام ابنه هاران على الأرض بل ذهب إلى العالم السفلى إلى الأرض التى لا رجعة منها . ولم تحتمل إعتالى العجوز قسوة القدر فماتت حزنا على ابنها ، ذهبت إلى العالم السفلى وتركته وحده يعيش على الذكريات ، ويقاسى مرارة الوحدة التى اشتدت وطأتها عليه لما أصر قومه على مقاطعته وإبداء العداوة له .

لقد نبذه الناس لأن ابنه إبراهيم كفر بالآلهة وحطم أصنامها ، نبذوه لأن ابنه سخر من الآلهة جميعا على أعينهم . ولم يذكر الذين ظلموه أن ابنه الآخر هاران ضحى بنفسه ليدلل على قدرة آلهتهم ، وأنه كان أكثرهم إيمانا بالسادة البعول الكرام .

ونسى آزر أو لم يخطر على باله أن كهان أور ورجال الدين فيها حقدوا على هاران حقدهم على أخيه . فقد خرج إبراهيم من النار معلنا على رءوس الأشهاد قدرة إلهه التى ما كانت تخطر على قلب بشر ، بينا تردى هاران فى النار فجاء بدليل مبين على عجز آلهتهم وهوان أمرها .

قال الكهان إن بيت آزر بيت حلت به اللعنات ، وأن هاران

احترق بسبب هذه اللعنات ، وأن الآلهة أبت أن تمد أيديها إلى هاران لأنه تدنس بدعوة إبراهيم فتركت النار تلتهمه ولم تأمرها أن تكون بردا وسلاما عليه .

وصدق الناس هذه الدعوى حتى آزر نفسه صدقها ، ألم يحترق هاران ؟ ألم تمت إمتالى حزنا عليه ؟ لقد تجلت قدرة مردوخ إذ كتب عليه الخراب ! وسكن الناس إلى ما يدعيه الكهان ولم يطلبوا منهم أن يلقوا بأنفسهم فى الجحيم وأن يخرجوا منها سالمين بسلطان آلهتهم أو بسحر مستمر ، وهم الأطهار الأبرار الذين لم تحل عليهم اللعنات بسبب دعوة إبراهيم .

وبات آزر نهبا لأفكاره مذ مات هاران وحملت إمتالى على الأعناق . كان يرتجف من غضب آلهته فإن إبراهيم ما يزال على عداوته لهم ، بل وزادت عداوته ضراوة بعد أن خرج سالما من النار التى ألقوه فيها .

وقد أعلنت سارة ابنة أخيه إيمانها برب إبراهيم وصارت تقضى نهارها وليلها فى المحراب تدعو ربها بصوتها الرخيم حتى خشى الجيران أن تفتن أبناءهم . وآمن له لوط على الرغم من أن أباه مات فى سبيل إعلاء كلمة آلهته . وآمن المستضعفون من الناس سرا بما جاء به إبراهيم ، ترى ماذا يحيق به من خراب بعد ما حل به؟ وماذا تفعل الآلهة به أيضا لتعلن عن غضبها ؟

كان آزر كالغريق الذى يجاهد ليتشبث بأى شىء ، لم يجد أمامه إلا أن يظهر الخضوع لآلهته وأن يفعل ما يسكن غضبها . فكر أن يخرج إلى المعبد وأن يقدم القرابين للآلهة حتى ترضى ،

ولكنه تذكر العداوة التى يستقبل بها كلما انطلق إلى المعبد فارتعدت فرائصه . إن تحقير الناس إياه أليم لا يطاق حتى ولو كان فى سبيل الآلهة !

فلم يكن أمامه إلا أن يذهب إلى معبده الخاص يبكى وينتحب للآلهة عسى أن ترق له وتعفو عنه . فدخل المحراب وركع خاشعا لمردوخ ونانا وشماش وعشتار وإنليل وأنو وأيا وكل من يعرف ومن لا يعرف من الآلهة ، وانبعثت الصلاة من قلبه حارة والابتهالات محلجلة .

وعكف على صلاته وبكائه ودعواته حتى نال منه الجهد .

كان يرجو أن يدرأ غضب الآلهة بصلاته ونسكه ، أن يرفعوا عنه مقتهم وغضبهم ، أن يدعوا أيامه الباقية على الأرض تنقضى بسلام وكفاه ما قاسى من موت العزيزين هاران وإمتالى !

وجاء إبراهيم يسعى إليه فهو منذ مات هاران وأمه لا يفارق أباه بل يؤنسه فى وحدته ويبره ويخفض له جناح الذل من الرحمة ولا يقول له إلا قولا معروفا .

وبقى إبراهيم مع أبيه إلى أن صعد إلى غرفته لينام ، فخرج إلى ملكوت الله يفكر ويتدبر آياته ، ويحس ذلك التناغم بينه وبين الكون الذى يحسه كلما خرج إلى الخلاء .

وتذكر ما كان بينه وبين جده ناحور إلى أن مات ، وما كان بينه وبين أخيه هاران حتى ذهب إلى الله ، وما كان بينه وبين أمه حتى فاضت روحها بين يديه .

مات ناحور وهاران وإمتالى . مات جده وأخوه وأمه ،

وسيلحق بهم حين يأذن الله أبوه وزوجه ، ثم يكون يوم يذهب فيه هو نفسه إلى الرفيق الأعلى ، كل الناس يذوقون الموت .

الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ البعث ! فالموتى يبعثهم الله وإليه يرجعون . سيجيء يوم يبعث الله فيه الناس جميعا فينبئهم بما عملوا ، فقد أوحى الله إليه أن « ما خلقُ الناس ولا بعثُهم إلا كنفس واحدة » .

لقد آمن بما أوحى الله إليه ، آمن بأن الله هو الذى يحيي ويميت وأنه قادر على أن يحيي العظام وهى رميم ، وأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . فراح يسبح باسم ربه الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، فأحس أن الكون كله يسبح معه الله ويقدس له .

واتسعت الرؤية أمام بصيرته ، واجتازت روحه حدود نفسه فإذا بها تتحد فى روح الكون وتتسق مع ما حولها ، وترهف السمع لما يلقى فيها ، لما يوحى إليها . فذكِّر إن نفعت الذكرى ، سيذكَّر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيي ، قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى .

وامتلأت نفسه بالأنس إذ يناجى ربه ويتلقى منه ما يوحي إليه ، فقال :

— رب أرنى كيف تحيي الموتى .

قال :

— أو لم تؤمن ؟

قال :

— بلى ، ولكن ليطمئن قلبى .

قال :

— فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا .

وأخذ إبراهيم أربعة من الطير ، وانطلق إلى جبل مغير فذبحها وقطع كلا منها أربعة أجزاء ، ثم جعل على كل جبل من الجبال جزءا وعاد إلى الوادى ودعا الطير باسم الله ، فإذا بها تأتى إليه سعيا ترفرف بأجنحتها فى الهواء . فتهلل قلب إبراهيم بالفرح ، لم ير كيف نفخت الروح فى أشلاء الطير ، ولكنه رأى أثر القدرة ، فما كانت جبال مغير إذا تجلى لها الله لتستقر فى مكانها .

واطمأن قلب إبراهيم وزاده الله إيمانا على إيمان ، فانطلق وقد أشرق النور فى روحه يذكّر الناس إن نفعت الذكرى ويقول لهم : قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، وأن الله عزيز حكيم .

وعاد إلى من آمنوا يبصرهم فى أمر دينهم ، ويبلغهم ما أوحى إليه ويقول لهم :

— على العاقل ، ما لم يكن مغلوبا على عقله ، أن يكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدم وأخر ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فى المطعم والمشرب .

وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاده ،

أو فرقة لمعاشه ، أو لذة فى غير محرم .

وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شانه حافظا للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . ،

وكان يذهب إلى المعبد وإلى الأسواق يدعو الناس إلى الله ، كانوا من قبل يقولون : لولا يأتينا بآية من ربه ، وقد جاءتهم الآية ظاهرة باهرة ، ولكن الكهنة طمسوا عقولهم وأوهموهم أن ما حدث إن هو إلا سحر مستمر ، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟

وكان إبراهيم أواها حليما تنهمر دموعه إذا ابتهل إلى الله ، ولكنه ما كان يدعو الله قط أن يأخذ قومه بذنوبهم . بل كان يستغفر لهم ويلتمس لهم المعاذير .

واتخذه قومه هزوا وسخروا منه ، ولما ضاقوا به أخذوا يأتمرون به ليقتلوه أو ليخرجوه من ديارهم . وكان الكهنة ورجال الدين أشد الناس عداوة له ؛ وما كانت عداوتهم له غيرة على آلهتهم وما نالها من تحقير ، بل كانت خوفا على سلطانهم وأن يجف نهر الخيرات المتدفق إلى خزائنهم ومخازنهم ودورهم وضياعهم .

وجاءه وفد منهم وقالوا له :

— اخرج من ديارنا .

فقال فى ثبات :

— لا أفعل حتى يأمرنى ربى .

فقالوا فى غيظ شديد :

— لتخرجن أو لنقتلنك .

— لن أخرج إلا أن يأمرنى ربى .

وأوحى الله إليه أن اخرج من البلدة الظالم أهلها فراح يتأهب للهجرة ويجمع عبيده ومواشيه . وبلغ آزر أن إبراهيم خارج من أور فذهب إليه يطلب منه أن يحمله معه ، فلم يعد يطيق الوحدة التى يحياها ولا عداوة قومه ولا نظرات الاحتقار والزراية التى تصوب إليه كلما سلك طريقا من طرقات أور .

وراح لوط يتأهب للخروج مع عمه ، فتشبثت به أمه وتوسلت إليه أن يبقى معها بعد أن ذهب أبوه إلى الأرض التى لا رجعة منها ، ولكنه رفض طلبها وقال فى إيمان عميق :

— إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم :

انطلقت قافلة الإيمان فى رحاب الله ، مخلفة وراءها أور الكلدانيين بطرقاتها ومبانيها وبرجها العظيم الذى علا فى السماء يخلد عظمة البشر ويشدهم إلى الأرض ، ولا يحلق بهم فى رحاب السماء .

وانساب المؤمنون على ضفة الفرات ، وكانت الحقول تمتد إلى مدى البصر إلى الآفاق البعيدة المغلفة بالمجهول ، وكان النهر يتدفق بنعمة الله وصوت خريره فى أرواح المؤمنين تسبيح ، وكانت السماء صاحية والشمس ترسل أشعتها الحارة فيتفصد العرق من الجباه وتهن الأجساد من التعب ، ولكن إشراقة النور التى تعمر القلوب كانت تحوّل كل مشقة إلى رضا وحبور ، فقد كانوا جميعا منطلقين فى سبيل الله .. إلا آزر فقد خرج فرارا من الزراية والاحتقار ونظرات العداوة التى تطل من عيون الناس .

كان إبراهيم يسرى فى ملكوت الله سريان الروح القوية المؤمنة ؛ وكانت سارة تتألق فى جمالها الذى يبهر العيون وقد أضفى عليها إيمانها جلالا يفوق كل جمال ؛ وكان لوط شابا قويا ، ولكن القوة التى أمده الله بها بعد أن أسلم له وجهه تفوق كل قوة فهى قوة الروح التى تأتى بما يعجز عنه البشر ، وكان العبيد الذين آمنوا يستشعرون من العزة والحرية بما لم ينعم به الأحرار ، فلم يعد

رجاؤهم مشدودا إلى الأرض بل ارتفع وسما إلى ما فوق السموات .

وأقبل الليل وخفت حرارة النهار وهبت نسائم ندية أنعشت النفوس والقافلة تجد فى السير . وما زال الناس فى سيرهم حتى أشرقت الشمس فنزلوا عن رواحلهم ونصبوا الخيام وأسلموا أجسامهم للرقاد . ناموا ملء عيونهم وما فكر أحدهم فى الدار التى غادرها ولا فى الفراش الوثير الذى هجره ، فقد أقام كل منهم فى قلبه بيتا لله ، بيتا لا ترتفع إليه بيوت الدنيا بما فيها من رياش وزينة ومتاع .

ورقدت الأنعام والأغنام بالقرب من الخيام . إنها كل ما خرجوا به من المدينة ولكنهم كانوا يحسون أنهم أغنياء . فإن أرض الله الواسعة لهم ، ومياه النهر التى تجرى بالخيرات ملك أيمانهم ، وكواكب السماء سخرت لهم ، فهم مذ خرجوا من أور فى ضيافة الله .

وقاموا للصلاة واصطفوا جميعا خلف إبراهيم ، إلا آزر فقد انتبذ مكانا قصيا وراح يفكر فيما كان بينه وبين ابنه ، حتى إذا طافت بذهنه ذكرى ذلك اليوم الذى اشتعلت فيه النار فى آلهته أطرق مليا وأصاخ سمعه لما كان بينه وبين إبراهيم من حوار :

— يا أبت إن النار أحق بعبادتك من أصنامك لأنها تحرقها .

— فلماذا لا تعبد النار ؟

— لأنى لا أحسب النار إلها لأن الماء يخمدها .

— فلماذا لا تعبد الماء ؟

— لأنى لا أحسب الماء إلها لأن الأرض تبتلعه .

— فلماذا لا تعبد الأرض ؟!

— لأنى لا أحسب الأرض إلها لأن الشمس تجففها وتنشر على الكون كله أشعتها .

— فلماذا لا تعبد الشمس ؟

— لأنى لا أحسب الشمس إلها لأن الظلام يحجبها .

— فلماذا لا تعبد ما نعبد ؟ لماذا لا تعبد القمر ؟ لماذا لا تعبد المشترى ؟

— لأنى لا أحسب القمر والنجوم والكواكب التى تظهر فى الظلام آلهة لأنها تحجب عند طلوع النهار ، وإنما الإله القدير على كل شىء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض وما عليها وخالقى وهادىّ إلى الحق المبين .

وراح آزر ينظر إلى المصلين وهو يعجب فى نفسه كيف آمن هؤلاء بما يدعو إليه إبراهيم ؟ كيف أساغت عقولهم أن يعبدوا إلها لا يرونه وليس له رمز فى السماء كمردوخ ونانا" وشماش وعشتار والآلهة الأخرى ؟ إنه عندما يناجى مردوخ يتمثل له فى خياله وهو جالس على عرشه وقد كبرت أذناه اللتان ترمزان إلى حكمته . وعندما يناجى نانا" يراه أمام عينيه هلالا دائما أبدا ، ويحس فى أعماقه أنه هو الذى يقيس الزمن وهو الذى ينهى الأيام والشهور والسنين للملوك المذنبين بالدموع والتأوهات !

وعندما يناجى شماش وعشتار ولدى الإله القمر فهو يعرف من يناجى ، وهو عندما يرفع عينيه إلى شماش فإنما يرفعهما إلى القاضى الأعظم الذى أنجب إلهين جليلين هما كتو وميشار — العدالة

والحق ، وهل هناك أجل من العدالة والحق ! إن شماش يطأ الظلم تحت قدمه ويملي على أبنائه من الملوك والآلهة قوانين العدالة .

ترى ماذا يرى الذين آمنوا بإله إبراهيم عندما يرفعون أبصارهم إلى السماء ؟ لقد قلب وجهه فى السماء فلم ير فيها إلا آلهته وآلهة قومه ، ولم ير إلا القمر والشمس والكواكب ، فكيف يريد إبراهيم منه أن يحيد عن آلهته التى يراها ويعيش فى كنفها إلى إله لا يراه .

لو أن إبراهيم دعاه إلى عبادة النار أو الماء أو الأرض أو النجوم أو الشمس أو القمر لاستجاب له . فهذه آلهة ترى . أما ذلك الذى يدعو إليه فما عرفه أحد من الآباء والأجداد .

وذكر آزر أن رجلا من المؤمنين بما يدعو إليه ابنه قال له : إن الله طهر الأرض مرتين : مرة بالطوفان ومرة بالنار التى أججت ليلقى فيها ابنه المبارك . ودعاه أن يسارع للإيمان والأرض ما تزال طاهرة قبل أن يعود الفساد فيدب فيها مرة أخرى ، مثلما استشرى بعد الطوفان .

وراح يفكر فى هذه القولة ؛ إنه يعلم أن الملوك الآلهة هبطوا إلى الأرض بعد الطوفان ليحكموا الشعوب باسم الآلهة الذين فى السماء ، ومنذ ذلك الوقت والملوك الآلهة يمارسون سلطانهم . فأين ذلك الفساد الذى يتحدث عنه ؟ وقال له الرجل إنه جاء فى صحف إبراهيم أن الله يقول للنمروذ ومن على شاكلته : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها وإن كانت من كافر .

أإله إبراهيم هو الذى بعث الملوك الآلهة ليحكموا بين الناس ؟ إن كان هو الذى بعثهم فماذا فعل آلهتنا ؟ إن آلهتنا اجتمعوا فى مجمعهم بعد الطوفان وأنزلوا الملكية من السماء ، وما كان للملوك الآلهة أن يظلموا فإن كل ما يفعلونه عدل ، عدل إلهى ، ووصف إبراهيم إياهم بالغرور والظلم وصف جافاه الإنصاف .

وخطر له بعد أن استراح إلى ما وصل إليه خاطر أقلقه . إن النمروذ الملك الإله ذبح لإله إبراهيم أربعة آلاف بقرة ، أكان يضحى بكل هذه الأبقار إن لم يكن إله إبراهيم عظيما يستحق هذه التضحية ؟ ! ووسوست أقوال الكهان فى صدره : إن إبراهيم سحر الناس وخرج من النار بسحره ، وسحر النمروذ حتى جعله يذبح الأبقار . واستراح إلى همزات الشيطان . فأبوه ناحور كان عالما بالسحر وأسرار النجوم . فلعل إبراهيم تعلم السحر من جده على غفلة منه كما تعلم منه النظر فى النجوم !

وعاد فكره إلى القلق الذى أصبح يساوره منذ جاء إبراهيم بدعوة توحيد الآلهة جميعا ، فقد تبادر إلى ذهنه سؤال حائر لم يعرف له جوابا : إذا كان إبراهيم سحرهم حقا فلماذا لم يعاقبوه بتهمة السحر والقانون يحكم بإعدام من يمارس السحر .

لو خلى النمروذ بين الكهنة وبين إبراهيم لقتلوه ، ولكن النمروذ حال بينهم وبينه ، إن كان النمروذ قد أجاره أوليس هو إلها لا يشين أفعاله خطأ ولا يجانبه الصواب ؟ أو يقدر إبراهيم إن كان ساحرا أن يسحر إلها ؟ إن آزر فى حيرة لا يدرى ما يفعل . أيؤمن بما يدعو إليه ابنه ويكفر بدينه ودين آبائه ، أم يظل على دينه

وعبادة آلهته السادة البعول العظام ؟

واستأنفت قافلة الإيمان رحلتها وقد أسلم كل من فيها قلبه لله . فلم يعد لأحد منهم غاية إلا رضى ربه . كانت سعادتهم غامرة فهم مهاجرون إلى الله . ولم يكن باسر الوجه إلا آزر . فقد سار فى نفس هذه الطريق يوم استدعاه الأورنجاللو فى بابل ليصنع تمثالا للاله مردوخ فى عيده الكبير . وكان وقتئذ منشرح الصدر يعرف مواقع قدميه ، وما كان يكدر صفوه إلا رؤية أبيه التى رآها فى كبد الأضحية ، ليلة رأى أصنام الآلهة تتكفأ على وجوهها .

كان فى ذلك الحين تطوف به موجة من الرهبة . الرهبة من المجهول . أما اليوم فقد وقع ما كان يخشاه وعاش حتى رأى تأويل رؤيا أبيه ناحور ، عاش حتى رأى ابنه إبراهيم يحطم أصنام الآلهة بيمينه ، وقاسى بسبب ذلك من غضب الآلهة وكتب عليه مردوخ الخراب فاحترق هاران وماتت إمتالى . وها هو ذا يهيم على وجهه مع أناس آمنوا لابنه وكفروا بدينه ودين آبائه الأولين .

وتذكر أن أباه قال له إنه رأى نورا يخرج من ظهره ينير السماء ، ولم يشأ أن يصدق أن ما رآه ناحور رؤيا صادقة وأن إبراهيم مبارك ، بل راح يؤكد لنفسه أن ما رآه أبوه نورا يخرج من ظهره إن هو إلا نار خرجت لتحرق آلهة السماء .

ومرت القافلة ببابل ولاحت للعيون المدينة التى بنيت فوق الربوة ببرجها الهائل المدرج ، فصغرت نفس آزر فى عينيه وراح يبتهل إلى رب الأرباب فى حرارة أن يرفع عنه غضبه ، بينا نظر إبراهيم ومن معه إلى المدينة العظيمة فى ازدراء ، فإن بيوت إلله التى

شيدوها فى قلوبهم أروع وأرحب وأثمن من كل بيوت الأرض .

وضربت القافلة خيامها بأرباض مدينة سفروايم ، ولما استراح أهلها من تعب الرحلة دخلوا المدينة يتزودون من أسواقها ويملئون سقاءهم من آبارها . وراحوا يتلفتون حولهم فهذه أول مرة يرى فيها إبراهيم وسارة ولوط تلك المدينة . وانطلق آزر وهم خلفه فوجدوا أنفسهم أمام معبد من معابد القوم ارتفع برجه وغص بالناس .

وسار آزر إلى حيث قام المذبح ، وإذا بخلق كثير يتعبدون وإذا المراسيم تجرى فى خشوع . وأصوات المغنين ترتفع بالتراتيل ، والدموع تفيض من العيون .

ودار إبراهيم على عقبيه لينصرف وإذا بسارة تهتف به :

— إبراهيم ! انظر .

ونظر إبراهيم فإذا برجل يعترف بما ارتكب من المعاصى ثم يقدم ابنه البكر ليذبح قربانا للآلهة . وتقدم الكاهن فأمسك بالصبى وذبحه وهو يرتل الدعوات ، والموسيقيون ينفخون فى المزامير وينقرون على الدفوف والطبول ، والعرافون يطلقون البخور .

والتقت عينا إبراهيم بعينى أبيه وكان يبدو على آزر الإيمان العميق وكأنما كانت عيناه تقولان لابنه : أرأيت إيمان قومنا بآلهتهم ؟ لقد بلغ بهم الإيمان حدا جعل الأب يذبح ابنه البكر على مذبح الآلهة تكفيرا عن معصية ارتكبها . أفلو كانت سارة أنجبت لك ولدا أكنت تذبحه قربانا لإلهك ، لربك الواحد الذى تدعو إليه ؟

كانت نظرات آزر تنطق بالإيمان بآلهته ، فقد خامره الشك شيئا فى أمرها بعد ما سمعه من إبراهيم وما رآه من تحطيمه لأصنامها ،

أما ما يجري الآن عند مذبح الإله في سفروايم فقد أعاد إليه إيمانه ، إن آلهته ما تزال عظيمة جليلة حتى إن المرء ليتقرب إليها بذبح ابنه البكر عن طيب خاطر .

وتذكر هاران الذي احترق ليدلل على قدرة آلهته فلم يعصر الحزن قلبه بل غمره الرضا . إن تضحية هاران لآلهته تفوق تضحية هذا المؤمن عميق الإيمان الذي يقدم فلذة كبده زلفى للآلهة ، فقد قدم هاران نفسه وليس شخصا سواه قربانا على مذبح الأرباب ، فتضحيته تفوق كل تضحية تخطر على البال .

وقرّ عزم آزر أن يبقى على دين آبائه ، أن يظل مؤمنا بأربابه حتى لا تذهب تضحية هاران الحبيب هباء ، وراح يطمئن نفسه أن الآلهة سترضى عنه ، فإن كان مردوخ قد كتب عليه الخراب فما فعل ذلك إلا انتقاما لما فعله إبراهيم ، ولتجزينه الآلهة خيرا بما قدم هاران .

وامتطى المؤمنون رواحلهم واستأنفوا رحلتهم . وأثارت الأنعام والأغنام النقع حتى كادت تحتجب الرؤية .

وكان إبراهيم هادئ النفس منشرح الصدر فقد صار الكون كله معبدا . فأينما يولى وجهه فثم وجه الله .

ورأى فى طريقه الثيران تحرث الأرض ، والفلاحين يبذرون الحب . والمياه تترقرق فى القنوات كاللجين وتسرى سريان الروح ، وأشجار النخيل سامقة رائعة تنطق بجلال الله . إنها أروع من أبراج المعابد التى تختال أياما ثم ما تلبث أن تنهار ، إن أشجار النخيل — أبراج الله — ستبقى فى جلالها ما دامت الأرض والسماء تسبح بحمد الله وتقدس له .

وضرب المؤمنون فى البيداء حيث الفضاء لا يحد . الفضاء النقى الذى يغسل الأرواح . فراحوا يملئون ذواتهم بروح الكون قبل أن يملئوا صدورهم بنقاء الهواء . فقد أمدهم إيمانهم برحابة روحية جعلتهم يتحدون مع روح الوجود . ويتهللون بالفرح كلما وقعت أعينهم على ما فى الكون من كائنات .

ومروا بالآبار الحمر آبار النفط فى حث ، ثم هبطوا من الصحراء إلى وادى بليق فبدت الأرض كأنما كسيت ببساط سندسى أخضر وشى بالزبرجد والياقوت والمرجان . ودبت

الحياة فى الكون وارتفع نبضها . فالأنعام والأغنام ترعى فى مراعى الله ، والعبيد والرجال يملئون سقاتهم من المياه الجارية ، والنساء يتفيأن ظلال الأشجار وينعمن برطب الهواء :

وجلس آزر يلتقط أنفاسه ويحن إلى الاستقرار . إنه فى طريقه إلى حاران مدينة القيظ والحر اللافح فلن يكون المقام فيها هينا لينا ، ولكنه مع ذلك يرجو أن يبلغها ليستريح من وعثاء الطريق .

لقد غادر أور لينجو من نظرات العداوة التى يرشقه بها قومه ، فقد كان لسع تلك النظرات أليما على روحه حتى هان عليه أن يهاجر من وطنه ، بيد أن قسوة الرحلة فاقت ما كان يتصوره .

كان يخفف من آلامه أن حاران مثلها مثل أور مقر لعبادة الإله القمر ، وإن كان يعبد فى حاران باسم الإله سين وفى بلده باسم الإله « نانا » . إنه هو نفسه إلهه الذى يحبه ويقدم له الخضوع والولاء ويرفع إليه الدعوات ويتزلف إليه بالقرابين . إنه يحس أنسا كلما كان فى حضرته ، وسواء عليه أعبده فى أور باسم نانا أم فى حاران باسم سين ، أم فى سيناء حيث أقيم له معبد هائل يليق بمقامه واشتق من اسمه اسمها لتتقدس أراضيها .

إن إلهه القمر يعبد فى كل بقاع الأرض التى يعرفها ؛ فكيف يسفه ابنه أحلام كل هذه الأمم ويطعن فى معتقدات كل هذه الشعوب ؟ إن ضياء إلهه لطيف ينزل الأمن بالقلوب ويشرح الصدور ، أما نور رب إبراهيم فإنه لم يشرق فى قلبه ؛ وكيف يشرق فى قلبه نور لم تر عيناه له شروقا ؟ !

وعاود آزر القلق ؛ أيتركه إبراهيم فى حاران يعبد إلهه كما يشاء

أم يحول بينه وبين عبادته كما فعل فى أور ؟ وهل يفعل إبراهيم فى حاران ما فعله فى أور فيسخر من آلهة القوم على أعين الناس ؟

ونزل بقلب آزر هم شديد : إن كل الدلائل تشير إلى أن إبراهيم لن يتوانى فى تبليغ رسالات ربه ، وقد ازداد صلابة وعزما بعد أن خرج سالما من النار التى ألقوه فيها ولم تحرق إلا وثاقه .

إن حاران مدينة من مدن القوافل وهى مفتاح الطريق بين الشرق والغرب ، وما جاء إبراهيم إليها إلا ليدعو الغادين إليها والرائحين منها إلى دينه ، إلى عبادة إلهه . إنه ما جاء إليها إلا ليعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى رب العالمين .

واربد وجه آزر ، فلو أنه اهتدى إلى ما وضح لعينيه الساعة لما غادر أور وما ترك وطنه . إنه فر من نظرات العداوة من قومه إلى نظرات قد تكون أشد ضراوة وشراسة منها . إن قومه كانوا يعرفون له أنه كرس حياته لصنع تماثيل الآلهة . أما أهل حاران فلا يعرفون عنه شيئا . إنه كالمستجير من الرمضاء بالنار .

وارتجف فرقا فهو شيخ كبير لا يستطيع احتمال التعذيب ، إنه يريد أن يمضى ما تبقى من أيامه على الأرض فى سلام ، ولكن كل الدلائل تشير إلى أن مردوخ قد كتب عليه الخراب وأن كل الآلهة ما تزال غاضبة عليه من جراء ما فعل بها إبراهيم .

وراحت القافلة ترقى جبال بادام آرام . وكانت صخورها صلبة فكانت الرواحل تسير فى بطء شديد ، وأخذ الرجال والعبيد يدفعون الأنعام والأغنام فى شعاب الجبال دفعا . ولمح إبراهيم حملا حديث الولادة يجهد ليلحق بأمه ، فهبط من على راحلته وأخذ

الحمل بين ذراعيه وضمه إلى صدره فى حنان ، ثم عاد به إلى راحلته وهو يمسح على ظهره بيده وينظر إليه بعينين يشع منهما العطف والحب . كان قلب إبراهيم كبيرا يفيض بالحنان على كل من حوله .

وانسابت القافلة فى الأرض الفضاء بين دجلة والفرات ، وظهرت على البعد مدينة حاران ، ولاح معبد الإله القمر على ربوة عالية كأنه منار فى وسط الصحراء ، وارتفع برجه المدرج فى خيلاء يخلد براعة الإنسان .

وتهلل قلب آزر فقد صار الآن فى كنف إله يستطيع أن يرى تمثاله وهو يناجيه ، إله له مذبح يستطيع أن يذبح عليه ما يتقرب به إليه . لقد سمع من إبراهيم أن الكون كله معبد لإلهه ، وأن الأرض مسجد وطهور ، وأن السماء آية من آياته ، وأن كل ما فيها من نجوم وكواكب وأقمار وشموس تسبح له ، وأنه فوقها جميعا وليس فى الأرض ولا فى السماء مشيئة إلا مشيئته ، ولكنه لا يستطيع أن يتصور معبدا بلا جدران ولا كهنة ولا مغنين ولا مغنيات ولا مراسيم ولا تماثيل ترمز إلى الآلهة جميعا !

ستسعد عيناه عما قليل برؤية إلهه ، وتشرب أذناه ألحان المغنين والمغنيات ، وتشم أنفه رائحة البخور ، رائحة الخطايا التى تحترق على مذبح الإله لتزكو وتنقلب إلى عبير .

سيرى عما قليل أسمى تضحية : تضحية فتيات المعبد بأجسادهن متحملات كل قسوة وامتهان فى سبيل إرضاء عشتار الإلهة العطوف !

ودخلت القافلة مدينة حاران فى الليل ، وانطلقت إلى أقرب بئر ، فخف النسوة وقد حملن جرارهن على رءوسهن ونزلن فى الدرج الذى يقود إليها وتزاحمن حول الماء .

وجاء الرعاة يتدافعون ليملئوا أجران الماء لسقى الجمال والثيران والأغنام ، ورأى إبراهيم النساء وهن يوسوسن بأساورهن وخلاخيلهن ويشققن طريقهن بين الرجال فأمر عبيده أن يملئوا لهن جرارهن ، وأن يسقوا أغنامهن قبل أن يملئوا سقاياتهم أو يرووا ما معهم من إبل وأبقار وأغنام :

وضرب إبراهيم خيامه بين البداوة والحضارة لينهض بالرسالة التى بعثه بها ربه ، كانت حاران غاصة بالدور والبيوت الواسعة إلا أن إبراهيم هجرا المبانى التى تحد من تأملاته ، وعزم أن يعيش على حافة المدينة ليكون بعيدا عن عادات قومه وتقاليدهم التى استقرت فى ضمائرهم ، بعيدا عز عقائدهم التى أفسدها الكهان ورجال التشريع !

إن رجال الدين يعيشون بين جدران المعابد ، أما الأنبياء فيسبحون فى مملكة الله يدعون الناس إلى التحرر من قيود الناس وعبادة الناس ، يدعونهم إلى التخلص من إسار الأوامر الجامدة والشعائر الزائفة إلى حيث رحابة الإيمان :

كانت خيام إبراهيم على طريق القوافل المنطلقة بتجارة بابل إلى الشام والحجاز ومصر والعائدة إليها بخيرات تلك الأقاليم ، وكان إبراهيم إذا جن الليل يوقد نارا يدعو بها الضيفان إلى طعامه : فلم يأكل إبراهيم وحده مذ خرج من أور بل كانت موائده عامرة

أبدا بالغادين والرائحين وأبناء السبيل .

وكان إبراهيم يدعو كل من نزل بخيامه إلى الله . وكان التجار أكثر الناس فهما لرسالته فقد كفروا فى قرارة أنفسهم بآلهتهم المحليين الذين ما كانوا يرعونهم فى ترحالهم . إنهم كانوا أكثر الناس حاجة إلى إله يرعاهم فى سفرهم فى الفيافى والقفار والجبال ، وإله إبراهيم الذى يدعوهم إليه موجود فى كل مكان وهو أقرب إليهم من حبل الوريد . ولكن انشغالهم بجمع المال واحتكار التجارة ورفع الأسعار وخدع البسطاء وغش السلع وتطفيف الكيل والوزن ، كل أولئك صدهم عن ذلك الدين الذى يريد أن يحاسبهم على كل ما يفعلون فى الدنيا ويهددهم بالحساب بعد الموت يوم يبعثون . .

وكان آزر ينسل من خيام ابنه وهو يترقب إلى معبد الإله سين ، حيث يركع أمام مردوخ وإله القمر والآلهة الأخرى يردد الصلوات فى إيمان عميق والدموع تنهمر من عينيه . وكان يقدم الأضحيات فى الفجر والصبح والمساء لعل مردوخ يرضى عنه ويمحو الخراب الذى كتبه عليه فى لوح قدره .

وكان إذا سأله ابنه أين كان لا يجرؤ أن يقول له إنه كان يصلى فى معبد آلهته ؛ فإن إبراهيم كان يدعوه إلى دينه كلما جلسا معا . فكان يقول كنت فى السوق أتسلى بمشاهدة حلقات بيع العبيد ، وكثيرا ما كان يعود من الأسواق وقد اشترى بعض العبيد ليستر ما يفعله فى غفلة من المؤمنين . فما كان فى خيام إبراهيم من يعبد الأصنام غيره .

وجلس إبراهيم وآزر ذات ليلة يتحاوران بعد أن انصرف

الضيوف المكرمون ، قال إبراهيم :

— يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا .

يا أبت ما ظنك برب العالمين ؟

يا أبت كتب ربى على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ؟

يا أبت إن ربى عظيم ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

يا أبت سبح باسم ربك الأعلى .

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون .

وكان آزر ينظر إلى ابنه وهو مشدوه لا يدرى من علمه ذلك العلم ومن بث فى قلبه عداوته المريرة لآلهة قومه آلهة آبائه الأولين ، وانتشر فى صدره القلق ولم يشرح الله صدره للإيمان . واستمر إبراهيم يدعوه فى رقة إلى دينه إلى الإيمان برب السموات والأرض وما بينهما حتى قال آزر :

— آمنت لك يا إبراهيم .

فقال إبراهيم فى فرح :

— قل يا أبت أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم عبده ورسوله :

ولم يشأ آزر أن ينطق بالشهادة فقال له :

— ألم تقل لى يا إبراهيم فى أور سلام عليك سأستغفر لك ربى

إنه كان بى حفيا ؟

— نعم يا أبتاه !

— اذهب واستغفر لى ربك .

وقام إبراهيم إلى المحراب يصلى وهو فرح فقد كان إيمان آزر وإسلامه أحب شىء إلى نفسه ؛ وراح يدعو الله والدموع تفيض من عينيه :

— رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ؛ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ، واجعلنى من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبى إنه كان من الضالين ، ولا تخزنى يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم .

بدأ الضوء ينتشر فى الأفق الشرقى فدبت الحياة فى خيام إبراهيم ، وقامت سارة تتوضأ . وذهب إبراهيم يوقظ آزر ويهزه فى رفق ويدعوه للصلاة .

وفتح آزر عينيه ولما رأى ابنه قال له :

ــ إنى قائم .. استغفر لى ربك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى أبيه فى حب :

ــ لأستغفرن لك ولا أملك لك من الله من شىء .

وأسرع إبراهيم إلى حيث كان لوط وسارة والمؤمنين وراحوا جميعا يدعون الله فى عماية الصبح :

ــ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم .

وراحوا يصلون فى خشوع وقد غابوا عن كل ما حولهم : كانوا بين يدى الله يحاولون أن يتصلوا بروح الكون ، بذات الذوات : برب السموات والأرض . وانتهز آزر فرصة انشغالهم عنه بالصلاة فانسل من الخيام وهو يتلفت وانطلق إلى المدينة يسعى .

وقضيت الصلاة وراح الرجال والعبيد يرعون الماشية والغنم ، ثم ذهبوا إلى المعبد يجادلون الكهان ويدعون الناس إلى دينهم ، فقد أصبحت حاران مسرحا للصراع بين الدين الجديد ودين الآباء

والأجداد ، بين رجال أحرار أسلموا وجوههم لله رب العالمين ورجال يتاجرون بالدين ويرون فى زوال سلطان مردوخ ومين وشماش وعشتار والآلهة الأخرى زوالا لنفوذهم ، وانقطاع سيل الخيرات المتدفق إلى مخازن المعابد وضياع الكهنة من أراضى الأغنياء وجيوب السذج .

ودخل إبراهيم ومن معه الحرم المقدس فى معبد الإله سين إله القمر ، وكانت العاهرات المقدسات على جانبى الطريق ينظرن إلى إبراهيم ومن معه فى ضيق وتنطلق ألسنتهن بالهزء والسخرية . وانطلق المؤمنون فى طريقهم لا يحفلون بهن . وكانوا على يقين أن هذه الدعارة ستنقرض يوم تذهب أيام الآلهة الذين يتقرب إليهم عبادهم بالبغاء وتدنيس الجسد .

وانسابوا إلى المعبد وكان الكهان يطلقون البخور ويتلون صلواتهم ويقدمون القرابين للآلهة ، وكان المغنون والمغنيات يرتلون الأناشيد والموسيقيون يعزفون الألحان المقدسة . ولما دخل عليهم إبراهيم ومن معه خفتت الموسيقى وزاغت العيون ولاح فى وجوه الكهان غضب وخوف وضيق ، كان المؤمنون أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون .

وراح الكهان ورجال الدين يجمعون أنفسهم التى ذهبت شعاعا ويتأهبون للرد على ما يقول إبراهيم ، إنه جعل الآلهة إلها واحدا ونزهه عن صفات آلهتهم ، ورنت فى آذانهم أقواله : هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق

البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ونظر إبراهيم فإذا بأبيه آزر راكع أمام تمثال سين يؤدى صلاته والدموع تنهمر من عينيه . إن أباه لم ينس إلهه فلا يزال يعبد إله القمر بعد أن استغفر له ربه ، إنه ما استغفر له الله إلا بعد أن وعده بأنه سيسلم وجهه لله رب العالمين ؛ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه . وقد تبين له الآن أنه عدو لله يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، إنه لا يزال على كفره ينسل من الخيام ليعكف على عبادة أصنامه التى لا تملك له نفعا ولا ضرا .

وأغلق إبراهيم قلبه دون أبيه . إنه يحبه إلا أن حبه ربه أعظم من حبه أباه . إنه يحس مرارة لأنه صدق أباه فاستغفر له ربه وما كان أبوه يستحق الاستغفار بعد أن اشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . وكان يخفف عن إبرهيم أنه قال لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء .

واشتد الجدال بين الكهان والمؤمنين ، وضاق رجال الدين والمتعصبون لآلهتهم بحجج إبراهيم وسخرية من معه بأربابهم ، فأطلت البغضاء من عيونهم وبدت العداوة من صدورهم ، وأحس إبراهيم ومن معه أن الأمر قد يتطور إلى قتال بينهم وبين من فى المعبد فقالوا :

— إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده .

وعاد إبراهيم ومن معه إلى خيامهم ، ورأى أباه يرقد فى ظل

خيمة فتذكر إبراهيم ما كان يفعل كلما وقف فى المحراب مذ وعده أبوه بالإسلام ، كان يسأل ربه والدموع تفيض من عينيه أن يغفر له لأنه كان من الضالين .

كان من الضالين ؟ إنه ما يزال ضالا ، إنه ما يزال يركع لآلهته ، إنه لا يستحق الاستغفار . وذهب إبراهيم إلى محرابه يعتذر إلى الله عما كان منه وراح يدعو :

— يا رب إنى برىء من أبى .. برىء مما فعل أبى .: برىء من المشركين .

ورفع آزر عينيه وهو ممدد فى ظل خيمته فرأى إبراهيم يبتهل إلى ربه فامتلأ حزنا ، لقد نذره للمعبد يوم حملت به إمتالى ، ونذر لآلهته إن جاء ما فى بطن زوجه أنثى أن يلحقها « بالحاجوم » لتكون عازفة على القيثار للإله سين .

إنه يمتلئ أسى كلما وقعت عيناه على بنات الهوى بالمعبد ، فقد كانت غاية أمانيه أن يهب إحدى بناته للآلهة ، إلا أنه لم يرزق إلا ذكورا ؛ إبراهيم وناحور وهاران : ومما يزيد فى أساه أن إبراهيم كفر بآلهة آبائه الأولين وجعله هزوا بين قومه يسود وجهه كلما التقت عيناه بأعين الناس ، فما أقسى نظرات التحقير التى تصوب إليه وإن كان لا يزال قائما على دين قومه ؟

إنه يذهب إلى المعبد ليؤكد للملأ أنه ما يزال على دينه وأنه برىء مما جاء به إبراهيم ؛ ولكن ماذا يفيد ذهابه إلى الحرم المقدس؟ ماذا تفيد دموعه وصلواته وقرابينه إذا كان إبراهيم يأتى كل يوم إلى المعبد يقول للمصلين : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ...

ماذا تعبدون ؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟

وماذا تفيد صلاته ودموعه وقرابينه إذا كان إبراهيم يقف فى طريق القوافل يدعو الناس إلى إلهه الذى يزعم أنه واحد قهار ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وأنه رب العالمين !

مرض آزر ولزم خيمته وعجز عن أن يذهب إلى آلهته ، وراح يتلفت يبحث عن صديق ما يزال على دينه ليقرب عنه القرابين إلى مردوخ ويلتمس منه أن يطيل أيامه على الأرض ، إلا أنه لم يجد فيمن حوله من هو على دينه ، فقد جاء إبراهيم بما فرق بين الأب وبنيه وبين الزوج وزوجه وبين الصديق وصديقه . إن لوطا وسارة والعبيد والضعفاء آمنوا جميعا له . ولكن ابنه ناحور جاء إلى هاران واعتزلهم ، ليته يستطيع أن يبعث فى طلب ناحور .

واشتد بآزر المرض ودخل عليه إبراهيم يتوسل إليه أن يؤمن بالله قبل أن يلقى ربه ليفوز بجنات النعيم . كان إبراهيم يتمنى بكل جارحة من جوارحه أن يهتدى أبوه ، أن يموت على الإيمان ، أن يهديه الله الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم .

ولكن آزر وضع أصابعه فى أذنيه ورفض أن يصغى إلى ما يدعوه إليه ابنه ، إنه فى شك مريب من أنه سيبعث بعد أن يموت ، وأنه سيحاسب على ما اقترف من أعمال فى دنياه ، وأن من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ، ومن كفر بالله إله إبراهيم فمأواه جهنم وساءت مصيرا .

كان واثقا كل الثقة أنه إذا مات فسيذهب إلى العالم السفلى . إلى الأرض التى لا رجعة منها ، وأنه قد يلقى هناك أباه ناحور ،

وأن ذلك اللقاء — إن وقع — هو الذى يؤلم نفسه ويوجع قلبه ، فسيسخر منه أبوه لأن ابنه إبراهيم حطم تماثيل الآلهة وأغضب السادة البعول ، وأن سخرية ناحور ستكون أقسى على قلبه من سخريات أهل الأرض جميعا .

وراح آزر يلفظ أنفاسه بين يدى ابنه إبراهيم ووقف حولهما لوط وسارة والمؤمنون من الأحرار والعبيد ينظرون فى إشفاق ، كان إبراهيم حريصا على أن ينطق أبوه بالشهادة قبل أن يذهب إلى عالم الغيب والشهادة .. قال :

— يا أبت إن كنت تحب الله فاتبعنى يحببك الله ، يا أبت متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ، يا أبت إنى لا أملك لك من الله شيئا فاشهد أن لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، يا أبت إن هدى الله هو الهدى ، يا أبت آمن قبل أن يدركك الموت ليرحمك ربى ويدخلك جناته ، فالله كتب على نفسه الرحمة .

يا أبت أغير الله تبغى ربا وهو رب كل شىء ؟ يا أبت اشهد أن لا إله إلا الله يغفر لك ما قد سلف ، يا أبت قد جاءك الحق من ربك خالق كل شىء وهو الواحد القهار .

واضطربت أنفاس آزر ولم يبق له فى هذه الدنيا إلا لحظات ، إن هى إلا زفرة ثم يموت . وراح إبراهيم يحاول أن يزحزح أباه عن النار التى يصر على أن يتردى فيها ، قال والدموع تفيض من عينيه :

— يا أبت قل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين :

يا أبت قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وفاضت روح آزر وهو بين يدى إبراهيم فوضع رأسه على فراشه وهو حزين ، كان إبراهيم يحب أباه ويرجو أن يهديه إلى الرشاد .. أن يهديه صراطا سويا . وهل يملك إبراهيم أن يهدى من أضل الله ؟ إن إرادة الله فوق كل إرادة ، وإن إبراهيم لا يهدى من أحب ولكن الله يهدى من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم .

تقاطر الناس من القوافل القادمة إلى حاران على خيام إبراهيم . فكان إبراهيم وعبيده يقدمون لهم الطعام والشراب . ودارت الأحاديث عن البلاد التي وفدوا منها فراح كل منهم يروى عجائب ما شاهده في تلك البلاد . قال أحدهم :

ــ إني قادم من وادى النيل . من بلاد العجائب : الأهرام وأبي الهول والمسلات والمعابد . إن المسلات في وادى النيل شامخة كأبراج المعابد في بابل .

فقال آخر :

ــ ألها علاقة بالدين ؟

ــ إنها تخليد لعظمة الإنسان . أما آلهة المصريين فلهم معابد هائلة تفوق معابد مردوخ .

ــ ماذا يعبد المصريون ؟

ــ يعبدون آلهة كثيرة ، ويجتمع آلهتهم في مجمعهم كما يجتمع آلهة بابل في مجمعهم يتشاورون ويتخذون قراراتهم التي تصبح مشيئة سارية في الأرض أو في السماء .

ــ أيعبدون مردوخ ونانا وشماش وآلهتنا الأخرى ؟

ــ كلا : بل يعبدون رع إله الشمس وأزريس وآلهة أخرى كثيرة .

— أو يختلف رع عن شماش ؟

— إن آلهة المصريين يحلون فى الحيوان ، لذلك يقدس المصريون البقر والتمساح والصقر ، ويرمزون إلى رع بقرص الشمس بين جناحى الصقر .

— وأزريس ؟

— إنه إله العالم السفلى . . إله الموتى . كان أزريس كسائر الآلهة حاكما فى الأرض قبل أن يرفع إلى مملكته فى السماء . إنه هو الذى علم سكان مصر الزراعة والكتابة وحياكة الثياب والنظر فى النجوم والحساب ، وهو الذى سن لهم القوانين .

ونظر رجل إلى المتحدثين وقال :

— هذا شىء عجيب ، فقد نزلت فى أثناء مرورى بالحجاز بواد غير ذى زرع لأستريح ، فقابلت هناك رجلا عرفت أنه من الصابئة قال لى إنه كان فى ذلك الوادى بيت مقدس بناه إدريس للعبادة . وأن الطوفان أتى على ذلك البيت فيما أتى عليه . وسألته عمن يكون إدريس هذا فقال لى إنه أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من علم الناس الزراعة ، وأول من نظر فى علم النجوم والحساب ، وأنه جاء بالقوانين من السماء ، ثم رفع إلى السماء بعد أن مات .

وقال قائل :

— قد يكون أزريس هو إدريس هذا .

— إنها أساطير تنسجها خيالات الناس ويستغلها الكهان .

— لا يمكن أن ينسج شىء من لا شىء ، لا بد أن يكون لهذه

الأساطير أصل من الأصول .

ودنا إبراهيم من القوم وكان يطمع أن يؤمنوا بالله الواحد القهار خالق كل شيء ، فهم على علم ووسعت الرحلات مداركهم . ولا بد أن تكون مملكة الله التى ساحوا فيها قد فتحت أعين بصائرهم على وحدة الخالق فقال :

ــ إدريس كان صديقا نبيا أرسله الله لهداية الناس .

فنظر القوم إلى إبراهيم فى دهش وقال أحدهم :

ــ أى إله من الآلهة ؟

ــ الله لا إله إلا هو الحى القيوم .

ــ أجعلت الآلهة إلها واحدا ؟

ــ وما من إله إلا إله واحد .

ــ أينما ذهبنا وجدنا الناس يعبدون آلهة كثيرة : الكواكب والشمس والقمر والبقر والتمساح . فكيف تدعونا إلى إله واحد ؟

ــ من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟

ــ يقول المصريون إن رع إله الشمس إذا فتح عينيه يأتينا بالضياء ، وإذا أغمض عينيه يأتينا بالليل .

ــ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو سخر لكم الشمس والقمر والنجوم . الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت . يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟

ــ أنت رجل صالح يا إبراهيم ولكن مالك وهذا ؟

— إنى لكم رسول أمين .

فقال القادم من الحجاز :

— كإدريس ؟

— يا قوم اعبدو الله قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يا قوم لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

— ومتى هذا اليوم ؟

— يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم القيامة يوم يحكم الله بينكم ليجزى كل نفس ما كسبت . إن الله سريع الحساب .

فقال القادم من مصر :

— أيحاكمنا الله بعد الموت كما يحاكم أزريس الموتى على أعمالهم فى العالم السفلى ؟ ألله ميزان كميزان أزريس يزن به أعمال البشر ؟

وقال القادم من الحجاز :

— هل دعا إدريس قومه إلى عبادة الله وحدثهم عن يوم القيامة ؟ هل قال لهم إن الله سيحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا ؟

— فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون : فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون .

إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم .

يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم .

إن الله لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين .

وقال القادم من الحجاز :

— آمنت بالله رب العالمين ، آمنت برب إدريس ورب إبراهيم .

فقال القادم من مصر :

— أتؤمن كما آمن السفهاء ؟ أتصدق أن الناس يبعثون بعد أن يكونوا عظاما ؟ إن ما يقوله هذا قاله الكهنة المصريون من قبل ، فأزريس يقيم الموازين للناس ، وإله إبراهيم يقيم الموازين للناس .

فقال القادم من الحجاز :

— إن ما جاء به الرسل من ربهم هو الحق ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم ونسجوا حول ذلك الحق الأساطير ، وما عقيدة أزريس إلا ما تبقى من دعوة إدريس : البعث وخلود الروح .

وقال القادم من مصر :

— إني لا أصدق أن الله يبعث بشرا رسولا . يأكل الطعام ويمشي في الأسواق .

— إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد .

فقام القادم من مصر وهو يقول :

— إني كفرت بما تدعو إليه يا إبراهيم .

وقال القادم من الحجاز :

— وإني أسلمت وجهي لله رب العالمين .

وقام من آمن إلى إبراهيم وقال له :

— إني ما تناولت طعاما إلا بثمن .

فقال إبراهيم وأشرق وجهه بابتسامة رقيقة :

— ثمنه أن تذكر اسم الله على أوله وأن تحمد الله فى آخره :

فقال الرجل :

— الحمد لله رب العالمين .

وانتشر الناس فى الأرض وراح الرجال والعبيد والنساء يرعون الأنعام والأغنام ويجلبون الماء من بئر حاران . وانتهى إبراهيم من عمله ، فلما جن الليل وقضيت الصلاة أوقد النار ليدعو الناس وأبناء السبيل إلى طعامه .

وكانت الليلة حالكة الظلام ولم يكن فى السماء نجم يتلألأ ؛ وكانت الريح تصفر والبرد شديدا حتى إن إبراهيم جلس أمام باب خيمته ينظر ويخشى أن يمر الليل دون أن يفد إليه ضيف يكرم وفادته .

ولمح فى الظلام شيخا يتقدم ويتوكأ على عصا فهرع إليه يستقبله ويقوده إلى خيمته . كان الشيخ مسنا حنت الأيام ظهره وخلفت السنون فى صفحة وجهه أخاديد تنم عن أنه جاوز التسعين .

وبلغا الخيمة وعاون إبراهيم الرجل على أن يجلس ويستريح ، ثم ذهب وعاد ومعه ماء ليغسل الرجل وجهه ويديه ورجليه من وعثاء الطريق . وجاءت سارة بطعام وفير وضعته أمامهما وراحت تخدمهما بنفسها إكراما للشيخ المكدود .

ومد الشيخ يده إلى الطعام دون أن ينبس بكلمة فقال له إبراهيم :

— هلا ذكرت عليه اسم الله ؟

فنظر الشيخ إلى إبراهيم فى دهش وقال :

— أسم الله ؟

فقال إبراهيم :

— قل بسم الله قبل أن تأكل .

— الله ؟ ومن هو الله ؟

— ربي وربك ورب السموات والأرض وما بينهما .

— ليس لى رب اسمه الله .

— وما تعبد ؟

— أعبد النار .

— ولماذا لا تعبد الله رب السموات والأرض ؟

— لأنى لا أعرف إلها غير النار :

— أتعبد إلها يطفئه الماء ؟ إن الماء أولى بعبادتك من النار .

— لا ، إن الماء لا يحرقنى ولكن النار تحرقنى . إنى أعبد من يقدر على إحراقى .. على تعذيبى .

— إن الله قادر على أن يحرقك بالنار .

ومد الشيخ يده إلى النار التى تتراقص أمام الخيمة فأحس حرارتها فقال :

— إنى أستطيع أن ألمس حر هذه النار . أما الله الذى تدعونى إليه فإنى لا أستطيع أن ألمس ناره :

ومد يده خارج الخيمة فإذا الهواء بارد فقال :

— لا : لا أستطيع أن أومن بنار لا أحس حرها :

ثم التفت إلى إبراهيم وقال :

— إلهى تتأجج روحه أمام عينى . أما إلهك فإنى لا أراه ،

إنى لا أومن إلا بما أراه وأحسه .

قم يا سيدى لتسجد معى لإلهى .

وقام الشيخ وسجد للنار فثار إبراهيم وقال :

— لا يسجد فى خيمتى إلا لله .. اخرج .. اخرج .

وقام الشيخ وخرج وسار حتى أطبق عليه الظلام ، وأطرق إبراهيم وأحس أنه يوحى إليه وإذا بالوحى يتضح فى صدره :

— ماذا فعلت بالضيف يا إبراهيم ؟

— طردته لأنه أبى أن يذكر اسم الله على الطعام وأبى أن يؤمن بالله ، وراح يدعونى أن أسجد معه للنار .

— حمله ربك يا إبراهيم مائة سنة وهو يعبد النار من دونه ويأبى أن يحمده أو يسبح له أو يذكره بخير ، وأنت لم تحتمله ساعة وما ضرك بشىء ولا أساء إليك !

وقام إبراهيم وقلبه يخفق من خشية الله ، وانطلق يعدو فى أثر الشيخ ينقب عنه فى ظلمة الليل وما سأل أحدا من رجاله أو عبيده أن يبحث معه عنه . إنه هو الذى طرده وهو الذى ينبغى أن يعثر عليه .

وبات إبراهيم هائما على وجهه يخشى ألا يعثر على الرجل ويظل عتاب ربه قائما ، إنه يريد أن يصلح ما كان منه فى حق الشيخ ليستريح ضميره .

ووجد الشيخ يتوكأ على عصاه فى فحمة الليل والرياح تصفر ، فهرع إليه وعاد به إلى خيمته ليكرمه ويبالغ فى إكرامه مرضاة لله .

دبت الحياة فى خيام إبراهيم وكانت سارة فى خيمتها تشرف على شئون القبيلة ؛ فقد كانت الأميرة الجميلة التى تعد طعام الضيف وطعام الرجال والعبيد . وكان لوط لا يفارق إبراهيم يصغى إليه وهو يصلى فى المحراب لرب العالمين فيمتلىء قلبه بالنقاء وتثرى نفسه بكنوز الحكمة وتشرق روحه .

وراح العبيد يغسلون الملابس برماد القصب ، ويجمعون عسل النحل من الشجر ، ويسقون المواشى والغنم ، وما كان إبراهيم يكلفهم بعمل إلا ويده مع أيديهم ، بل ويده أسبق إلى العمل من أيديهم .

وكان مضرب خيام إبراهيم قبلة الفقراء والعبيد والمستضعفين وأولئك الذين يرجون حياة أفضل من حياة قومهم ، وأرحب من الحياة الحبيسة فى سجن النفس وسجون المعابد بأبراجها العالية وجدرانها السميكة ، المعابد التى لا سلطان لها إلا أن تجلب الخراب أو تطيل أيام الناس على الأرض .

وكان إبراهيم يبشر الناس بحياة أفضل بعد الموت ، بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وما كان يقول لهم ما يقوله الكهان من أن الحياة تنتهى بالموت ، وأن الميت يذهب إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها ، بل كان يحدثهم عن الحياة الثانية ،

حياة الخلود ، الحياة التي ينبغي أن يعمل الإنسان لها ليفوز بما أعده الله للمتقين .

راح إبراهيم يدعو إلى إله واحد رحيم غفور ، إله يدرك كل شيء ولا تدركه العيون ، إله فوق الكواكب والقمر والشمس ، مشيئته فوق كل مشيئة إن أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون .

وكان ما يمس قلوب الفقراء والعبيد والمساكين والمستضعفين في الأرض أن رب إبراهيم لا يفرق بين السادة الأحرار والفقراء والعبيد ، فلا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى . لا فضل لعاميلو على مسكينو ولا فضل لمسكينو على عاميلو إلا بما في قلبه من نور . وقد يتكئ الفقير والعبد على الأرائك في جنة النعيم ، بينما يلقى السادة الأحرار ورجال الدين في الجحيم . كل بما كسبت يمينه ، كل بما قدم في دنياه من عمل . لا فضل لطبقة على طبقة ولا لجنس على جنس ولا لشعب على شعب .

وقامت في حاران قوتان : قوة لاذت بالمعابد تدق الطبول وتنفخ في الأبواق وتعبث بأوتار القيثار والعود وتلعب بالدفوف ، وتحرق البخور وتذبح القرابين في المذابح لتتقي غضب الآلهة وتطيل في أعمار الناس ؛ وقوة أسلمت وجهها لله ، الكون كله معبدها والأرض لها مسجد ، ربها رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو رحمن رحيم يتقرب إليه بالحسنات ، ليست له مذابح بل تنحر له الذبائح ابتغاء مرضاته ، لا يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى من عباده .

ونشبت الحرب بين القوتين : بين القوة التي لا هم لها إلا

الإبقاء على الجسد وإطالة أيامه السعيدة على الأرض ، والقوة التى أخذت تشحذ الروح لتسعد صاحبها فى الدارين ؛ دار الفناء ودار البقاء :

كانت دعوة إبراهيم بيضاء ناصعة يبهر سنا نورها نور الشمس والقمر ، بيد أنها تسلب أصحاب السلطان فى البلاد نفوذهم : إنها تسوى بين السادة والعبيد أمام الله ، وتقضى على كهنة مردوخ وسين وشماش والآلهة الأخرى ، فيستطيع المؤمن أن يخاطب إله إبراهيم دون وساطة الكهان ورجال الدين وأن يتقرب إليه دون مراسيم الكهنة والسحرة والعرافين ، فهو قريب من عباده ، أقرب إليهم من حبل الوريد ! إنها دعوة صادقة ولكن ألقيت فى طريقها العواثير ؛ فقد قاومها أصحاب النفوذ مقاومة لا هوادة فيها :

أحس رجال الدين الخطر يحلق فوق رءوسهم ، ويهدد بانقطاع أمواج الأنعام التى تتوافد على معابدهم ، وشواقل الفضة التى تتدفق فى خزائنهم ، وأحمال القمح والشعير والبلح التى تغص بها مخازنهم ، وخدمات السذج الذين يعتقدون أن خدمة رجال الدين تجلب بركات الآلهة وتمنع نقمتهم .

وغضب رجال الدولة لرجال الدين فسلطانهم واحد ، والمنافع بينهم مشتركة ، وإن بزوغ شمس الدعوة الجديدة يغيض نفوذهم ، فتحالف رجال الدين ورجال الدولة على مقاومة هذا الخطر الداهم الذى انقاد له المستضعفون والفقراء والعبيد .

وغضبت فتيات المعبد لغضب رجال الدين ولما نال عشتار من تسفيه ، فرب إبراهيم يحرم أن تضحى امرأة بجسدها فى سبيل إرضاء الآلهة ، ويقاوم هذه التضحية ويعتبرها مهانة للبشرية وحط

من قدرها حتى يلحقها بالزنا !

الزنا ! إنه يعتبر فى بابل فاحشة ، فيربط الزانى والزانية بالحبال معا ويلقى بهما فى الماء ، هذا إذا ضبطت الزوجة متلبسة بالزنا . أما العاهرات المقدسات .. فتيات الهوى .. عاهرات المعبد فانهن إنما يتقربن إلى الآلهة بأجسادهن قبل الزواج ، إنهن إنما يقبلن تلك المهانة مرضاة للآلهة .. مرضاة لعشتار العطوف لا لإشباع شهوة أو جلب لذة .

ولقد أهان إبراهيم ورب إبراهيم فتيات المعابد فكانت عداوتهن للدعوة الجديدة مريرة ، عداوة من طعن فى دينه وكرامته ، وحط من شأن تضحياته المقدسة حتى ألصقت بالفواحش والمنكرات .

وراحت العاهرات المقدسات وهن أشد الناس عداوة لإبراهيم ومن اتبعه من المؤمنين يقاومن الدعوة الجديدة وينفثن كراهيتها فى صدور الوافدين إليهن من حاران والبلاد البعيدة .

كما غضب لرجال الدين كذلك أولئك الذين عاشوا عبيدا لمعتقدات آبائهم ، الذين إذا دعوا إلى النجاة .. إلى الهدى كانت قلوبهم فى أكنة مما يدعون إليه ، أولئك الذين يقولون : وجدنا آباءنا على هذا .

واجتمع رجال الدين من الكهنة والكاهنات والعاهرات المقدسات ، ورجال الدولة من الحكام ورجال القصر والموظفين الذين يقتسمون مع الكهنة خيرات المعابد ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون :

— ماذا أنتم فاعلون بإبراهيم ؟!

ولم يقل قائل منهم :

— انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

كانوا يعرفون جميعا أنهم إنما يدافعون عن كيانهم .. عن وجودهم ، وأن غضبتهم إنما هى لأنفسهم ، فلم يستشيروا الآلهة فيما يفعلون ولم يقربوا إليها القرابين . ولم يمسحوا حوائط المعبد بلحوم الضحايا ولم يطلقوا البخور . راحوا يديرون قداح الرأى بينهم .

قال قائل منهم :

— أخرجوه من دياركم .

— لئن أخرجناه اليوم إنه يعود إلينا بعد أن يشتد ساعده ويقضى علينا . فقد فتن سواد الناس والعبيد .

— فماذا ترون ؟

وصاح صائح منهم :

— اقتلوه يخل لكم وجه الناس .

— وإن ثار من آمنوا به ؟

— نقضى عليهم جميعا ونستريح منهم .

— هذا هو الرأى : لا خير فى أن يقتل إبراهيم ويبقى لوط فقد أفسده .

— لنقتلن لوطا فهو يقول إن إبراهيم هداه السبيل .

— لنقتلن إبراهيم ولوطا وكل من آمن لإبراهيم .

وذهب إبراهيم إلى المعبد يدعو القوم إلى رب العالمين ويصدهم عن عبادة مردوخ الغارق فى البله والوجوم الذى لا يفقه شيئا وإن

أطالوا أذنيه ليرمزوا إلى حكمته ، وعن عبادة سين الجالس على عرشه يحمل الفأس وسلسلة القياس وإن كان لا يعقل كيف ينبت الحب وينمو الزرع وينضج الثمار ، ولا يعرف كيف تمسح الأرض وتقاس الأبعاد .

فثار الكهنة وراحوا يقولون للملأ الذين التفوا حوله يستمعون إليه : لتثأرن الآلهة منكم ، ولتغرقنكم بالطوفان إن استمعتم إلى هذا الكافر بآلهتكم الذى اتخذهم هزوا ، فروا بأنفسكم قبل أن يحل عليكم العذاب .

وصدق الناس ما قاله الكهان وانفضوا من حوله وتركوه قائما وحده يتلفت فى أسى ؛ إنه يرجو لقومه الهداية بيد أنهم يفرون منه ويعرضون عن دعوته .

وانصرف إبراهيم وهو مطرق الرأس فقد انقضت سنون طوال وهو يدعو الناس إلى الإيمان بالرحمن ؛ ولم يؤمن بما جاء به إلا قليل من المستضعفين والعبيد . إنه لم يقصر فى دعوته فقد دعا قوافل التجار إلى الله الذى يرعاهم فى الفيافى والقفار ، إلى الله الذى لا إله إلا هو الرزاق الوهاب القريب من عباده من يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ودعا قومه إلى مغفرة ورحمة من ربهم ، دعاهم إلى ما يحييهم ، إلى ما فيه خير الدنيا وخير الآخرة ، ولكنه كلما دعاهم ليغفر لهم ربهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم .

وراح الكهان ورجال الدولة يدعون عبيدهم والمؤمنين بآلهتهم إلى عمل فيه رضا الأرباب ؛ إلى عمل تتهلل له الآلهة فرحا ، إلى عمل يرفع مقت الآلهة وغضبها عن حاران وأهل حاران ،

هذا العمل المبارك هو قتل إبراهيم ومن معه من السفهاء .

وأعد كل شيء ، واتفق على أن يشن الهجوم على خيام إبراهيم فى عماية الصبح فيقتل الرجال وتسبى النساء وتساق الأنعام والأغنام غنيمة باردة للأرباب !

وأوحى إلى إبراهيم أن اخرج . أن أسر بأهلك ليلا . فأذن إبراهيم بالتأهب للرحيل . أمره الله فكان عليه أن يطيع . لقد غادر أور من قبل وترك فيها أمه إمتالى وها هو ذا يغادر حاران ويترك فيها أباه آزر . إنه يترك أرض بابل كلها إلى حيث أمره الله . يترك قومه وعشيرته وأرض الذكريات إلى ملك الله . يترك أخاه ناحور وأصدقاء له كانت بينه وبينهم مودة وإن لم يؤمنوا بما جاء به . إلى أقوام لا يدرى ما يكون بينه وبينهم أمودة أم عداوة ؟

أمره الله أن يهاجر . أمره من أسلم له وجهه أن يخرج بأهله فراح ينفذ أمر الله . إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم .

وجن الليل فركب النسوة رواحلهن وركبت سارة راحلتها . وانطلق الركب ومن حوله الأنعام والأغنام والرجال والعبيد . وسار إبراهيم منشرح الصدر فقد جعل الله له نورا يمشى به وإن كان الليل حالك الظلام .

خرج إبراهيم من حاران . وانطلقت القافلة وهى تحس أن الكون كله يرعاها ويحنو عليها . ولا جرم فهى أول قافلة تحمل أول فوج من المؤمنين يهاجرون فى سبيل الله .

وفى عماية الصبح أقبل الكاهن الأعظم لمعبد الإله سين ومعه

العبيد ومن خدعهم من عباد الأرباب ، تخفى صدورهم العداوة والبغضاء ، جاءوا إلى خيام إبراهيم ليقتلوه ومن آمن له تقربا إلى مردوخ وسين وشماش وعشتار والآلهة الكثيرة المنتشرة فى أرض الآباء والأجداد .

ونظر الكاهن الأعظم إلى حيث كانت خيام إبراهيم فلم يجد إلا آثار القوم ، فجعل الله صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .

ودوت فى الفضاء صيحات الغيظ والحنق والضيق ، وقال الكاهن :

— ألم أقل لكم إنه ساحر فلم تصدقونى ؟ ها هو ذا قد هرب منكم بسحره ، لو استمعتم إلى نصحى لنصرتم آلهتكم ولقتلتموه فى المعبد ولحرقتموه قربانا للآلهة . إنى أخشى أن تعذبنا الآلهة بالطوفان ما لم نخرج فى طلبه .

فقال قائل منهم :

— إن آلهتنا قادرة على أن تكتب عليه الخراب فلندعه لعذابها .

وخشى الكاهن أن يمعن فى تحريض القوم على الخروج فى أثر إبراهيم فيقول قائل منهم مثلما كان يقول إبراهيم : إن كان للآلهة مشيئة حقا فلتثأر لنفسها ممن أهانها .

وعاد الكاهن ومن جاءوا معه لقتل إبراهيم والمؤمنين مطأطئى رءوسهم ، يفكرون فيمن أفضى بسرهم إلى إبراهيم ، ويقنعون أنفسهم بأن إبراهيم عرف بسحره ما بيتوه بليل ، ولم يدر بخلدهم أن رب إبراهيم نجاه ولوطا إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

انطلقت القافلة فى ملك الله تتهادى على طريق طالما قطعته قوافل المهاجرين والتجار منذ فجر التاريخ . إلا أن هذه القافلة كانت تتميز عن كل القوافل التى طرقت هذه السبيل بأنها أول قافلة مؤمنة تهاجر فى سبيل الله .

لكم أشرقت الشمس على القوافل الضاربة فى تلك البيداء مذ خرجت من أرض بابل إلى أرض الشام وكم غربت عنها . وكم تألقت فى سماء الليل النجوم والكواكب والأقمار ؛ إلا أن جلال الشروق وروعة الغروب وتلألؤ النجوم فى السماء كان ذا أثر متفرد فى أرواح رجال القافلة ونسائها وعبيدها . فقد كان جلال الشروق تسبيحا لله العظيم ، وروعة الغروب ابتهالات وتجليات ؛ وتلألؤ النجوم فى سواد الليل كإشراق النور الإلهى فى ظلمة النفوس ، وبزوغ القمر كبزوغ الإيمان فى الذوات المؤمنة التى أسلمت وجهها لله .

كانت النفوس آمنة مطمئنة ، فالقافلة تسير فى أرض الله بأمر الله . هو الذى أمر بالخروج وهو الذى يأمر بالنزول حيث يشاء . وكانت الأعين تتقلب فى خلق الله فتنشرح الصدور وتتهلل القلوب بالفرح . وتتصل الأرواح بروح الكون ، وتغمرها بتجليات الإله الواحد بديع السموات والأرض .

وكانت المراعى كبساط سندسى أخضر تخفق بالحياة وتنطق بقدرة الله ، النوار الأصفر ينمو فى وسط البساط الأخضر وعلى حواشيه فى روعة تملأ النفوس ، واللوحات الفنية تتشكل أشكالا مختلفة وتتعاقب على صفحة السماء وفى الأفق البعيد فتبده العقول وتحرك النفوس والأرواح وتطلق الألسنة بتسبيح الخالق المبدع المصور .

كانت قافلة الإيمان ترى الله فى كل ما تمد إليه أبصارها ، فى الشجر والزرع والزهور والطير .. فى الجبال والصحراء والرمال .. فى الشمس والقمر والنجوم .. فى رائعة النهار وفحمة الليل .. وكانت النفوس تحس الله فى أعماقها وأنه نور البصائر والأبصار .

وانقضى يومان والقافلة تسير فى المراعى والحقول بين وادى الفرات والأقاليم الجبلية المخصبة . وأشرف إبراهيم ومن معه على نهر الفرات وتأهبوا لعبوره . ولم يكن إبراهيم أول من يعبر الفرات لينساب فى أرض الشام فقد عبره قبله آلاف الرجال من التجار والمهاجرين والجنود الرحل أطلق عليهم قومه « العبريين » ، ولكن عبوره الفرات كان يختلف عن عبور من سبقوه ، إنه حدث عظيم يقف عنده التاريخ : إن عبوره لهو عبور الإيمان فرارا من الكفر ، عبور التوحيد فرارا من الوثنية الطاغية ، ليمكن لدين الله فى أرض مباركة يبزغ منها نور الله ليغمر العالمين .

راح إبراهيم ومن معه من الرجال والنساء والعبيد والأنعام والأغنام يعبرون الفرات عند مخاضة كانت معبرا للعابرين ، وخلفوا وراءهم العراق وانسابوا فى بادية الشام ؛ ولم تنقبض

نفوسهم لمغادرة الوطن ولم تمتلئ أعينهم بالدموع حسرة على الأهل والأصدقاء ، فقد كانوا يعلمون أن الله جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم .

سار إبراهيم ومن معه فى أرض الشام وكانوا إذا نزلوا لا يجدون صعوبة فى الحديث مع أهلها ، فإن اللغة السائدة بين الأقوام الذين كانوا يعيشون من اليمن جنوبا إلى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء شمالا كانت لغة واحدة ، وما كان الاختلاف بينها إلا من قبيل اختلاف اللهجات .

كان ميلاد هذه الشعوب السامية فى شبه جزيرة العرب ، فهاجر منها بعض القبائل العربية إلى بلاد الهلال الخصيب بين وادى الفرات والبحر الأبيض . وهاجرت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة إلى الحبشة بإفريقية .

وكانت اليمن هى مصدر العربية الأول ، وقد انتشرت القبائل السامية ولغتها العربية من أقصى الجنوب فى شبه الجزيرة إلى أقصى الشمال فى العراق ، وكانت لغة أهل بابل الآرامية — العربية الشمالية — وكان إبراهيم من الساميين عرب اليمن الذين نزلوا بابل ، فكان يتحدث بالآرامية — العربية الشمالية — فلم يجد صعوبة فى أن يتحدث إلى أهل الشام ، والله يقول : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم » .

تعاقب الليل والنهار وإبراهيم ومن معه يسيرون فى الكون العريض ؛ زفيف الهواء فى آذانهم أشجى من ترديد الناى فى المعبد ،

وعسعسة الليل وتنفس الصبح ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ؛ والجبال جدد بيض وحمر وغرابيب سود ، والناس والدواب والأنعام . كل أولئك ينزل بقلوبهم خشية وفرحا فياضا يفوقان كل فرح تبعثه أحر الصلوات فى النفوس .

ونزلت القافلة تستريح ، فجاء الرجال والنساء والأطفال من كل مكان ينظرون . فأمر إبراهيم أن تحلب الأبقار وأن يوزع اللبن على أهل المنطقة الذين أقبلوا على أهل القافلة يموج بعضهم فى بعض .

ورأى إبراهيم أطفال القوم يلعبون مع أطفال المؤمنين . فقد أنجب الذين خرجوا معه من أور ومن آمنوا به فى حاران والعبيد ، أنجبوا ذرية . أما هو وسارة فلم يرزقهما الله أولادا . إنه فى شوق أن تكون له ذرية مؤمنة . ذرية تحمل رسالة رب العالمين وتهدى الناس إلى الصراط المستقيم .

وجاء أهل المنطقة ببضائعهم وكانوا يمنون النفس بالبيع والشراء وجنى الأرباح . بيد أن آمالهم سرعان ما خابت فقد وجدوا أناسا زاهدين فى الدنيا لا يدير رءوسهم الدمقس والحرير ، ولا يسيل لعابهم الذهب والفضة ، ولا يملون أعينهم إلى ما فى أيدى الناس ، فقد كانت تجارتهم مع السماء ينفقون عن سعة إنفاق من لا يخشى الفقر ، ويجودون بكل ما عندهم ويتصدقون بما يملكون ويرجون الثواب من الله .

وكان إبراهيم يجوس خلال القافلة مشرق الوجه تترقرق السماحة فى محياه ، وكان يأسر القلوب بحلمه وحكمته ويخلب

الألباب بفصاحته ، وكان حديثه عن الله الواحد الأحد الفرد الصمد يزخر بالإيمان العميق فيؤثر فى القوم فينظرون إليه مدهوشين .

وكان يقول لمن ألقوا إليه سمعهم : والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشت وجوههم قطعا من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

وكان إبراهيم يقوم إلى الصلاة ويصطف من معه خلفه ، فيبدون كملائكة أبرار هبطوا من السماء ليملئوا الأرض نقاء وتسبيحا وحمدا لله رب العالمين .

وهزت دعوة إبراهيم من شرح الله قلوبهم للإيمان من أهل المنطقة فهرعوا إليه يشهدون أن لا إله إلا الله . وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وكانت سارة تعد الطعام فى خيمتها من لبن وعدس وبر ، وتأمر بذبح العجول للضيف ، فما كانت خيام إبراهيم تخلو من الوافدين على الرجل المبارك الذى سرعان ما ذاع نبأ كرمه فى المنطقة .

وكان إبراهيم يشرف بنفسه على حلب البقر والغنم وكان فى بعض الأحيان يحلبها بيديه ، وكان يتهلل بالفرح كلما رأى الناس يعودون إلى دورهم أو خيامهم يحملون ما أصابوا من حليب .

هو من مال الله .

وبقى إبراهيم ما شاء الله له أن يبقى ، ثم شد الرحال إلى حيث يوجهه الله ؛ فسار معه من آمنوا بالله من أهل المنطقة تاركين وراءهم آلهم وأوطانهم ليسيحوا فى الأرض ابتغاء وجه الله .

انطلق إبراهيم ولم ينس له أهل المنطقة فضله ، إذ أطلقوا على المكان الذى نزل به « حلب » تخليدا للحليب الذى دخل دورهم من أنعام الرجل المبارك ، الرجل الذى غمرهم بفضله وكرمه ولم يأخذ ثمن ما أعطاهم ، بل كان يقول إنما رزقى على الله .

وانساب إبراهيم ومن معه فى معبد الله ، يرون آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم فيتذكرون ويعقلون ويهتدون ويتقون ويشكرون وكلما ساروا فى الأرض ورأوا ثَمَّ رأوا عظمة الله ، فزادهم ذلك إيمانا وتسليما .

وأشرفت عليهم جبال لبنان تكسوها الخضرة وتزين سفوحها أشجار الأرز والثمرات مختلفة الألوان ، ويكلل هاماتها الثلج الناصع البياض ؛ وتتخللها المسالك كالشرايين تحمل الحياة إلى أرجائها ، ويتدفق الماء من الصخور وينحدر على الجبال له خرير أعذب من أروع الألحان ، موسيقا الله تتناغم مع الكون فتعزف لحنا سماويا ساحرا أبدا ، ينفث فى صدور البشر الحنان والأمن والفرح الفياض .

ونظر إبراهيم ومن معه إلى جبال لبنان وقد غشيتهم رهبة وامتلأت نفوسهم روعة ؛ وهامت أرواحهم لتتحد مع روح الكون وتنتشى بتجليات الله . وفاضت جوانحهم بما امتلأ من صفاء وجلال ونشوة وإيمان فراحت ألسنتهم تسبح لله ، وامتزج تسبيح

المؤمنين وتسبيح السموات والأرض والجبال .. إن الوجود كله ليؤدى صلاة حارة تلهج بالشكر لله .

وراحت القافلة ترقى فى مسالك الجبل فنعم أهلها بالطيبات ، وملئوا سقاتهم من الماء البارد المتدفق من الجبال ، وسعدت الدواب والأنعام بطيب المرعى . ولم تزل القافلة تسرى فى مسالك الجبال وتدور معها كلما دارت ، ثم أخذت تنحدر معها لتنساب فى البادية متجهة إلى دمشق ، إلى الجنة الفيحاء .

بلغ إبراهيم ومن معه أرباض دمشق ولاحت لأعينهم المدينة الجميلة التى تهفو إليها قلوب الناس . ولكن إبراهيم والمؤمنين لم يستخفهم الفرح لأنهم عما قليل سيتفيئون ظلالها ويبترَدون بمائها ، فإن مباهج الأرض كلها لا قيمة لها عندهم ، إنهم إنما ينظرون إلى السماء . إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. جنة عرضها السموات والأرض تجرى من تحتها الأنهار ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أعدت للمتقين خالدين فيها أبدا .

وبلغت القافلة أبواب دمشق وكان على رأسها إبراهيم وعن يمينه لوط وحوله الرجال ووراءهم هوادج النساء والماشية ، وكانت الثيران والأبقار والكباش والنعاج والجديان والمعز كثيرة لا يكاد يحصيها العد ، وكان العبيد الأشداء ينتشرون حول القافلة الهائلة يحرسونها وفى أيديهم الهراوات والرماح .

وكان على القافلة مهابة وجلال حتى إن الأبصار اتجهت إليها ، إنها قبيلة قوية لا تقل فى شوكتها عن القبائل التى كثيرا ما جاءت

للرعى ثم وثبت على الملك وانتزعته من حكام البلاد .

وهرع الناس إلى القافلة يسألون من أين هذه القبيلة ؟ وإلى أين هى متجهة ؟ وكان الجواب عجيبا زاد فى دهشة الناس : إنها قبيلة سامية جاءت من أرض بابل . وما أكثر القبائل السامية التى جاءت من تلك البلاد أو من الجزيرة العربية لترعى ثم شنت الغارة وانتزعت الملك ممن بيدهم الحكم . ولكن هذه القبيلة لم تجئ كما جاءت تلك القبائل للتجارة ، وإنما جاءت بأمر الله لتدعو إلى دين الله ، ولا تدرى أيان تسير وأنى ينتهى بها المطاف . فهى تسير بأمر الله يوجهها حيث يشاء !

وحطت القافلة رحالها فى برزة شمال دمشق ، وقام رجالها ونساؤها وولدانها يصلون لله ، واجتمع الناس ينظرون إليهم . إنهم لا يصلون لصنم أو وثن أو تمثال وإن صلاتهم لتختلف عن الصلوات التى ألفوها . ولاح فى وجوه الناس العجب وحب الاستطلاع .

وقضيت الصلاة وهرع الناس إلى رجال القبيلة يسألون عن الإله الذين يقدمون إليه صلواتهم . فقالوا لهم إنه هو الله رب السموات والأرض وما بينهما . الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره . وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار .

وراح إبراهيم يتحدث إليهم عن الله العزيز الحكيم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، حديثا عامرا بالإيمان والحكمة ينفذ إلى القلوب . وكان بين القوم إليعازر الدمشقى وكان يصغى إلى دعوة إبراهيم بقلب متفتح وصدر منشرح ؛ وقد أحس أن شيئا قويا يشده إلى ذلك الرجل المهيب .

كان إليعازر الدمشقى يرى إبراهيم لأول مرة . وكان يصغى إلى ما يدعو إليه لأول مرة ، بيد أنه أحس انجذابا إليه ورغبة عارمة فى أن ينطلق إليه ويعلن إيمانه بالله الذى يدعو إليه ، وإيمانه بالرسالة التى جاء بها ، فقد أحس أنه يوحى إليه أن يؤمن بالله وبرسوله .

وما انتهى إبراهيم من حديثه حتى هرع إليه إليعازر والدموع تجرى على خديه وقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله . وأن إبراهيم عبده ورسوله .

أشرف إبراهيم ولوط ومن معهما من الرجال والنساء والعبيد على دمشق ، وكان سكان المنطقة من أجناس متباينة ، إلا أن الآموريين وهم مثلهم من الساميين كانوا هم الغالبية ، وكانوا يتحدثون الآرامية مثلهم فكان التفاهم بينهم ميسورا . رأى إبراهيم ومن معه من المؤمنين نهر بردى يروى أراضى الغوطة والمروج الخضر إلى مدى البصر ، والثمرات وفيرة من أعناب وزيتون وتين وقمح وشعير وبصل وثوم وحمص وفول ، ولم تثر هذه الخيرات انتباههم ، فلو كانت أطماعهم تنحصر فى هذه الخيرات والتمتع بها مثل بدو الجزيرة العربية أو بدو صحراء العراق أو بدو الصحراء السورية ، لما خرجوا من أور ، فقد كانت أور كثيرة الخيرات كالجنة الفيحاء .

إنهم إنما خرجوا لله ، لا يريدون علوا فى الأرض ولكن يريدون أن يعلو اسم الله ، أن يكون الأمر كله لله الواحد القهار ، أن تسود مملكة السماء .

واتجهوا قاصدين المعبد ، وكانت الأسواق تغص بالسلع والطرقات تموج بالناس : الرجال فى ملابس زاهية ، والنساء يرتدين ثيابا تغطى إحدى الكتفين وتترك الأخرى عارية وينتعلن أحذية حمراء . وكان الجمال والبهجة والإغراء تنبعث من كل

جانب ، ولكن إبراهيم ومن معه ساروا لا يلتفتون ، فقد انقطعت الأواصر بينهم وبين اللهو والتجارة واتصلت الأسباب بينهم وبين السماء .

وأقبل رجل قوى مفتول العضلات يحمل جعبة من السهام . أقبل على رجل من أتباع إبراهيم وقال له :

— إنى أتحداك .

ولم يفهم الرجل سببا لذلك التحدى فلم يكن بينهما عداء وما تقابلا قبل اليوم ، وقال الرجل المفتول العضلات :

— نتراشق بالسهام ومن يقتل صاحبه يستولى على ما يملك .

من قال له إن من هاجر فى سبيل الله يبغى متاعا ؟ يقتل نفسا بغير نفس فى سبيل عرض زائل ؟ لقد ألقى الدنيا كلها وراء ظهره ابتغاء مرضاة الله ، وهو لا يطمع أن يفوز بمتاع قليل بل يطمع فى الفوز العظيم ، فى جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

لو أنه دعى ليحارب فى سبيل الله للبى النداء وهو منشرح الصدر ، فهو يدعى إلى إحدى الحسنيين : الفتح أو الاستشهاد فى سبيل الله ، أما أن يدعى إلى ما يغضب الله ويسارع إلى المعصية فهذا هو الخسران المبين .

وقال الرجل المؤمن :

— أنا لا أقبل تحديك .

فصاح الذين التفوا حولها منكرين ، فالتقاليد تقضى أن يقبل التحدى وإلا كتب على نفسه العار . ولم يحفل المؤمن ولا من معه

بأصوات الهزء والسخرية فهم لا يقيمون وزنا للتقاليد بل يحملون معاول الهدم ليجتثوها من جذورها حتى تكون كلمة الله هى العليا .

وصاح صائح :

— أنا أقبل نزالك .

والتفتت العيون فإذا شيخ جاوز الخمسين يحمل أثوابا من القماش ، وكان نحيلا لا يبدو عليه أنه مقاتل شديد .

ووضع الشيخ ما كان يحمله والتفت إلى الملأ وقال :

— ائتونى بقوس وجعبة سهام .

وقدم إليه أحدهم قوسه وجعبة سهامه فراح يختبر القوس اختبار خبير . وسرعان ما تكونت حلقة واسعة من القوم وارتفعت الصيحات . ووقف الرجلان داخل الحلقة وبينهما مسافة ، ووضع كل منهما السهم فى قوسه وشدها وانتظر أن يعطى الحكم إشارة البدء فى المعركة . المعركة التى لم يكن لها سبب إلا حب النزال وسيطرة قانون الغابة على العقول .

وأعطيت إشارة البدء فى قتال لا ينتهى إلا بموت أحد المقاتلين ، سيلفظ أحدهما روحه فى سبيل الشيطان . فى سبيل نزوة طائشة . وأطلق الشاب المفتول العضلات سهمه فاتقاه الشيخ فى مهارة ، ثم أطلق الشيخ سهمه فطاش . وراحت السهام تتبادل والشاب والشيخ يروغان منها فى خفة وسرعة وحرص شديد .

ودوت فى المكان صيحات متعطشة إلى الدماء وكانت الأعين تنظر فى اهتمام ، والصدور تعلو وتنخفض فى حماس ، والأصوات تنطلق تحث المتقاتلين أن يقضى أحدهما على الآخر . كانت القلوب

كلها قاسية إلا قلوب إبراهيم ومن معه من المؤمنين فقد امتلأت أسى وإشفاقا ، وزاد إصرارهم على أن يخرجوا هؤلاء القوم من الظلمات التى يعيشون فيها إلى النور .

وراح المتقاتلان يدنوان أحدهما من الآخر والسهام تتطاير . وانتهز الشيخ لفتة طائشة من الشاب المفتول العضلات المدل بقوته فسدد إليه سهما استقر فى عنقه . فخر الشاب صريعا يخبط فى دمه بين تهليل القوم وصخبهم .

وسار إبراهيم ومن معه من المؤمنين . وكان إبراهيم فى نفسه يؤمن بالصراع وبأنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . كان يؤمن بالصراع فى سبيل هدف جليل . فى سبيل إعلاء كلمة الله . وليس بالصراع الذى تهدر فيه كرامة الإنسان وإن أقره العرف والتقاليد .

إنه يؤمن بالسلام والمحبة . فليدعون القوم بالتى هى أحسن . فإن قاوموه وفرضوا عليه القتال فسيقاتلهم وهو واثق أن النصر سيكون حليفه . فما النصر إلا من عند الله . ولينصرن الله من ينصره إن الله قوى عزيز .

ولاحت لهم منازل دمشق على ضفتى نهر بردى . مستطيلة الشكل أساسها كتل من الحجارة وجدرانها من اللبن وسقوفها من أعواد النباتات طليت بالطين . كانت كمنازل أور إلا أنها ترتفع على الروابى أو على سفوح الجبال . فينساب نهر بردى فى رفق لا تخشى غوائله .

ووصل إبراهيم وأتباعه إلى معبد الإله بعل وأخته عنت ، وكان مزيجا من معابد البابليين ومعابد المصريين . كانت به تماثيل لشماش وعشتار وسين ، وتماثيل لأبى الهول وآلهة المصريين . كان القوم على الطريق بين حضارتين كبيرتين : حضارة بابل وحضارة الفراعنة فاقتبسوا ما وصل إليهم من الحضارتين ، وفرضت الآلهة المختلفة سلطانها عليهم .

وراح القوم يقدمون القرابين من الخنازير البرية إلى بعل وعنت وسين وشماش وعشتار والآلهة الأخرى ، بين صلوات الكهان وأناشيد المغنين وموسيقى العازفين والبخور الذى عبق به المكان .

وكان فى دمشق كثير من المصريين يمارسون أعمالا مختلفة ، وكان منهم موظفون من قبل ملك مصر ، إذ كانت سورية آنئذ فى حكم المصريين . ووقف المصريون فى المعبد أمام آلهتهم يحرقون البخور ويتلون الابتهالات التى يترنم بها المصريون عند الاحتفال بحرق البخور :

إن النار تهيأ والنار تضىء .
إن البخور يوضع على النار والبخور يضىء .
وشذاك يأتى للملك يأيها البخور .
وشذى الملك يأتى إليك يأيها البخور .
وشذاكم يأتى للملك يأيها الآلهة .
وشذى الملك يأتى إليكم يأيها الآلهة .
إن الملك معكم يأيها الآلهة .
وأنتم مع الملك يأيها الآلهة .

والملك يعيش معكم يأيها الآلهة .
وأنتم تعيشون مع الملك يأيها الآلهة .
والملك يحبكم يأيها الآلهة .
فأحبوه يأيها الآلهة .

وراح إبراهيم ومن معه ينظرون ويسمعون ؛ إن القوم اتخذوا دين بابل ودين مصر وعكفوا على أصنامها يعبدونها ويقدمون لها الخنازير قربانا وزلفى .

ووقف إبراهيم فى المعبد وقال :

— يا قوم . يا قوم . يا قوم..

وترك الناس صلواتهم وذهبوا ليروا لماذا يدعوهم ، وسار الكهان فى أثر الناس ينظرون . قال إبراهيم :

— يا قوم ألا تتقون ؟ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ؟ الله ربكم ورب آبائكم الأولين .

فقال قائل :

— من الله الذى تدعونا إليه ؟

— فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .. هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو

الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله . ولعلكم تشكرون .

فصاح أحد الكهان :

— لئن لم تنته لتكونن من المرجومين .

ولم يثر الناس بل ألقوا إليه سمعهم . كانت الآلهة التى يعبدونها آلهة أقوام آخرين وإن عكف على عبادتها آباؤهم الأولون . وقال قائل منهم :

— أإلهك أعظم من بعل وعنت وسين وشماش وعشتار وآلهتنا الأخرى ؟

— أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون . إلهكم إله واحد . فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه لا يحب المستكبرين .

وضاق صدر الكهان بذلك الواغل عليهم الذى جاء إلى معبدهم ليدعو إلى ربه . وزاد فى ضيقهم أن الناس استمعوا إليه معجبين . فقالوا :

— هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ إنه جسد يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق كما تمشون . يا قوم ضعوا أيديكم فى فمه ولا تدعوه يسب آلهتكم . يا قوم إن تصغوا إليه يحق عليكم غضب آلهتكم

ويكتب عليكم الخراب المهين .

فقال إبراهيم :

— يا قوم إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ؛ رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وراح الكهان يدفعون الناس لينفضّوا من حوله :

— أسرعوا يا قوم بالفرار قبل أن يحيق بكم غضب الآلهة وعذاب أليم ، ضعوا أصابعكم فى آذانكم حتى لا تسمعوا ما يفتريه على الآلهة السادة والبعول . فرّوا من هذا البلاء ولا تصدقوه .

ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون .

وقال إبراهيم :

— يا قوم .. إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين .

وارتفع صياح الكهان ورجال الدين وتداخل بعضه فى بعض :

— يا قوم لا تذرنّ آلهتكم ، ولا تذرن بعلا وعنت وعشتار وسين وشماش .

يا قوم فروا من عذاب أليم . يا قوم .. يا قوم ..

وجلجلت الأصوات ولم يعد أحد يفقه ما يقال . وخرج الناس من المعبد وعاد إبراهيم ومن معه من المؤمنين إلى خيامهم ، وقد زاد إبراهيم ما لقيه اليوم إصرارا على تبليغ رسالة رب العالمين .

حطت بالقرب من خيام إبراهيم قافلة مصرية قادمة من لبنان ، وكانت تحمل جرارا فخارية مستطيلة مملوءة بزيوت الأرز التى تحنط بها موميات الفراعين ، وبأخشاب الأرز التى تصنع منها توابيت الأشراف والحكام .

وكان فى القافلة بعض من صناع الأسلحة المصريين ، وكانوا يبيعون الناس أسلحة مصرية ويشترون منهم أسلحة آسيوية : خناجر مقابضها كالأهلة وسيوف تشبه سيقان الحيوان ، وبلط تختلف فى شكلها عن البلط المصرية .

وكانوا يشترون كذلك أوانى حورانية من الفخار الأسود : أباريق ذات مقابض مزدوجة برسوم ملونة محلاة بالطيور والأسماك ، وأوانى سوداء محززة برسوم ملئت باللون الأبيض ، فقد أصبح المصريون من سكان الدلتا يقبلون على شراء هذه الأوانى بعد أن وثبت القبائل السامية التى جاءت إلى مصر بقصد الرعى واستولت على الحكم دون قتال أو إغارة .

وزار رجال القافلة المصرية خيام إبراهيم ورأوا الرجل الجليل ، وجلسوا يتحدثون معه وينصتون إلى ما يقول . وكانوا يفقهون قوله فهو يتحدث بنفس اللغة التى يتحدث بها الرعاة الساميون الذين استولوا على دلتا النيل ، وكانت تلك اللغة لهجة من تلك اللهجات

العربية ، فقد كان جنوب الجزيرة دائما مخزنا هائلا من مخازن شر ية تدفقت منه هجرات استولت على العراق وسورية ، وامتد سلطانها حتى شمل مصر السفلى .

ولم تكن تلك الهجرة أول عهد الساميين بمصر ، فقد تسلل عرب الجزيرة العربية إلى وادى النيل قبل عهد الأسرات عن طريق القصير . وكانوا فى أوطانهم محرومين من الأنهار والاستقرار فهاجروا إلى الفرات والنيل والأردن حيث الماء والاستقرار .

وكان سكان الدلتا يتعلمون الآرامية من القبائل التى استأذنت فى الرعى فى شرق الدلتا حتى قبل أن تثب لانتزاع الحكم من الفراعين ، وقد زاد إقبال الناس على تعلم تلك اللغة بعد أن بدأ حكم الهكسوس « حتا خاسوت » حكام البلاد الأجنبية . وكان التجار يتكلمونها حتى قبل أن تفد القبائل السامية إلى دلتا النيل بقصد الرعى ، فهى نفس اللغة التى يتفاهمون بها مع العموريين فى سورية ، والكنعانيين فى غزة وما عرف فيما بعد بفلسطين . فقد كان الآراميون فى العراق والعموريون فى سورية والكنعانيون فى فلسطين من الساميين ، وكانت لغتهم واحدة وإن اختلفت لهجاتهم باختلاف المناطق التى نزلوا فيها .

وكانت التجارة فى ذلك الوقت فى أوج ازدهارها . فكانت السفن المصرية تنقل السلع والثقافات المختلفة بين مصر وقبرص وكريت وشواطئ البحر الأبيض . وكانت القوافل تغدو وتروح بين بابل وجبيل ودمشق ومنف واليمن والعقبة . وكانت اللغة العربية هى لغة التفاهم ولم يكن اختلافها إلا من قبيل اختلاف

اللهجـــات :

كان المصريون يصغون إلى إبراهيم فى خيامه ؛ ولم يجذب انتباههم شعره الأسود الفاحم ولا رداؤه الفضفاض المخطط بخطوط زرقاء وحمراء . فقد رأوا مثله آلافا فى سورية ، وليس منظره غريبا حتى على من لم يغادروا البلاد المصرية ، فإنه لا يختلف عن « هاعبرى » البدوى الذى جاء إلى مصر فى عهد سنوسرت الأول ؛ و « أبيشا » زعيم القبيلة السامية التى جاءت إليها فى زيارة رسمية سجلت وقائعها بالرسوم الفرعونية على جدران المعابد .

ورأوا مثله كثيرين من العبريين — الجنود المرتزقة — الذين عبروا الفرات واشتركوا فى القتال الدائر بين الملوك والطامعين فى السيادة فى منطقة الشرق الأوسط . ولكنه كان عبريا من طراز آخر يختلف عن العبريين المقاتلين الذين يعيشون على سفك الدماء . كان عبريا يدعو إلى إله واحد عظيم له ما فى السموات وما فى الأرض . الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . وهو الذى يزجى السحاب وينزل من السماء ماء ليحيى به الأرض بعد موتها ، وهو الأول والآخر . وهو الذى أنشأ الخلق وهو القادر على بعثهم بعد أن يصبحوا عظاما وترابا ليحاسبوا على أعمالهم : فمن عمل سيئة من ذكر أو أنثى فلا يجزى إلا بها . ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء بغير حساب .

وكان حديثه عن الله وعن البعث والنشور هو ما يثير دهشتهم . إنه لا يدعو إلى بعل أو عنت أو أى من آلهة القوم الذين

يعيش بينهم ، ولا يدعو إلى مردوخ أو سين أو شماش أو عشتار أو أى من آلهة بابل الأرض التى جاء منها ، ولا يحقر آمون إله المصريين كما فعل الساميون الذين جاءوا إلى مصر للرعى ثم وثبوا على الملك وأسسوا حكمهم فى الدلتا ، إنه إنما يدعو إلى دين جديد تقبله الفطرة السليمة ، يدعو إلى الوحدانية المطلقة ، إلى أن يسود حكم السماء فى الأرض فالملك لله يورثه من يشاء من عباده .

وأثار دهشتهم أنه يتحدث عن البعث بعد الموت ، وعن الحساب والثواب والعقاب ، وما كان أهل بابل يعرفون البعث فهم يعتقدون أن الإنسان بعد أن يموت يهبط إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها . وكذلك كان العموريون الذين يسكنون سورية والكنعانيون الذين يعيشون على ساحل البحر الأحمر فى غزة وما حولها لا يؤمنون بالبعث . المصريون وحدهم كانوا يؤمنون بالقيامة بعد الموت ، فمن أين جاء ذلك البلوى «الهاعبرى» الذى عاش فى بلاد لا تعرف الحياة الأخرى بفكرة الآخرة . وأن الآخرة خير لمن اتقى ؟

وكان حديثه عن الله وعن البعث والنشور هو ما يثير وصفه لليوم الآخر كان يحيرهم ، وما دار بخلدهم أن الذى نشر فكرة البعث بين المصريين إنما هو أخ له فى الدعوة قام فى منف يدعو المصريين إلى عبادة رب العالمين ، إلى عبادة الله الذى يجمعهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا . ذلك هو إدريس عليه السلام ، وكان مثله صديقا نبيا .

وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، يدعو الناس إلى عبادة الله

وحده ، ويبشرهم بجنات النعيم والفوز العظيم ، ويخوفهم بنار جهنم والخزى والخسران المبين . كان آدم على علم ، فقد علمه الله الأسماء كلها ، وكان أبناء آدم على علم توارثوه بأن الله واحد له ما فى السموات وما فى الأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وفسقوا عن الدين واتخذوا من دون الله آلهة وجعلوا له شركاء ، فأرسل إليهم رسله ليعيدوهم إلى الصراط المستقيم .

أرسل الله إدريس فهدى قومه إلى الحق وإلى طريق الرشاد ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ونسجوا حوله الأساطير ؛ واتخذوا لله شركاء وعبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم . وكذلك أرسل الله نوحا إلى قومه لينذرهم من قبل أن يأتيهم عذاب شديد . فكذبوه ؛ قال : رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا .

فلما أصروا على كفرهم قال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا .

وأغرقهم الله ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين .

وانتهت عبادة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر . الأصنام التى عبدها قوم نوح . وعبد من حملهم نوح فى الفلك الله وحده ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم فعادوا لعبادة الأصنام

والكواكب والنجوم : لعبادة مردوخ وسين وشماش وعشتار والآلهة الأخرى فى بابل ، وبعل وعنت فى سورية ، وأزريس وحور وآمون وست فى وادى النيل : وقد أرسل الله إبراهيم ، ذلك الرجل الخليل ، بما أرسل به الرسل من قبله ، أرسله شاهدا ومبشرا ونذيرا .

راح إبراهيم يخاطب المصريين الذين أقبلوا للتجارة ، والسوريين الذين ألقوا إليه سمعهم . إنه فى خيامه مهيب لا يستمد سلطانه من مراسيم المعابد أو نظام الدولة أو الكهنوت أو أى سلطان أرضى ، إنه إنما يستمد سلطانه من إله قوى هو فوق الطبيعة وأقوى من كل الظواهر الكونية التى يقدسها القوم : إن ما يحدث به إن هو إلا فتح جديد فى العقيدة ولكن القوم كانوا فى شك مريب مما يدعوهم إليه ، فكذبوه كما كذبت رسل من قبل .

وغادر التجار المصريون خيام إبراهيم ودخلوا دمشق ليشتروا البرونز ومنتجاته ؛ فالبرونز معدن جديد توصل السوريون إلى سبكه ويقبل الناس فى مصر عليه إقبالا شديدا . فقد عرف المصريون النحاس واستخرجوه من سيناء ، وقطعوا الأشجار فى سيناء ليصهروه ويصنعوا منه ما يريدون ؛ أما البرونز فقد أصبح منذ استكشافه طابع العصر ، وأصبح الناس يزهون باقتنائه على الرغم من توافر الذهب فى مصر !

وقام إبراهيم ومن معه من المؤمنين ليدخلوا دمشق ليدعوا الناس إلى الله رب العالمين ، ليقولوا لهم : وما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، فقد كان اليوم يوم راحة ينطلق فيه أهل دمشق

إلى المروج حيث الخضرة والماء المتدفق من الصخور .

فمروا بحصون دمشق ومبانيها ذات الشرفات ، ومعابد بعل وعنت والآلهة الأخرى الذين جلبوا من بابل وآشور ووادى النيل والجزيرة العربية ، وبلغوا الحدائق التى ازدانت بالورود والرياحين وتألقت بألوان خضراء وحمراء وبيضاء وصفراء وبنفسجية تشرح الصدور وتسر العيون . وكان الرجال يرتدون أردية كثيرة الوشى أرجوانية مخططة بخطوط زرقاء وسوداء ، ويغطون رءوسهم بشيلان متباينة الألوان ثبتت بعقال ، ويلبسون فى أرجلهم نعالا زمت بخيوط . وكان النساء يلبسن ثيابا زاهية الألوان تغطى إحدى الكتفين وتترك الأخرى عارية نهبا للعيون ، وكن يزين رءوسهن بشرائط ويلبسن فى أرجلهن الخلاخيل .

وراح رجال يضربون على آلات موسيقية ذات ثمانية أوتار ، وآخرون ينفخون فى المزامير ، وسرى الغناء فى كل مكان وجلجلت ضحكات النساء فى جنبات الرياض ، وراحت أوانى الشراب تدور فتدير الرءوس ؛ كان النبيذ كثيرا أكثر من الماء فى نهر بردى !

وألقى الرجال أرديتهم الفضفاضة على الأرض فبدوا فى ملابسهم الداخلية الصفراء ذات الأكمام الضيقة والسراويل المحبوكة ، وخلع النسوة أحذيتهن الحمراء ، ووسوست الخلاخيل وهن يضربن الأرض بأرجلهن من كثرة الضحك . فانجذبت العيون إلى الفتنة الطاغية .

وغض المؤمنون من أبصارهم وأغلقوا نفوسهم فى وجه الأغانى الماجنة والضحكات المغربدة ، وقام إبراهيم يقول : زين

للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب .

وصاح صائح وهو يرفع آنية النبيذ ويعب منها :

— هذه هى الحياة . ليس هناك خير مما نحن فيه . خمر ونساء وما لذ وطاب .

— أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد .

— إن جناتنا كجنات ربك تجرى من تحتها الأنهار . أتريدنا أن نستبدل ما نعرف بما لا نعرف . أن نترك ما نحن فيه لنفوز بما تعدنا به . لقد قلت إذا شططا .

— يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . يا قوم ما الحياة الدنيا إلا حياة الغرور .. متاع قليل ثم مأوى الكافرين جهنم وبئس المهاد . يا قوم لا تفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ، يا قوم متاع فى الدنيا ثم إلى الله مرجعكم ثم يذيقكم العذاب الشديد .

يا قوم .. وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ؟ !

يا قوم .. اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب

شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

فخفتت الأصوات ، وتراخت الأصابع التى تلعب على الأوتار ، وحبست الأنفاس التى تنفث فى المزامير ، وماتت الضحكات على الشفاه ، وهمدت وسوسة الخلاخيل ، ووضعت أوانى النبيذ على الأرض ، وتعلقت الأعين بذلك الرجل الذى راح يخوفهم الله وعذابه ، ويصف لهم جهنم وما فيها حتى جعلهم يحسون لهيبها وإن كانوا يعيشون فى ظل ممدود .

ورأى إبراهيم الخوف على وجوه القوم فقال :

— توبوا إلى الله .. فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه .. وإن الله لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

توبوا إلى الله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، فإن الله غفور رحيم .

يا قوم توبوا إلى الله عسى أن تكونوا من المفلحين .

يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود .

وضاق أحدهم بما يقول إبراهيم فسولت له نفسه أن يصيح ليخرج الناس من ذلك الصمت الذى ران عليهم فقال :

— يا إبراهيم إنى كافر بربك ، كافر بما تدعونا إليه ، فإن لم تنته عما أنت فيه لنرجمنك .

— يا قوم إنى لكم ناصح أمين .

وصاح الرجال فى وجهه :

— اغرب عنا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين .

وهم إبراهيم بأن يتكلم فصاحوا جميعا يكذبونه وصدفوا عما يقول ، وزادوا طغيانا وأبى أكثر الناس إلا كفورا .

وعاد إبراهيم ومن معه إلى خيامهم ولم يتسرب اليأس إلى قلوبهم ، فإن كان الناس قد أعرضوا عن دعوة الحق فإن ذلك إلى حين ، فالله متم نوره ولو كره الكافرون .

خرج بعض العموريين من دورهم يتلفتون ، وانطلقوا صوب شمال دمشق إلى خيام إبراهيم رسول الله الذى آمنوا به سرا ، ليتفقهوا فى دينهم الجديد .

وبلغوا مضرب الخيام فإذا إبراهيم فى محرابه يصلى لله رب العالمين ، ووقف خلفه لوط وإليعازر الدمشقى الذى اشترى آخرته بدنياه فهجر ما كان فيه من طيب العيش وآمن لإبراهيم وأسلم وجهه لله . واصطف مع لوط وإليعازر رجال هاجروا مع خليل الرحمن من أور وحاران فرارا بدينهم ، ورجال من سورية شرح الله صدورهم للإسلام . فخف الذين أخفوا إيمانهم خشية بطش ساداتهم ليركعوا مع الراكعين ويسجدوا مع الساجدين .

وقضيت الصلاة ، وجلس إبراهيم وحوله من آمنوا به يصغون إلى ما يقوله حبيب الله ، كان حديثه ينفث فيهم القوة ، ويجعلهم يحسون أنهم أقوى من كل من فى الأرض من الجبارين ، ويطلق أرواحهم لتهيم فى ملكوت الله فتستشعر أنها انطلقت من سجن النفس والجسد لتتصل بروح الكون .

وكان فيمن ألقوا سمعهم إلى إبراهيم الخليل بعض المستضعفين والعبيد ، فراح يعلمهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ويرفعهم إلى مرتبة سامية ، مرتبة الاتصال بالله والأنس به ، فإذا الخوف

ينتزع من نفوسهم وإذا الأمن يغشاهم . إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم .

وجاء من المدينة رجال يسعون . كانوا من الكهان وسادات العبيد الذين آمنوا برب إبراهيم والتجار وأصحاب النفوذ ممن يخشون أن تدول دولتهم أو تبور تجارتهم إذا انتشر الدين الجديد .

ونظروا فاتسعت أعينهم من الدهشة فما دار بخلدهم أن يؤمن لإبراهيم كل هؤلاء الناس . إنهم ما جاءوا إلا ليأخذوا عبيدهم ليعيدوهم إلى ملتهم وليهددوا إبراهيم بالرجم والعذاب الأليم ؛ ولكن ما رأوه اليوم أنزل بقلوبهم هما ثقيلا فقد صار لإبراهيم حزب قوى لا يفلح فيه التهديد والوعيد .

وتقدم أحد الكهان حتى أشرف على الملأ وقال :

— يا قوم لا يفتننكم هذا عن دين آبائكم . عودوا إلى آلهتهم ، عودوا إلى بعل وعنت وشماش وسين . عودوا إلى الشمس والقمر والسادة البعول .

فقال إبراهيم وهو يقترب ممن جاءوا يجادلونه ويتحدون الله ورسوله :

— ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون .

وعاد الكاهن يقول :

ـ يا قوم لا تكفروا بآلهة آبائكم . يا قوم ! ...

وقال الذين آمنوا :

ـ آمنا بالله وبما أنزل على إبراهيم .

ـ وكفرتم بآلهة آبائكم ؟

ـ آمنا بالله وحده .

وهم الكاهن بأن يتكلم فقال إليعازر الدمشقي لإخوانه المؤمنين :

ـ لا تصغوا إليه إنه يريد أن يردكم بعد إيمانكم كافرين .

وقال المؤمنون :

ـ ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين .

فقال لهم الذين جاءوا من المدينة يسعون :

ـ إنا بالذى آمنتم به كافرون .

ـ يا قوم .. الله خير مما تشركون ، يا قوم توبوا إلى الله إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد .

ـ عد إلى آلهتنا وآلهة آبائك الأولين ، عد إلى من مشيئتهم نافذة فى السماء وفى الأرض ، إلى من تسبح لهم الأرواح السماوية والأرواح الأرضية .

ـ آلله خير أما تشركون ؟ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله بل أنتم قوم تعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون .

وتحدث الرجال إلى الرجال ، وكان أهل دمشق من كهان وتجار وأصحاب سلطان فى ثورة عارمة لأن المستضعفين والعبيد لم يكتفوا بشق عصا الطاعة وترك دين الآباء ، بل أصبحوا ينهونهم أن يعبدوا آلهتهم ويقولون إنها ليست على شىء !

وزاد فى ضيقهم الثقة التى يتحدث بها أتباع إبراهيم والطمأنينة التى تغشاهم . وإن أغيظ ما يضايقهم منهم وصفهم آلهتهم بالعجز : إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان !

تطاول المستضعفون والعبيد على السادة البعول وسخروا منهم وهزءوا بمن اتبعوهم . وزاد الأمر سوءا أن أصبح هؤلاء السفهاء على علم : ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى . وأنه هو أغنى وأقنى .

من أين لهؤلاء البسطاء والمستضعفين والعبيد مثل هذه الفصاحة ومن الذى بث فيهم هذه الروح القوية ؟ إن الأمر لأخطر من أن يسكت عليه . إن هؤلاء الأميين قد ألزموا الكهان والتجار ورجال السلطان الحجة ، وتركوهم حيارى يغطون خزيهم بالثورة والعنف . وقال قائل منهم وقد ضاق صدره بأنفاسه المحمومة :

— لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم .

ولم يرتجف المؤمنون فهم أعزة . هم حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون . وأصاب الكافرين صغار وأحسوا بصدورهم

تضيق وأطلت من أعينهم البغضاء ، وأرادوا أن يستروا خزيهم فبدءوا بالعدوان وهم يرتجفون .

وبدا بين المؤمنين والكافرين العداوة والبغضاء وكادت تضطرم نار القتال ، بيد أن إبراهيم أطفأها فهو يدعو إلى السلام ولا يريد إلا السلام وإذا خاطبه الجاهلون قال سلاما .

وتأهب الجاهلون لينقلبوا إلى أهلهم ليثيروها حربا شعواء على إبراهيم ومن معه ، ليقضوا على الدعوة التي تكاد أن تقوض سلطانهم .

وقبل أن ينصرفوا قال أحدهم :

— لئن لم تنته يا إبراهيم لتكونن من المخرجين .

وقال الكاهن والغضب يتطاير من عينيه :

— ليخرجن الأعز منها الأذل .

وأعلن الكفار الحرب على المؤمنين .

كان إبراهيم يريد السلم ، كان يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يدعوهم إلى الهدى ، إلى صراط مستقيم ، فلم يسمعوا دعاءه ، ولو سمعوا ما استجابوا له فقد كبر عليهم ما يدعوهم إليه .

قال لهم إن ما يدعون إليه هو الباطل وأن الله هو الحق . والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه . وأنهم لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون .

كان يخفض لهم جناح الذل من الرحمة ويدعوهم إلى النجاة ، إلى الجنة ، إلى دار السلام ، فاستكبروا .. وقالوا قلوبنا فى أكنة مما

تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر .. وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب.

كان يريد السلم ، أن يقرع الحجة بالحجة ، ولكنهم ضاقوا بهذا السبيل ، فإنه كلما جادلهم ألزمهم الحجة وجعلهم يستشعرون صغارا وفتن المستضعفين والعبيد ، إنهم لو صبروا على دعوته لقضت عليهم وذهبت بنفوذهم ، فليضع السيف حدا لهذه المعركة التى كادت ترجح فيها كفة المؤمنين .

اعتدوا عليه وعلى من معه ولم يبدأ هو بالعدوان ألبتة فهو يعلم أن الله لا يحب المعتدين ، وصبر على ما أصابه إن ذلك من عزم الأمور .

وها هم اليوم جاءوا يهددونه بالرجم وبعذاب أليم ، فصبر وهو على يقين من أن الله لا يضيع أجر المحسنين . واعتدوا على المؤمنين فقالوا : ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

كان إبراهيم يريد السلم ولكن القوم أبوا إلا القتال ، عادوا إلى المدينة ليأتمروا به ، ليقتلوه ويقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس . وأحس إبراهيم الخطر فقال لمن معه :

ــ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .

فنظر إليه المؤمنون وقد وجلت قلوبهم وقالوا :

ــ قتال ؟

فقال لهم وهو كاره :

ــ قتال .. إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

كان إبراهيم يجنح للسلم ولكن الذين ناصبوه العداء نبذوا السلم

وراحوا ينفخون فى نار الحرب . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ليعيدوا من آمنوا إلى الظلمات إلى عبادة آلهة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . وحق عليه أن يحرض المؤمنين على القتال وأن يقول لهم قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله :

وراح المؤمنون يتأهبون للقتال ، حملوا القسى والسهام والجعاب والرماح وفئوس الحرب وعصى الرماية ؛ وأخذ إبراهيم يبث فيهم روحا قوية ويقول لهم .. فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين .. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين .. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم .. ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين .

ووقف المؤمنون ينتظرون ، إنهم قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ولكن كان يقوى عزائمهم ما يعدهم به إبراهيم ، كان يعدهم بالفتح وبأن من يستشهد فى سبيل الله فله جنات عرضها السموات والأرض ذلك هو الفوز العظيم .

وجاء الكهان ورجال الدولة والتجار ورجال الجيش ومن ساقوا معهم من الجنود المرتزقة ، جاءوا ليدافعوا عن سلطانهم فى الأرض وفى أيديهم الفئوس والسهام والرماح وفى قلوبهم العداوة والبغضاء . جاءوا يختالون فقد كانوا واثقين أن النصر لهم وأن

الدائرة ستدور على أولئك السفهاء الذين عابوا آلهتهم وسفهوا أحلامهم وعملوا على تقويض نفوذهم .

وتراءى الجمعان ، ونظر المؤمنون فأنزل الله على قلوبهم السكينة إذ أراهم أن أعداءهم فى أعينهم قليل ؛ ونظر الذين جاءوا يقاتلون الله ورسوله فوجلت قلوبهم وأوجسوا خيفة إذ أراهم الله أن أعداءهم فى أعينهم كثير . ونزلت الهزيمة بأفئدتهم قبل أن يطلق سهم أو يرمى رمح أو تبسط يد للقتال .. ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين :

ومشى الرجال إلى الرجال وبدأ الصراع الذى تباركه السماء ، الصراع الذى لولاه لأسنت الحياة ونخر فى الكون فسق المترفين وساد فيه ظلمهم وطغيانهم . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا :

كتب على إبراهيم والمؤمنين القتال ، فاندفع إبراهيم بين الصفوف يقاتل فى سبيل الله : فإذا الرجل الأواه الحليم الذى تفيض بالدموع عيناه إذا ما دعا ربه ، يقاتل فى ضراوة من أرغموه على القتال ، فقد أمر أن يقتل من جاءوا لقتاله : فان قاتلوكم فاقتلوهم ، فما كان له إلا أن يطيع أمر الله ، وأن يخوض معركة الإيمان حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو أحكم الحاكمين .

وراح لوط يطلق سهامه ويهز رمحه ويطعن به أعداء الله ، ويلتحم مع الرجال ويبسط إلى أعدائه يديه ليقتل أنفسا تبغى الفساد ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وسارع إليعازر الدمشقي إلى الطعن والنزال وكان يستعجل إحدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد فى سبيل الله والفوز بجنات الخلود .

التحم حزب الله وحزب الشيطان واشتد القتال بين المصلحين والمفسدين ، وكانت قلوب المؤمنين عامرة بالإيمان وقلوب الفاسقين هواء . وراح كل يستنصر وليه . وإبراهيم ومن معه يدعون الله ، والكافرين يدعون بعلا وعنت والأصنام الأخرى ، وأطبق الحق على الباطل ليزهقه ويكتم أنفاسه .

ووقفت سارة على باب خيمتها تنظر والمعركة تدور على قيد خطوات منها وقد حمى وطيسها : سهام تتراشق ، ورماح تهز وترمى لتستقر فى الظهور والبطون ، وخناجر ترتفع وتهوى فتغوص فى الرقاب والقلوب والصدور : وصرخات مفزوعة وأنات موجوعة :

وراحت تتبع إبراهيم بعينيها وانبهرت أنفاسها وهو يصول ويجول لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الملك لله :

وشخصت ببصرها إلى السماء وابتهلت إلى الله فى حرارة أن ينصر عباده ويؤيدهم بنصر من عنده ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . وطفرت من مآقيها الدموع وهى تدعو الله أن ينزل على المؤمنين نصره الذى وعدهم .

وثبت إبراهيم ومن معه وأبلوا بلاء يرضى الله وأثخنوا فى الأرض . ولما رأى الكافرون جنودهم صرعى يغطون أرض المعركة زلزلوا زلزالا شديدا ، وأيد الله الذين آمنوا على عدوهم

فأصبحوا ظاهرين . وألقى فى قلوب المفسدين الرعب فولوا مدبرين ، وإبراهيم ومن معه فى أثرهم يقتلونهم تقتيلا .

وهام من بقى من الكهنة ورجال الدولة وأصحاب النفوذ والجنود المرتزقة على وجوههم مرعوبين ، وولوا الأدبار فى دروب دمشق لا يلوون على شىء .

وباتت دمشق فى حوزة إبراهيم ليقيم فيها الدين وليصفح عن الجاهلين ، وليقول : سلام فسوف يعلمون .

فرح المؤمنون بما آتاهم الله من فضله فقد دانت لهم دمشق الفيحاء جنة الله فى أرضه ، وسقطت فى أيديهم بكنوزها وقصورها وقلاعها وبيوتها ذات الشرفات ، وحدائقها ورياضها وأشجارها وتينها وزيتونها وأعنابها ونخيلها وما تزخر به من خيرات :

وساء الكافرين هزيمتهم ووجلت قلوبهم وباتوا يترقبون من الخوف ، فقد ظنوا أن إبراهيم سيقتفى آثارهم ليقطع دابرهم . كانوا يسخرون من الذين آمنوا فإذا الذين كانوا يستهزئون بهم قد أصبحوا فوقهم يتحكمون فى رقابهم ، إن شاءوا عفوا وإن شاءوا يقتلون .

وقال إبراهيم : سلام ! وراح يدعو إلى السلم : كان يلتمس هدايتهم فقال لهم قولا لينا لعلهم يهتدون : من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون .

عفا إبراهيم وصفح عنهم حتى يأتى الله بأمره ، وأن تعفوا أقرب للتقوى .. إن الله يحب المتقين . وراح المشركون يرقبون ما يفعل إبراهيم بقصر الملك وقد أصبح خاليا بعد أن فر من فيه هاربين ، قال من فى قلوبهم مرض سيعتلى العرش ويكون جبارا من الجبارين ، وقال من مالت قلوبهم إلى الدين الجديد إن ما عند ربه خير من قصور دمشق وكل كنوز الأرض ، فما الحياة الدنيا

إلا متاع الغرور .

وعاد إبراهيم إلى خيامه يسبح بحمد ربه ويستغفره ويسجد مع الساجدين . ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فدخل الناس فى الدين الجديد أفواجا ، وراح إبراهيم يبنى المحاريب لله رب العالمين .

وعرف أهل دمشق الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما ، وشرح ذلك صدر إبراهيم . ولكن هل يقنع بهذا الفتح ؟ أيرضى بالدعة والاستقرار ؟ أهذه هى كل رسالته ؟ أن يعرف حفنة من المؤمنين أن ربهم إله واحد لا شريك له بينما الناس فى الدنيا كلها يتخبطون فى الجهالة ؟

إنه لا يريد علوا فى الأرض ولا يريد سلطانا يتحكم به فى الرقاب . إن كل ما يبغيه هو أن يبلغ رسالات ربه للناس كافة . حتى يؤمنوا ويقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم الله سرا وعلانية من قبل أن يأتيهم يوم لا بيع فيه ولا خلال .

دانت له دمشق بقصورها وكنوزها وحصونها ومعابدها وجناتها ، ولم يدر الترف رأسه ولم يدنس الطمع قلبه ، إن ما يريده يفوق كل كنوز الدنيا وما فيها من متاع ، إنه يريد الآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن ، إنه يريد كنوز السماء وقصور السماء وجنات النعيم .

وما دمشق فى ملك الله ؟ إنها ذرة فى فلاة ، قطرة فى بحر . وما ينبغى أن تظل دعوة التوحيد حبيسة جدران مدينته مهما عظمت هذه المدينة وارتفع شأنها . إن دين الله لا بد أن ينتشر فى الأرض

مشارقها ومغاربها . نجاه الله ولوطا إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين فكان عليه أن يخرج إلى تلك الأرض .

حسنت دمشق مستقرا ومقاما للمؤمنين ، ولكن ما كان للنبى الذى هجر الدعة فى أور ليعيش فى خيمة يدعو الناس إلى السميع العليم أن يستقر فى مكان واحد ، فأرض الله واسعة وقد كتب الله عليه أن يمشى فيها ويدعو الناس إليه .

إن كانت قوافل التجارة تجوب الآفاق آناء الليل وأطراف النهار ، فى الظلمات والنور ، فى الظل والحرور ، فى الفيافى والسهول ، فى الفجاج وشعاب الجبال ، فى المطر الشديد والريح الصرصر العاتية . فى لفح الصيف وبرد الشتاء فى سبيل عرض زائل ، فأولى لقوافل الله أن تسيح فى الأرض فى سبيل الله ، ثم أولى لهم أن يدعوا الناس إلى الله مالك الملك مولاهم الحق ، ليفوزوا بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

نشأ إبراهيم فى أور وهاجر إلى حاران ومنها إلى سورية ، وإن بابل لها حدود وسلطان ، وآشور لها حدود وسلطان ، وسورية لها حدود وسلطان ، وكنعان لها حدود وسلطان ، والجزيرة العربية لها حدود وسلطان ، ومصر لها حدود وسلطان ، ولكن إبراهيم لا يقر هذه الحدود ولا يدين لسلطان غير سلطان الله ، إن هذه الممالك كلها أمة واحدة وربها واحد لا إله غيره يؤتى كل ذى فضل فضله ، فأمر مؤذنه أن يؤذن فى الناس بالرحيل إلى حيث يشاء الله .

ورفعت الخيام وركبت سارة جملها وحولها جواريها ، وراح

إليعازر الدمشقي يشرف على العبيد وقطعان الماشية التي أثارت النقع فحجب دمشق عن العيون . وامتطى إبراهيم راحلته ، وامتطى لوط راحلته ، وانطلقت قافلة الإيمان في معبد الله ، في الكون العريض ، تسبح بحمد ربها وتستغفره إنه كان توابا .

كان رجال بيت إبراهيم ألفا أو يزيدون من المؤمنين والعبيد ، وكان للوط رجال ورعاة وعبيد وأنعام ، فقد أنجب كل من خرج مع إبراهيم من أور ومن حاران ومن دمشق — إلا إبراهيم كان فردا لم يرزقه الله بذرية . ولو شاء لرزقه من سارة ولكن شاءت حكمته أن يؤخر هبته له ، لأن الله قدر أن يكون أول الصالحين الذين يهبهم له من غيرها ، إن الله يفعل ما يريد .

كان إبراهيم يدعو ربه في الظلمات وفي دلوك الشمس وآناء الليل وأطراف النهار : « رب هب لى من الصالحين » . ولم يستجب الله إلى دعاء خليله فلم يكن أول الوارثين من آل إبراهيم من زوجه التي خرجت معه من أور ، إنه من امرأة أخرى اختارها الله له سوف يقوده إليها . إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا .

انطلقت قافلة الإيمان إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، وكان الرعاة يرعون على سفوح الجبال وفوق قممها ، والدور مبعثرة هنا وهناك كأنها صناديق من الورق ، والفلاحون يحرثون الأرض ويجر المحراث جمل وثور ، والكلاب تنبح من بعيد .

وتصاعد من الجبال دخان إذ كان الكنعانيون يقدمون القرابين لآلهتهم ، وكان البدو ييممون صوب الدخان ليتقربوا إلى أربابهم

بالصلوات ، فإن الناس فى حاجة أبدا إلى آلهة ترعاهم يوم ظعنهم ويوم إقامتهم .

وبلغت القافلة وادى شكيم وكانت المياه تتدفق ولها خرير وقعه فى نفس المؤمن كوقع التسبيح ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية ، فتلفت المؤمنون فرأوا « بلوطة مروة » وللأشجار عندها ظل ممدود ، فراحوا ينصبون خيامهم على جانبي الماء الذى يجرى بالحياة والنماء .

واستراح المؤمنون قليلا ، ولم يركنوا للدعة بل قاموا يبنون محرابا لله رب العالمين ، لمن أسلموا وجوههم له ، لمن هجروا أوطانهم وباعوا دنياهم وساحوا فى الأرض ابتغاء وجهه الكريم .

كانت أشجار البلوط منتشرة فى المنطقة وجلس تحت الأشجار المعلمون يفقهون الناس فى أمر دينهم . وكانت فرصة أن تدور المناقشات بين إبراهيم ومن معه من المؤمنين وبين المعلمين الذين جعلوا لله شركاء .

وراح المؤمنون يقولون للمعلمين إن الله واحد لا شريك له ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى .

وطفق المعلمون يسبحون بحمد بعل وأخته عنت والآلهة الأخرى . واشتد الجدل وقال المؤمنون : إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وقال المشركون : ما نحن بتاركى آلهتنا سنظل لها عابدين . واشتد الجدل بين الفريقين ، وأحس المعلمون

القوة فى حجة هؤلاء الرعاة الذين جاءوا يسوقون أبقارهم وجمالهم وحميرهم وأغنامهم ، وهبت عليهم ريح الهزيمة فوطدوا العزم على أن ينهوا هذه المناقشات التى كادت تزعزع عقائدهم فقالوا فى استكبار :

— اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم :

وجاء الليل ومد أبو المؤمنين الموائد لرجاله وعبيده وللضيف ، وأقبل رعاته على الطعام يأكلون باسم الله ويحمدون الله على ما رزقهم من خير ، ودار الحديث حول الله والدين حديثا صافيا رقراقا أصفى من الماء المترقرق فى جداول شكيم ، وجاشت نفوسهم بفرح فياض انعكس على وجوههم فتألقت بالنور ، وملأ الإيمان قلوبهم بالقوة والبأس ، فإذا الرعاة البسطاء الذين يرعون الإبل الجالسين تحت أشجار البلوط يبدون فى جلال رعاة الشعوب .

ولم يستقر إبراهيم عند « بلوطة مروة » فهو لا يعرف الاستقرار ، إنه فى رحلة دائمة سواء عليه أفى أور كان أم كان فى حاران أم فى دمشق أم فى شكيم ، فأينما كان فهو مع الله يرجو تجارة لن تبور .

وأمر بالرحيل فانطلقت قافلة الإيمان إلى الغرب تسيح فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، تسير إلى حيث يقودها الله والله فعال لما يريد .

وكانت ترى إلى مدى البصر المروج الخضراء زخرت بجنات

من نخيل وأعناب وتفجرت فيها العيون ودنت القطوف مختلفة ألوانها ، تشرح الصدور وتحرك الألسنة بالتسبيح لمن أنبت فيها كل شيء موزون .

لقد أخذت الأرض زخرفها وازينت وبدت كالفردوس ، ولم تجش فى نفس إبراهيم رغبة أن يضع يده عليها ويستقر فيها فقد أعرض عن جنات الدنيا ، وإنه ليرجو أن يجعل الله الفردوس له نزلا .

وبعد مسيرة يوم بلغت القافلة « بيت إيل » بيت الله ، وكان الناس حيثما سار إبراهيم يعرفون الله ، فبابل : باب الله ، وبيت إيل : بيت الله . إن الناس فى كل مكان يقيمون المعابد لله ولكنهم يشركون مع الله آلهة أخرى .

وكان الجبل شرقى بيت إيل شامخا تكسوه غابات البلوط ، وكانت قمته تتألق بنور لطيف تهفو إليه قلوب المؤمنين . فهناك تطمئن الأرواح فى الصلاة وترشف من نبع الصفا الإلهى وتندمج فى روح الكون ، فى الحقيقة الأزلية .

وراح إبراهيم يرقى فى الجبل وفى أثره القافلة المؤمنة ، حتى إذا بلغوا قمته راحوا ينصبون خيامهم فى ظل أشجار البلوط ، وأخذ المؤمنون يتلفتون : كانت أراضى وادى الأردن تمتد إلى مدى البصر كبساط سندسى أخضر . إنها جنة الرب تنطق بنعمته وتسبح له . ونظروا وراءهم فرأوا البحر وأمواجه المتلاطمة كجياد شهب يجرى بعضها فى إثر بعض كأنما هى فى حلبة سباق فانشرحت نفوسهم : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك !

وفوق أعلى قمة فى ذلك الجبل بنى إبراهيم محرابا ليذكر فيه اسم الله . وليخر المؤمنون لله ساجدين .

وانتشرت الأنعام والأغنام فى الأرض ترعى والرجال والعبيد يحرسونها . ونظر الكنعانيون فرأوا قبيلة عظيمة بها رجال أشداء مسلحون .. قبيلة لا قبل لهم بها جاءت تزاحمهم على مراعيهم . ولم تكن هذه أول قبيلة تجىء للرعى فما أكثر القبائل العربية التى جاءت إلى هذه الأرض ثم هبطت إلى سيناء أو وادى الأردن أو وادى النيل .

وسكت الكنعانيون على مضض حتى إذا دعاهم إبراهيم إلى عبادة الله وحده ونبذ إله القمر « سين » الذى كان يعبد فى بابل وحاران وكنعان . وفى سيناء التى تشرفت بالانتساب إليه ، ثاروا واشتد حنقهم على القبيلة التى جاءت تسب آلهتهم وتسفه أحلام آبائهم الأولين .

وفكر الكنعانيون فى دفع هذا البلاء الذى نزل بهم ، إنهم كانوا دائما فى حماية الفراعين ، وحتى بعد أن ضعفت مصر ووثب الرعاة على الحكم فيها واستولوا عليه لم يتغير الأمر عما كان ، وظل الكنعانيون فى حماية حكام البلاد الأجانب .

إنهم وجدوا ألا قبل لهم بهذه القبيلة التى جاءت من أور بدين جديد تدعو إلى إله واحد له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما ، فليرسلوا إلى ساداتهم فى مصر يستنجدونهم ويلتمسون منهم تخليص آلهتهم مما يتهددها من هوان وخزى .

وركب رجال من الكنعانيين إلى مصر يستصرخون الملك

ويرجونه أن يرسل حملة لتأديب الواغلين الذين وثبوا على عبيده وسبوا آلهتهم ، ويخوفونه مغبة السكوت عليهم ، فإنهم أقوياء أشداء إن لم يخرج اليوم لقتالهم فسيشتد ساعدهم ويغيرون على مصر غدا ينتزعونها من يديه ، ويسبون آلهته .

وتوكل الكنعانيون على ملك مصر وتوكل إبراهيم على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا .

خرج رسل الكنعانيين من إيليا ـ بيت إيل ـ بيت الله ـ يحملون الهدايا إلى ملك مصر ويستصرخونه ويقولون له إن المدينة المعظمة ، المدينة المباركة ، المدينة التي قدسها الصابئة لأن فيها هيكل المشترى باتت مهددة باستيلاء إبراهيم عليها كما استولى من قبل على دمشق ، وأن استيلاءه عليها إن هو إلا خطوة في سبيل الوثوب على مصر .

إن الخطر يهدد المنطقة كلها ، وإنه لخطر يختلف عن كل الأخطار التي حاقت بالناس من زحف القبائل العربية على بابل وسورية ومصر . فالزحف قديما كان يريد الأرض والمرعى والاستقرار . أما زحف إبراهيم فإنما هدفه العقائد والضمائر والنفوس . فهو يزعم أن كل الآلهة التي تعبد في بابل وآشور وسورية وكنعان والجزيرة العربية ومصر إن هي إلا أصنام لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . وأن للعالمين ربا واحدا لا شريك له ، وأن أمم الأرض كلها أمة واحدة .

وبلغ رسل الكنعانيين غزة فاشتروا من أسواقها بعض الإماء هدايا لأمير مصر الوراثي ؛ وللمشرف على أواريس ؛ والوزير ، وحامل مروحة الملك ، ورئيس الرماة ، والمشرف على البلاد الأجنبية ؛ فما كان الطريق إلى الملك ليفتح لهم إلا بالهدايا والجواري والحسان .

. وهبطوا إلى سيناء وكانت الأشجار تغطى الأرض وبعوث المصريين تجوب أرجاءها للتنقيب على النحاس والمعادن النفيسة ، والناس يهرعون إلى معبد سين إله القمر ، فقد كان ذلك المعبد من أهم مراكز عبادته حتى أطلق اسمه على شبه الجزيرة كله .

كان للإله سين مكانة سامية عند العرب أبناء سام وقد رفعوا شأنه أينما حلوا ؛ عبدوه فى بابل ، وقدسوه فى أور وحاران ، وأقاموا له معبدا هائلا فى سيناء ، وآخر فى أسوان وكانت تسمى سين تبركا باسمه .

إن القمر أنيس البدو الذين يسرون فى الليل وقد توطدت بينهم وبينه أواصر حب وإجلال ، وربما ذلك الحب حتى صار تقديسا فعبدوه فى أور باسم نانَّا ، وعبدوه فى حاران وسيناء باسم سين ، وعبدوه فى وادى النيل باسم تحوت وجعلوه كاتب الآلهة جميعا ، وقد جاء إبراهيم ليقول لهم إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم .

ولاحت لرسل الكنعانيين مدينة بلزيوم . وسور الحاكم الذى بنى لصد البدو عن وادى النيل ، وقلعة زل ، والأرض الخضراء التى تروى من قناة خرجت من النيل لتصب فى البحر الأحمر ، فحولت البرزخ الذى يفصل بين البحرين إلى جنة فيحاء تهفو إليها أفئدة القادمين من الصحراء .

وخف حراس الحدود الشرقية إلى رسل كنعان يسألونهم من أين وإلى أين ؟ فقالوا :

— نحن عبيد فرعون قادمون من كنعان لمقابلة ابن رع ، له الحياة والسعادة والصحة ، لنلتمس من جلالته أن ينقذنا من قوم نزلوا بأرضنا يريدون أن يفتنونا عن ديننا ، ويطلبون منا أن نشق عصا الطاعة لمولانا العظيم له الحياة والسعادة والصحة .

وسمح لهم حراس الحدود بالمرور فانطلقوا بهداياهم وجواريهم الحسان فى أرض جوشن وما أخذ الحراس من الهدايا إلا اليسير .

انساب الكنعانيون فى أرض يلفها غموض مقدس : قطط محنطة وثيران محنطة ، والمصريون بملابسهم الكتانية البيضاء يغدون ويروحون . وبحيرات تناثرت وغطت سطوحها أوراق البردى وزهور اللوتس ، والطيور تحوم حول الزوارق وهى تتهادى على الماء .

انساب رسل الكنعانيين فى الوادى الضيق الذى يقودهم إلى شرق الدلتا حيث اتخذ ابن رع عاصمته الجديدة . وقال الكنعانيون إنهم ذاهبون إلى فرعون ونعتوه بابن رع ، وإن كانوا فى قرارة نفوسهم يعلمون أنهم ذاهبون إلى ملك من ملوك الرعاة ، الرعاة الذين استأذنوا أول الأمر ليرعوا فى شرق الدلتا فلما آنسوا ضعفا من الفراعين انتزعوا الحكم منهم .

كانوا فى طريقهم إلى قصر سنان بن الأشل بن عبيد من دان له الوجه البحرى ، ومن يحاول أن يمد سلطان حكام البلاد الأجنبية « حتاو خاسوت » المكسوس إلى الوجه القبلى .

وقد ترجم جده عبيد اسمه إلى لغة الفراعين ليتقرب إلى المصريين فأصبح الملك نحسى (العبد) وصارت له تماثيل فى

أواريس لا تفترق عن تماثيل الفراعنة ، ونسب ابنه سنان نفسه إلى رع وارتدى ما كان يرتديه الفراعنة ومارس ما كانوا يمارسونه من مراسيم .

ودخل رسل الكنعانيين « منديس » وكانت تموج بالناس ، فقد كانت الليلة ليلة الاحتفال بعيد « باسنت » إلهة المرح ، وكان رأسها رأس قطة وكان التقرب إليها بالخلاعة والتهتك والمجون .

فكان الرجال والنساء يعبون الجعة عبا ، والنسوة يطلقن ضحكات ناعمة تفعم جو المدينة بالنشوة ، والخمور تلعب بالرءوس فتلتصق الصدور بالصدور وتبحث الشفاه عن الشفاه .

وتهلل رسل الكنعانيين بالفرح واندمجوا فى الناس ونسوا الخطر الداهم الذى يهدد إيليا ، بيت الله إلى حين ، وأخذوا ينهلون من كئوس اللذة . ولم ينكروا شيئا فسواء لديهم أتضحية الأجساد كانت تقدم على مذبح عشتار أم كانت تقدم على مذبح « باسنت » !

واستأنف رسل الكنعانيين رحلتهم فرأوا الفلاحين يحفرون الترع لتتدفق مياه النيل فى القنوات ، والثيران تجر المحاريث وتشق أخاديد فى الأرض السوداء (كيمى) ، والرجال والنساء والأطفال يبذرون البذور أو يجمعون المحاصيل .

وأخيرا دخلوا أواريس العاصمة الجديدة عاصمة الهكسوس وكانت غاصة بالجنود الأشداء وما كانت أسوارها المتينة وحصونها البيضاء قد بنيت بعد . وكان النسوة فى الأسواق يمارسن التجارة ، والرجال يصنعون الحلى أو يصنعون الخناجر وأدوات القتال

أو ينسجون الثياب أو ينحتون التماثيل للآلهة . وكان تمثال الإله « ست » أكثر ما يقبل عليه الناس فى أواريس .

وكان مردوخ أول أمره إلها محليا فى بابل ، قبل أن ينزع العرب أبناء سام ملك بلاد ما بين النهرين السومريين فرفعوه إلى مرتبة رب الأرباب وإله الآلهة .

وكان « ست » كسائر آلهة الأقاليم إلها محليا يعبد فى شرق الدلتا ، فلما انتزع العمالقة الذين وفدوا من تهامة ملك مصر فعلوا ما فعله العمالقة الذين انتزعوا ملك بابل ، رفعوا « ست » الإله المحلى ليكون رب الأرباب وإله الآلهة .

وانطلق رسل الكنعانيين إلى القصر ليقابلوا الملك الذى فرض عليهم حمايته ، وفى الطريق رأوا تمثالا لنحسى جد الملك وكان يختلف عن الفراعنة وإن ارتدى ثيابهم ووضع على رأسه تاجهم ، كان يمتاز ببسطة فى الجسم وتختلف ملامحه عن ملامحهم ، وقد كتب على التمثال « الملك نحسى محبوب الإله ست رب أواريس » .

وكان بقرب التمثال مسلة قدمها نحسى قربانا للإله ست رب أواريس . وكان آنذاك حديث عهد بحكم مصر وما كان الملك قد استتب له بعد ، فكان متواضعا فأقر الوضع الذى كان عليه « ست » وأنه إله أواريس وحسب ، أما خلفاؤه الذين اشتد ساعدهم فقد رفعوا رب أواريس ليكون رب الآلهة جميعا ، رب الأرباب وإن أحنق ذلك كهنة رع فى أون (هليوبوليس) وكهنة بتاح فى منف وكهنة آمون فى طيبة .

ذهب رسل الكنعانيين للقاء سنان بن الأشل بن عبيد . إنه

من أبناء سام وهم من أبناء سام ، إنه من تهامة وهم من عرب الجزيرة العربية ، ولكن أين هم منه الآن ؟ إنه فرعون من الفراعين ستذكره الأجيال القادمة سواء أطلقوا عليه سنان أم ابن الشمس أم أطلق عليه الإغريق اسم « سلاتيس » (١) ، أما هم فإنهم عبيد فرعون أيا كان ذلك الفرعون .

وبلغوا القصر وقابلوا رئيس الوزراء وقدموا إليه هداياهم وقالوا :

— جئنا نلتمس المثول بين يدى فرعون العظيم ، له الحياة والسعادة والصحة .

ولما فرغوا من مقالتهم قال رئيس الوزراء :

— مولانا ، له الحياة والسعادة والصحة ، فى المعبد يقدم القرابين لإلهنا « ست » العظيم رب الأرباب وإله الآلهة ، له الحمد وله التقديس .

وكان الملك يركع فى المعبد أمام تمثال « ست » ويتلو صلاته ، وكان الكهنة برءوسهم الحليقة وثيابهم البيضاء يطلقون البخور ويقومون بالمراسيم ، وكان الكاهن الأول للإله بقرب الملك يصغى إلى ابتهالاته ، وكان سنان يقول فى حرارة وقد ترقرقت الدموع فى عينيه :

— الحمد لك يا ست يا بن « توت » ، يا صاحب القوة فى سفينة الملايين (سفينة الشمس) ، والذى طرح الثعبان المعادى لرع أرضا ، والذى على رأسه سفينة رع ، ومن صوته عظيم فى الحرب ، ليتك تمنحنى حياة جميلة لأنهض بخدمتك وأحظى

---

(١) ذكر يوسفس نقلا عن مانيتون « أن سلاتيس اول ملوك الهكسوس » .

برعايتك .

ثم نهض الملك وسار يحف به الكهنة ورجال القصر ، وراح يحدث الكاهن الأعظم « لست » ويعده ببناء المعابد لرب أواريس ويمنيه الأمانى ، ويلوح للكهنة بالثراء الواسع ليجذبهم إلى جانبه ويأمن مؤامراتهم .

دخل الملك القصر وراح يتأهب لاستقبال الوفود فأخذ موظفو خزانة الثياب الملكية يغدون ويروحون فى ردهات القصر مزهويين ، فهم يزينون « الحوريس » إلههم الطيب ، الملك الذى بذل كهنة ست كل الجهود ليقنعوا الشعب أنه كفراعين مصر جاء من نسل الآلهة .

وراح مزين الملك يثبت على عارضيه لحية صناعية طويلة ، ويضع على رأسه شعرا مستعارا طويلا ، ووقف المستشار الخاص يحمل التاجين ويرقب مزين الملك فى خضوع ، حتى إذا انتهى من تزيين جلالته وضع المستشار الخاص على رأس جلالته تاج الوجهين البحرى والقبلى ، وزينه بالحلى والجواهر ، ثم ناوله العصا الملكية ، فنهض الإله الطيب وسار إلى قاعة العرش فى خيلاء وعلى رأسه التاجان ، وإن كان الوجه القبلى لم يخضع بعد لحكم « الحتاوخاسوت » الهكسوس .

وأذن لرسل الكنعانيين بالدخول على جلالته ، فتقدموا فى الفناء الأول وكانت تزينه أعمدة البردى وهم مأخوذون ، واستولى على قلوبهم رعب شديد إذ كانوا يقتربون من ذلك الكائن الذى يفوق البشر ، والذى كان يستطيع بكلمة تخرج

من بين شفتيه أن ينقذهم مما هم فيه .

ورأوا الشرفة التي يشرق منها جلالته من أفقه على شعبه ، ولم يكن للمصريين عهد بمثل تلك الشرفات فهى منتشرة فى سورية وبلاد الكنعانيين ، وقد أدخلها ملوك الرعاة إلى البلاد فيما جلبوا به من حضارة وخيل وعربات وأسلحة حربية . وتقدم رسل الكنعانيين من المقصورة التي استوى الملك على عرشه فيها فخفقت قلوبهم وارتعدت فرائصهم . وراح من سيتحدث منهم إلى جلالته يجمع شتات فكره ليتذكر ما لقنه إياه رجال القصر من مديح يثلج به صدر الإله الطيب الذى يرعى بلاده رعاية الوالد الحنون لابنه ، ويمجده رعاياه ويخشاه أعداؤه ، وتوقره الكهنة كابن حقيقى لرع إله الشمس العظيم .

ودخل رسل الكنعانيين قاعة العرش وما لاح لهم الملك حتى خروا له ساجدين : فلما أذن لهم أن يرفعوا رءوسهم تقدم الناطق بلسانهم بين يديه ، وانحنى وقبل قدمه ، ثم وقف فى خشوع .

وكان الملك يجلس على عرش الأحياء ، وهو مقعد مكعب الشكل ظهره قليل الارتفاع وليس له مساند جانبية ، تزين قواعده زخارف تحكى ريش الطيور ، وقد وضعت فوق المقعد وسادة ؛ وحف بالملك الأمير الوراثى والوزراء ، ووقف عن يمين الملك حامل المروحة ورئيس الرماة والمشرف على البلاد الأجنبية ورئيس المازوى (جنود الشرطة فى الصحراء) والكاتب الملكى والمشرف على الخيالة والكاهن الأول للإله ست .

وراح الرجل يلقى بين يدى الملك خطبة طويلة كلها تملق

ورياء ، قال فيما قال :

— يا من أنت مولانا ، يا من يجرى كل شيء كما يشاء قلبك ويهوى ، أى شيء ذلك الذى لم نحط به خبرا ؟ فما من شأن أبرم دون علمك ، يا من إله الذوق فى فمك . ويا من عرش لسانه فى معبد الحق . ويا من يستوى الإله فوق شفتيه . ويا من كلماته تطاع وتجلب السعادة والخير . وراح الرجل يكيل المديح للملك حتى انتفخت أوداجه فقال وهو يشمخ بأنفه :

— لقد سررنا جلالتنا سرورا كبيرا مما تقول لأنك تفهم كيف تقول ، فالتمس ما تشاء لنقضى جلالتنا لك حاجتك .

وتهللت أسارير رسل الكنعانيين ونزل بقلوبهم الفرح فقد وعد ملك أواريس أن يستجيب لطلبهم . وقال رجل كنعان :

— لقد نزل بأرض عبيد مولاى قوم من البدو أطمعهم كرمنا فينا ، فلم يكتفوا بالرعى فى مراعينا ومزاحمة مواشيهم لمواشينا بل طعنوا فى آلهتنا وسفهوا أحلامنا . وقالوا : ما بعل وعنت وآلهتنا الأخرى إلا أصنام لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، وراحوا يسخرون بنا وبمعتقداتنا وبآلهتنا .

وقال الكاهن الأول للإله ست :

— وما هى دعواهم ؟

— دعواهم أن لا إله إلا الله ربهم ورب العالمين . فهم يريدون بهذه الدعوى أن يستولوا على الدنيا بأسرها . وأن تخضع لهم كل الدول والممالك وشعوب الأرض طرا .

وضحك الملك ملء شدقيه وقال :

— أجعلوا الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب !

وقال كاهن ست :

— لن يصبر مولانا المحبوب من ست ومن الآلهة جميعا على هذا الفساد . إن إلهنا ست ، من صوته عظيم فى إلحرب ، ما شرع الحروب وما بارك المحاربين إلا ليصون كلمة الآلهة ويجعلها هى العليا فى الأرض وفى السماء . إن إلهنا العظيم ست ابن « توت » وصاحب القوة فى سفينة الملايين . ومن طرح الثعبان المعادى لرع أرضا : قد حمل سلاحه وخرج لقتال هؤلاء الذين عابوا الآلهة وأغضبوا أرباب السموات .

قال كاهن ست كلمته وإنها لكلمة السماء . فكان على الملك الإله الطيب أن يجيب دعوة إله أوزيريس ، فالتفت إلى رسل الكنعانيين وقال :

— نصرتم ، ليقومن جنودى بتأديب المفسدين .

أوقد إبراهيم النيران فى الليل يدعو الضيف إلى طعامه ، وأمست خيامه تغص بالناس الذين يأتون ليطعموا ويلقوا سمعهم إلى الشيخ الجليل الذى يتحدث فى إيمان عميق عن الله الواحد ، رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين .

ودار بين إبراهيم والصابئين حوار طويل يدور حول الله واليوم الآخر وملائكته ورسله ؛ وكان الصابئون فى إيليا ؛ بيت إيل : بيت الله ، قلة . وكانوا يؤمنون بالله قبل أن يدعوهم إبراهيم إليه ، فهم الذين أطلقوا على بابل اسمها باب الله ؛ وهم الذين أطلقوا على إيليا المدينة التى نزل بها إبراهيم ومن معه : بيت الله . إلا أن شوائب علقت بعقائدهم ، فيجادلهم إبراهيم ليطهر دينهم مما يكاد أن يفسده .

كانوا فى مصر مذ كان إدريس عليه السلام فى منف ؛ وتلقوا على يديه عقيدة التوحيد ، ثم تلقوها على أيدى الأحبار الذين كانوا يدينون بدين إدريس . فلما طال على المصريين الأمد ونسجت الأساطير حول إدريس وصورته فى صورة أزريس الإله الذى قتله أخوه ست ، ثم قطع أعضاءه وبعثرها فى أنحاء البلاد وراحت زوجته إزيس . تجمع أعضاءه المبعثرة لتعيد إليه الحياة ، وما كان من أحداث حتى أصبح أزريس إله العالم السفلى الذى يقيم الميزان

لحساب البشر على أفعالهم — تحول المصريون عن الدين القويم إلى الديانات التى ابتدعها الكهنة ليثروا ويزدادوا غنى ، فهاجر الصابئون من مصر فرارا بدينهم ؛ ونزل بعضهم فى سورية وحاران . واستأنف الباقون هجرتهم حتى استقروا فى أرض بابل جنوب بلاد ما بين النهرين .

وكان الصابئون يعتقدون أن أول بيت بنى لعبادة الله بمكة ، وأن إدريس عليه السلام هو الذى بنى الكعبة ، وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة وأن الطوفان غمرها فيما غمر ، إلا أنهم كانوا يطوفون حول هياكلهم أسوة بطواف إدريس حول الكعبة . وكانوا يبنون هياكلهم من القصب كما تبنى الخيام ، وكانوا يتحرجون من ملامسة غير الصابئين ويطهرون إذا لمسوا غريبا فى أثناء عباداتهم ؛ وكانوا يصومون ثلاثين يوما متفرقة فى السنة ، وكانوا يصلون لله ويتوجهون فى صلاتهم إلى القطب الشمالى لأنه ثابت فى مكانه لا تختلف له فلك باختلاف الزمان .

وكانوا يبنون مساكنهم بالقرب من الأنهار لحاجتهم الدائمة إلى التطهر بالماء . ولذلك أطلق عليهم اسم الصابئين أى « السابحين » فإن ملامسة الغريب فى أثناء العبادة توجب عليهم الاغتسال والسبح فى الماء .

إنهم قلة ، قليل عددهم خطير شأنهم ، يكتمون كتابهم أشد الكتمان وسموه « كنزة » . وهم يباشرون شعائرهم فى الخفاء ؛ ويتقاسمون الخبز المقدس علامة على الأخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونان وأن الخلق خلقان ، فالكون الظاهر غير الكون

الباطن . ولكل مخلوق فى عالم الشهادة صورة محجوبة فى عالم الغيب . حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن ، وأهل الباطن لا يراهم من يعيشون فى الظاهر .

إنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويؤمنون بالحساب والعقاب ، وأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور « آلمى دنهورا » . وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام « آلمى دهشوخا » . فيلبثون فيه زمنا على حسب ذنوبهم ثم ينتقلون منه إلى عالم النور .

إنهم ينزهون الله غاية التنزيه ، ويقولون إن الكواكب ملائكة نورانية ، وأنه لا بد من مخلوق وسط بين الروحانية و المادية يهدى الناس إلى الحق : لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا دعاها بأسمائها فكانت . ولا يصل كلام الله إلى الناس إلا بوساطة مخلوق وسط بين النور والتراب ، ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله .

ووجد الصابئون فى إبراهيم ذلك المخلوق الذى يجمع بين التراب والنور : رفعته الرياضة والهداية ونعمة الله إلى المرتبة السامية التى تؤهله إلى تبليغ رسالات الله إلى الناس .

كان إبراهيم يدعو إلى وحدانية الله وكانوا يؤمنون بالله الواحد القهار . وكان إبراهيم يدعو إلى الصراط المستقيم وأن كل نفس تجزى بأعمالها ، وكانوا يؤمنون باليوم الآخر وبالحساب وبالجنة وبالنار ، وكان إبراهيم يدعو إلى نبذ الأصنام وقد صنعوا أوثانا للكواكب ، ومن هنا كان الاختلاف وحول أصنامهم دارت المناقشات ،

قالوا : خلق الله الروحانيات ؛ خلق الملائكة ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر إلى أمثلة لهذه الكواكب يراها العيان حين يشاءون صنعوا لها صورا من الأوثان .

قال إبراهيم : إن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله ، يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر ؛ وأن الأصنام التى يصنعونها لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ونهاهم عن عبادة ذلك الإفك .

وقالوا إنهم يتوجهون إلى القطب الشمالى وإلى الكواكب عامة ، ولكنهم لا يعبدونها بل يعدونها من مظاهر الروحانيات التى لا تبرز للعيان .

ودارت المناقشات ليالى وأياما بين إبراهيم والصابئين (١) حتى آمنوا بما يدعوهم إليه من نبذ الأصنام ، وشهدوا أن إبراهيم رسول الله ، وراحوا يدونون تعاليمه فى كتابهم «كنزة» .

وبدأ الدين الجديد يشرق بنوره على بيت إيل ، بيت الله ، وراح اسم الله يتردد فى جنبات المدينة حتى كاد يقضى على بعل وعنت وعشتار والآلهة الأخرى ، وأحنق ذلك كهنة الآلهة فراحوا يتعجلون عودة الرسل الكنعانيين الذين فزعوا إلى ملك مصر .

وكان إبراهيم يقف فى محرابه يصلى لله ، وكان المؤمنون يصطفون خلفه ملائكة بررة ، ترق نفوسهم وتسمو أرواحهم

---

(١) يعجب الباحثون لتنويه القرآن بهذه الملة مع قلة عددها وخفاء أمرها .

حتى تكاد أن تتصل بنور الله : وكانت سارة تصلى فى خيمتها لله بصوت رخيم يأخذ بمجامع القلوب ويجعل الأعين تفيض بالدموع . كان وجهها الجميل غاية الجمال يشرق بنور الإيمان ، فيضفى عليها جمال الروح جمالا فوق جمال .

وجاءتها فى سكون الليل جارية وقالت لها إن امرأة من المؤمنات تضع وليدها ، فقامت سارة وسارت خلف الجارية إلى حيث تقودها . وسارتا بين الخيام تغوصان فى الظلام . ولم يكن فى السماء نجوم تتلألأ وقد غاب القمر : فأخذتا تتحسسان طريقهما حتى إذا بلغتا خيمة فى أقصى المعسكر غابتا فيها .

وكان فى الخيمة امرأة تتلوى من الألم : فلما وقعت عيناها على سارة وهى تبتسم لها مشجعة انبسطت أساريرها ورفت على شفتيها بسمة والتمعت عيناها ببريق الاطمئنان . وجلست سارة ترقب أعجب انفصال . انفصال روح من روح . وكانت لا تفتر عن التسبيح لله .

وتلقت سارة على يديها الوليد الجديد وشنفت أذنيها صرخاته والنشوة تفيض على وجهها ، لقد شهدت ميلاد كل أطفال المؤمنين والعبيد مذ خرجوا من أور وكانت تتهلل بالبشر كلما ولد فى قافلة الإيمان مولود : كانت تحس أن كل هؤلاء الأولاد الذين ولدوا فى حاران وفى الطريق من حاران إلى دمشق وفى دمشق وفى بيت الله ، إنما هم ذريتها :

كانت سعيدة غاية السعادة بيد أن كدرا كان يشوب تلك السعادة كلما سمعت زوجها يدعو ربه وهو واقف فى محرابه :

« رب هب لى من الصالحين » . كان فى شوق إلى أن يكون له ذرية . وقد مرت السنون وعجزت عن أن تحتق له ما تهفو إليه نفسه الزكية . ليت الله يستمع لدعاء رسوله : دعاء خليله . إنها ترجو بكل خلجة من خلجاتها . بكل نبضة من نبضات قلبها أن يستجيب الله إلى دعاء حبيبه ، وإن كانت تلك الاستجابة تسيء إليها وتعذب روحها :

إن الله يعلم السر والنجوى ، وهو علام الغيوب . وكان أمره قدرا مقدورا ، ولكن خلق الإنسان عجولا .

وخرجت سارة فى عماية الصبح من الخيمة إلى خيمتها ولم تكن الحياة قد دبت بعد فى مساكن إبراهيم . وكان نور فضى يجاهد لينتشر فى الأفق الشرقى ، ومس أذنى سارة صوت آت من بعيد ، صوت حوافر خيل ووقع أقدام ، فالتفتت ناحية الصوت فإذا بأشباح تتقدم .

واستولى عليها الخوف وراحت تجاهد لتميز تلك الأشباح . إنهم يقتربون ، إنهم رجال يضع كل منهم على رأسه ريشة أو ريشتين من ريش النعام ، ويلفون أعلى أجسامهم بشرائط ضيقة ، ويحملون فى أيديهم أقواسا كبيرة وهراوات وفئوسا للقتال ، وبعضهم على ظهور الجياد .

ورأتهم سارة فى وضوح ، إنهم جنود مصر ما جاءوا إلا للغارة عليهم ، فصرخت صرخة أيقظت الرجال فهبوا من نومهم مفزوعين وخرجوا من خيامهم ينظرون .

ودبت الحياة فى المكان فجأة ، فكان إبراهيم ومن معه

يجرون هنا وهناك ويتأهبون لصد ذلك العدوان الذى داهمهم دون إنذار . وفزع الرجال إلى أقواسهم وسهامهم وهراواتهم وفئوس قتالهم . وتراءى الجمعان وراحوا يتراشقون بالسهام ؛ وأخذ الجنود المصريون ينتشرون فى الأرض ويحاولون أن يضربوا نطاقا حول خيام إبراهيم .

ووصلت السهام إلى حيث كانت الأنعام . فهاجت الثيران والإبل والأغنام على وجوهها وانتشرت فى ميدان القتال تثير النقع وتشيع الفوضى وتقتلع الخيام وتجرى وتلف وتدور دون أن تلوى على شىء ؟

واشتبك الرجال بالرجال ؛ وخرج النسوة يعاونّ المؤمنين على صد العدوان . وحمى وطيس القتال . ومال الفرسان على النساء وأخذوا يأسرون كل من تقع منهن فى أيديهم .

واحتدمت المعركة . وارتفعت الشمس فى السماء . وتفصد العرق وسالت على الأرض الدماء . وانتثرت الجثث أشلاء . ونال الجهد والتعب من الرجال ، فخف القتال ثم توقف . وقنع المصريون بما أصابوا فعادوا أدراجهم يحملون معهم ما أسروا من نساء ورجال وأطفال .

وراح إبراهيم يبحث عن سارة فى خيمتها فلم يجدها ؛ وانتشر بين المؤمنين خبر اختفائها فأخذوا يبحثون عنها فى كل مكان فلم يهتدوا إليها ولم يجدوا لها أثرا ؛ فما كانت بين النساء وما كانت بين الجرحى ولا بين القتلى . وقالت امرأة وقد غامت عيناها بالدموع :

— لقد أسرت فيمن أسر ! حملها المصريون معهم يا حسرتاه !

ولم يجزع إبراهيم ولم يستسلم لحزنه . إنها إرادة الله والله فعال لما يريد ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . فإن كانت سارة أسرت وحملت إلى مصر فهذه مشيئة الله ولا راد لمشيئته . فمن يدرى فلعل البركة فيما أراده الله ، فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .

والتفت إبراهيم إلى لوط وإليعازر الدمشقى وبعض المؤمنين الذين التفوا حوله وقال :

— إلى مصر .

وامتطى الرجال رواحلهم وانطلقوا إلى مصر ، إلى حيث أراد الله لتتم إرادته ، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون .

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

« هاجر المصرية أم العرب »

تذييـــــل

كنت وأنا تلميذ بالمدارس الابتدائية أجلس مع والدى وأصدقائه كل مساء ، أصغى فى انتباه إلى القارئ وهو يقرأ فى « السيرة النبوية لابن هشام » . فقد كان أبى وأصدقاؤه يجتمعون كل ليلة فى منظرة الدار (السلاملك) ليقرءوا كتابا فى الأدب أو التاريخ ، وكانت أحاديثهم كلها تدور حول محمد — صلى الله عليه وسلم — وحقبة صدر الإسلام .

وكان تاريخ محمد — صلوات الله عليه — وما يدور حوله يستهوينى ويأخذ بلبى ويستولى على كل انتباهى . وما انتهوا من قراءة السيرة النبوية لابن هشام حتى راحوا يقرءون « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، فأعجبتنى طريقة الدكتور فى السرد ، وجعلتنى أعيش بكل جوارحى فى ذلك العصر الذى استطاع الدكتور طه ببراعته أن يجعله ينبض بالحياة .

وشببت وأنا معجب بمحمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فلما عرفت كيف أقرأ عكفت على قراءة كتب السيرة وما كتب عن الرسول الكريم فازداد إعجابى بشخصيته الفذة الفريدة .

وهويت الكتابة فكانت أمنيتى مذ حملت القلم أن يوفقنى الله إلى كتابة السيرة النبوية فى أسلوب قصصى يجذب القارئ ويجعله يعيش الأحداث التى عاشها ناس أعزاء علينا كانوا يملئون

(إبراهيم أبو الأنبياء)

الأرض حياة من مئات السنين .

وهممت بكتابة السيرة العطرة أكثر من مرة ، ولكنني كنت فى كل مرة أحجم ليقيني أني لم أصبح أهلا بعد لمعالجة مثل هذا العمل الشاق . ومرت الأيام وأنا بين الإقدام والإحجام ، وأخيرا توكلت على الله وبدأت فى كتابة الجزء الأول من السيرة مبتدئا بأبى الأنبياء إبراهيم الخليل أبى المؤمنين جميعا وأنا ما أزال على يقين أنى أعجز من أنهض بمثل هذا العمل .

أقدمت على الكتابة خشية أن يفرغ الأجل دون أن أحقق أعز أمنية راودتنى فى العشرين سنة الماضية ، فإن كنت أصبت فمن عند الله ، وإن كنت أخطأت فمن عندى وأرجو أن يغفر لى الله خطئى ، وشفيعى أنى اجتهدت وبذلت ما فى طاقتى ملتمسا الحقيقة على قدر علمى واجتهادى .

اخترت أن أكتب السيرة بأسلوب قصصى ، وأنا على علم بما يعانيه كاتب التاريخ من مشقة إذا حاول أن ينهج فى كتابته نهج القصة ، فانه سيشق فى سبيل دراسة أشخاص السيرة دراسة دقيقة ليبرز ملامحها وجوانبها . وسيبذل كل الجهد لتصوير الحياة اليومية والمعتقدات والديانات السائدة بأدق تفاصيلها ، وتفاعل الشخصيات مع البيئة ، والاعتماد على الخيال فى سد الثغرات والفجوات التى تعترض التسلسل الزمنى ، على أن يتناسق الخيال مع المادة التاريخية ليبرز جوهر الحقيقة ويعين على استقراء الأحداث لتوفير التسلسل المنطقى . إنه جهد شاق ولكنه يهون فى سبيل إتاحة الفرصة للقارئ ليأخذ الكتاب فى يسر دون جهد أو تعب .

حاولت جهدى — وإن كنت أكتب قصة أو ما يشبه القصة — أن أحافظ على الحقيقة التاريخية ، فما من حادثة دونتها إلا ولها سند . وقد محصت الروايات المختلفة واخترت أقربها إلى المنطق وروح الدعوة ، وإن تعارضت مع ما ورد فى التوراة أو بعض الأحاديث أو مع المتواتر بين المؤرخين .

وقد رأيت من الأمانة أن أشرح النهج الذى انتهجته فى هذا الجزء من السيرة ، وأكشف عن الأفكار التى دارت فى رأسى وتعذر سردها فى القصة بسبب السياق الفنى الذى اخترته .

كما عزمت أن أدون — بعون الله — فى نهاية كل جزء من أجزاء السيرة الأفكار التى تصارعت فى ذهنى قبل أن أطمئن إلى الرأى الذى دونته فى ثنايا الكتاب ، ليطلع القارئ على كل وجهات النظر ، لعل الله ينير بصيرته فيرى رأيا أصوب مما اطمأن إليه قلبى .

وقبل أن أعرض مواضع الخلاف بين ما ورد فى التوراة وبعض الأحاديث النبوية المشكوك فى صحتها والمتواتر فى كتب التاريخ وبين كتابى هذا . سأعرض فى لمحة سريعة المنهج الذى اتبعته والمذهب الذى اتخذته نبراسا فى أثناء بحثى عن الحقيقة .

يقول المشتغلون بالعقائد والديانات بتطور الدين ، وأن الحضارة ظهرت على وجه الأرض منذ اليوم الذى ظهر فيه فجر الضمير ، وأن الإنسان سار فى طريق الرقى ودرج فى مدارج السمو منذ ذلك اليوم فعرف الآلهة والبعث بعد الموت والثواب والعقاب . وأكد المتحمسون لمبدأ التطور أن الديانات السماوية استمدت أصولها من ديانات قدماء المصريين والبابليين والآشوريين .

ورجعت إلى القرآن الكريم أبحث عن نشأة الدين فاهتديت إلى أن الإنسان منذ خلقه الله وهو على علم : « وعلم آدم الأسماء كلها » وأن هذا العلم انتقل من آدم إلى بنيه ، وأن الصلة بين آدم وبين الله لم تنقطع بهبوط آدم إلى الأرض : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ، فمما لا شك فيه أن آدم وبنيه عرفوا الله الواحد القهار حق المعرفة ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وأشركوا بالله غيره وجعلوا له أندادا ونسجوا حول الحقيقة التى بلغتهم أساطير ، فمن المقرر أنه لا يمكن خلق شىء من لا شىء ومن هنا جاءت اللمحات الصادقة فى عقائد المؤمنين :

إن الله عدل وهو أحكم الحاكمين كتب على نفسه الرحمة ، وقضت سنته ألا يعذب الناس حتى يبعث فيهم رسولا ينذرهم ويبشرهم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » « ولكل أمة رسول » « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة » « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

فكلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وأشركوا بربهم بعث إليهم رسله ، فقام إدريس فى منف يدعو الناس إلى عبادة الله له ما فى السموات والأرض ، وحدثهم عن البعث والحساب والميزان والجحيم والجنات التى أعدت للمتقين ، فآمن المصريون بالله وبأن إدريس عبده ورسوله : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا » .

واعتنق الصابئون دين إدريس قبل أن يبعث الله نوحا وإبراهيم وقبل أن تقوم فى مصر دولة .. عرف المصريون الله قبل أن يعرفوا

أمون وأزريس وآتون . وقد ربطت بين إدريس وعقيدة أزريس لأنى رأيت أن إدريس كان فى منف وأن أزريس كان فى منف وهو بعد على الأرض قبل أن ترفعه الأساطير إلى السماء ، ولأن كتب التاريخ تقول إن إدريس هو أول من علم الناس الزراعة وأن أزريس هو أول من علم الناس الزراعة ، وأن إدريس هو أول من خط بالقلم وأن أزريس هو الذى علم المصريين الكتابة ، وأن الله رفع إدريس مكانا عليا وأن الأسطورة رفعت أزريس إلى السماء .

وسواء أكانت أسطورة أزريس نسجت حول إدريس (١) أم نسجت حول حقيقة أخرى . فمما لا شك فيه أن المصريين آمنوا بالبعث بعد الموت وبالحساب وبالثواب والعقاب بعد دعوة إدريس ، وأن الصابئين الذين كانوا فى مصر قبل أن يفسد دين القوم ثم هاجروا منها بعد أن فسد الدين إلى جنوب العراق يؤيد هذه الحقيقة ، حقيقة معرفة الله والبعث والحساب قبل عصر الأسرات .

عرف المصريون من إدريس أن الله علم آدم الأسماء كلها فقالوا : إن بتاح (إله منف) نطق بأسماء كل الأشياء ، كما عرفوا التوحيد الصحيح قبل إخناتون بآلاف السنين .

كان هذا هو المذهب الذى اتخذته نبراسا لى فى أثناء كتابة هذا الجزء من السيرة ، وسيكون هو نفسه نبراسى — إن شاء الله — فى الأجزاء التالية .

وكثيرا ما يسخر الذين يحسبون أنهم على شىء ، من الذين يؤمنون بالغيب فى عصر الذرة والمعمل وأنبوبة الاختبار ، ويتخذون

(١) انظر تذييل الجزء الثانى عن أزريس وادريس .

الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون هزوا ، ويزعمون أن لن يجعل الله لهم موعدا كأن عندهم الغيب فهم يكتبون .

لن نعرض عن هؤلاء الساخرين الهازئين وسنجادلهم بالتى هى أحسن ، وسنذهب معهم طائعين إلى المعمل لنرى ما الذى تثبته أنبوبة الاختبار ، عسى أن يهدينا علام الغيوب جميعا سواء السبيل :

ولقد نجح المعمل فى أن يجعل تيارا يسرى فى سلكين أحدهما سالب والآخر موجب وأن ينير السلكان مصباحا ، ونجح فى أن يولد الكهرباء : وهذا بلا مراء نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون . وينهض سؤال : ما هى الكهرباء ؟ لقد رأينا أثر الكهرباء وما تفعله الكهرباء من أعاجيب ، أما الكهرباء فهى شىء مجهول لم ندرك كنهه . إنها غيب وسبحان علام الغيوب .

ونجح المعمل فى أن يمغنط قطعة من الحديد وأن يجذب المغناطيس المسامير ، وتنوعت استخدامات المغناطيسية وهذا بلا مراء نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون ، وينهض سؤال : ما هو المغناطيس ؟ ولا جواب إلا أنه مجهول ، غيب ، وسبحان علام الغيوب .

ويقول العلم الحديث إن الضوء يتكون من تموجات تنتقل فى الأثير ، ويعرّف الأثير بأنه ذلك الذى تنتقل فيه تموجات الضوء ، وهذه حقيقة تمكننا أن نسلم بها ونبارك الجهود الصادقة التى بذلت للوصول إليها ، بيد أننا فى نفس الوقت نجد أننا تسجل لغوا وتنهض أمامنا مشكلة : ما هو هذا الأثير ؟ وما هى خواصه الطبيعية ؟ غيب .. وسبحان علام الغيوب .

وكانت الذرة منذ عهد قريب أصغر وحدة فى الوجود ، ثم

حطمت الذرة وأصبحت إلكترونات : واجتهد المعمل لينتج أزواج الإلكترونات بالجملة ، ونجح : وعرفنا أن تيارات فى جسيمات ذات طاقة عالية تأتينا من الفضاء البعيد تولد أزواج الإلكترونات بالجملة ، وأطلقنا على هذه الظاهرة « رذاذ الأشعة الكونية » . وبحثنا عن منشأ هذه التيارات التى تجرى فى جميع الاتجاهات إلى رحاب الفضاء : فإذا بنا أمام لغز ، أمام المجهول ، أمام الغيب ، وسبحان علام الغيوب .

ووصل المعمل بعد تحطيم الذرة إلى وحدات أولية تتكون منها الذرة هى النوويات والإلكترونات والنويترنيات ، وهذا بلا مراء نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون ، ولكن على أى أساس يحق لنا أن نفرض أن هذه الوحدات غير قابلة للتجزئة إلى أجزاء أصغر ؟ ألم يكن مفروضا منذ نصف قرن مضى أن الذرة غير قابلة للتجزئة؟ إننا أمام غيب وسبحان علام الغيوب .

وركز المعمل جهوده لاكتشاف سر الخلية الحية لغز الحياة ، وراح العلماء يفرضون فروضا . إن الخلية تتكون من فيروسات ، وهذه مواد كيماوية معقدة ، ثم يتحدثون عن الجسيمات الفيروسية التى ينبغى أن تعتبر كجزيئات كيمائية عادية ، وفى نفس الوقت ككائنات حية ، فهى بذلك تمثل « الحلقة المفقودة » بين المادة الحية والمادة غير الحية .

ونجد أنفسنا مرة أخرى أمام فروض وحلقات مفقودة ولغز لا يعرف العلماء حله ، نجد أنفسنا أمام الغيب . ولو استطردنا فى استقراء نتائج التجارب التى تجرى فى المعمل وأنبوبة الاختبار

لخرجنا بحقيقة واحدة مؤكدة هى أن الغيب هو الحقيقة العلمية الوحيدة الثابتة .

لقد سخر الذين يحسبون أنهم على شىء من الذين آمنوا بالغيب ؛ وسخر الله منهم ؛ وحاق بالذين سخروا ما كانوا به يستهزئون ، « ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله » ، « فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » .

كان الإنسان على علم منذ خلقه الله ، وكان يؤمن أن الله عنده مفاتح الغيب ، وكان يخشع قلبه لذكر الله ؛ فلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم بعث الله رسله ليقولوا : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟) .

إنها دعوة واحدة منذ آدم : إله واحد : « إلهكم إله واحد » ، « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . وأمة واحدة ، « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وبهذا الفهم جعلت إبراهيم ينطق بآيات جاءت فى القرآن الكريم على ألسنة رسل آخرين ، آيات جاءت لتوضيح الدعوة وإلزام الكافرين الحجة ، آيات جرت على لسان أكثر من رسول لتأكيد أن الدعوة واحدة لم يطرأ عليها ذلك التطور المزعوم . « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وما أردت بكتابة هذه السيرة فى هذا العصر الذى طغت فيه المادية إلا أن أعرض حقبة مشرقة من تاريخ البشرية ارتفع فيها الإنسان حين أسلم وجهه لله ورفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق

الطبيعة ، حقبة تحرر فيها من العبودية ، من أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا ، من أن يكون عبدا للشهوات ورغبات الجسد . من أن ترتعد فرائصه خوفا من بطش الأقوياء وظلم الظالمين .

لقد أذلت الدنيا الإنسان قبل أن يعرف إلهه وإنها لتذله كلما أعرض عنه ، بيد أنه أذلها يوم عرف أن إلهه له ما فى السموات وما فى الأرض بيده الأمر كله فعال لما يريد لا معقب لحكمه ، وإنه ليذلها كلما توكل على الله رب العالمين .

أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيرا روحيا ، وأن أطهر ضمير الإنسان من أدران المادية الطاغية ، وأن أعيد إليه رفاهته التى بلغت غايتها فى ظل الدين ، وأن أعيد إلى الإنسان كرامته التى تتألق وتزكو كلما سما فوق مطالب الأبدان وضرورات الغرائز وما تهفو إليه النفوس .

وقد اعتمدت فى كتابة هذا الجزء من السيرة على القرآن الكريم ، وعلى الأحاديث والتوراة وكتب التاريخ فيما يتفق مع القرآن وطبيعة الدعوة وصفات خليل الرحمن الأب الصديق الأواه الحليم الذى وفى ، فإذا ما وقع خلاف بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى الأحاديث أو التوراة ، فقد كنت آخذ بما جاء فى القرآن الكريم .

وكان أول خلاف بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى التوراة نسب إبراهيم واسم أبيه ، فقد جاء فى القرآن : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... » وجاء فى التوراة أن إبراهيم بن تارح ، وحاول كثير من المفسرين المسلمين أن يقضوا على ذلك التناقض فقالوا

إن آزر بمعنى أعرج أو إنه اسم صنم ، ولكنى رأيت أن آخذ بما جاء فى القرآن دون تلك المحاولات التى بذلت بحسن نية لأنى أومن بما يؤمن به اليهود السامريون بصحة الإصحاحات التى نزلت على موسى ، أما ما جاء بعد موسى فهو من قبيل تسجيل اليهود لتاريخهم ، ولأنى قرأت كذلك فى كتاب الله : « ... إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

وقد ذكر يوسيفوس المؤرخ المسيحى اليونانى أن أبا إبراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم سنكلر تسديل أن للاسم أصلا فى الفارسية القديمة بمعنى النار .

واختلف اليهود والمفسرون والمسلمون فى قرابة سارة من إبراهيم فقال اليهود إنها أخت غير شقيقة لإبراهيم من أبيه تارح ، وجاء فى « المشنا » وهو من أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة أن سارة هى بنت أخيه هاران . وروى الحافظ ابن كثير أن المشهور أنها ابنة عم لإبراهيم يسمى هاران . ويقول ابن إسحاق الثعلبى صاحب قصص الأنبياء إنها ابنة عمه ولا يذكر اسمه . وقد أخذت برواية المفسرين العرب لأن عادة تزوج الأخت لم تكن منتشرة بين العرب الذين خرجوا من جزيرة العرب وأسسوا مملكة بابل وآشور واستولوا على سورية ودلتا النيل ، هؤلاء العرب الذين أطلق عليهم أحد المؤرخين فى القرن الثامن

عشر اسم « الساميين » (١) لأنهم من نسل سام ، وجاريناه جميعا فى تلك التسمية .

وقد أفاض الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « أبو الأنبياء : الخليل إبراهيم » فى نسب إبراهيم وقرابة سارة منه ، وفى أوجه الخلاف بين ما ورد فى التوراة وما جاء فى كتب اليهود .

ولم يذكر القرآن ولا الكتاب المقدس أن إبراهيم استولى على دمشق وإن ورد اسم إليعازر الدمشقى فى التوراة وكان صاحب خزائن بيت إبراهيم ، مما يدل على أن هناك علاقة بين إبراهيم الخليل ودمشق ، وقد اعتمدت على رواية المؤرخ اليهودى يوسيفوس الذى ولد فى القرن الأول للميلاد إذ ذكر أن إبراهيم كان ملكا على دمشق .

واعتمدت كذلك على يوسيفوس عندما ذكرت أن سارة أخذت أسيرة إلى مصر ، وتركت ما ورد فى التوراة من أنه « حدثت مجاعة فى الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ، وقال لسارى امرأته وهو على مقربة من مصر : إنى علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فإذا رآك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك، قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك » .

« فلما دخل إبرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جدا ، ومدحها رؤساء فرعون لديه فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيرا بسببها ، وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد

---

(١) انظر تذييل الجزء الثانى عن الساميين .

وإماء وأتن وجمال » (١) .

أهملت هذه الرواية عن عمد لأنها لا تتفق مع خلق إبراهيم خليل الرحمن ، الرجل الذى وقف فى وجه الجبارين ولم يرهب الطغاة ، الرجل الذى ألقى فى النار وهو ثابت الجنان ، فكيف يرضى مثل هذا الرجل القوى الذى يعرف أن الله معه أن يبرز مفاتن زوجته ويدخلها على فرعون لينال خيرا بسببها ويصبح له بقر وغنم وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال ؟ !

قد يحتج بأن هناك حديثا نبويا يؤيد رواية التوراة ، وعندى أن هذا الحديث هو من الأحاديث التى افتريت على رسول الله ، فمحمد — صلى الله عليه وسلم — أكيس من أن يتهم إبراهيم بالكذب ، ولا يقبل المنطق السليم صدور مثل هذا الحديث عن محمد — صلى الله عليه وسلم — الذى يدعو المسلمون فى صلواتهم أن يصلى الله على محمد وآل محمد كما صلى على إبراهيم وآل إبراهيم ، ويبارك على محمد وآل محمد كما بارك على إبراهيم وآل إبراهيم .

والحديث مختلف عليه بين الفقهاء وعلماء الأصول وهو يقول :

حدث أبو هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال :

« لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات : اثنتين فى ذات الله : قوله إنى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فان سألك فأخبريه أنك أختى فإنك أختى فى الإسلام ،

---

(١) انظر تذييل الجزء الثانى .

فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرى وغيرك ؛ فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له :

لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتى بها ... » .

ويستمر الحديث مطابقا لما جاء فى التوراة .

وأرى أن بعض من أسلم من اليهود قد اختلق هذا الحديث وهو يحسب أنه يؤدى خدمة للإسلام ولرسول المسلمين ، فقد كان فى الأرض فى ذلك الوقت مسلمون كثيرون غير إبراهيم وسارة . فقد جاء فى القرآن : « وآمن له لوط » ، وكان إيمان لوط قبل الهجرة من أور ؛ وقد آمن إليعازر الدمشقى وخلق كثير ، فكيف يعقل أن يقول محمد —صلى الله عليه وسلم— الذى نزل عليه القرآن وفيه أن لوطا آمن لإبراهيم أن يقول على لسان إبراهيم : « فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرى وغيرك » ؟ !

وكل ما جاء فى القرآن عن إبراهيم ينفى إمكان وقوع مثل هذه السقطة التى يترفع عنها أناس لا هم رسل ولا هم أحباء الله ، كما أن الكذب صفة مذمومة لا يمكن نسبتها إلى الأنبياء . « واتخذ الله إبراهيم خليلا » ، « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » ، « واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا » ، « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار » ، « وإبراهيم الذى وفى » ، « لقد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه » .

كان إبراهيم أسوة حسنة وإنه لمن الكذب عليه أن تنسب إليه مثل هذه السقطة : ومما يدل على كذبها أنها ذكرت مرة أخرى

فى التوراة بألفاظها عندما انتقل إبراهيم من سدوم إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار : « وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى ، فأرسل « أبيمالك » ملك جرار وأخذ سارة ... » .

وذكرت أن سارة أخذت أسيرة إلى مصر فى عهد الهكسوس وقد ذكر ذلك مؤرخو العرب ، فهم يرون أن الهكسوس هم العماليق خرجوا من تهامة بأرض ب الحجاز واستولوا على بلاد ما بين النهرين وأسسوا ملك بابل وآشور ونزلوا بسورية ومنها هبطوا إلى دلتا النيل .

وإن علماء الآثار حديثا يؤيدون هذا الرأى ، يقول الأستاذ ألبرايت : « إن مسألة الهكسوس لا تزال على عسرها ، لكنها آخذة فى التكشف والإبانة من الحوادث التالية بعد البحوث التى تناولها وتلوك وستوك وكاتب هذه السطور ، فنحن نعلم اليوم أنها لا بد أن ترجع إلى الفترة بين سنتى ١٧٢٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد ، وأن قيادة الهكسوس فى يد الساميين ولم تكن حورية أو هندية آرية كما كان بعض العلماء يقدرون إلى زمن قريب ... » .

فما دامت الكشوف الحديثة تؤيد أن الهكسوس عرب ، فلا جرم إن اعتمدنا على روايات مؤرخى العرب الذين قالوا إن سنان بن الأشل بن عبيد هو ملك مصر فى عصر إبراهيم .

إنى على يقين من أن ملك مصر فى عهد يوسف من ملوك الهكسوس ، فقد كان المصريون يعتبرون ملوك الهكسوس حكاما للبلاد الأجنبية « حتاوخاسوت » ولم ينظروا إليهم أبدا على أنهم

فراعين . وجاء يقيني من أن القرآن الكريم أكد هذه الحقيقة ، فعندما كان يتكلم عن موسى كان يذكر فرعون صراحة : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق » ، « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان » ، « ونادى فرعون فى قومه قال : يا قوم أليس لى ملك مصر » ؛ أما عندما كان يقص قصة يوسف فى مصر فلم يذكر فرعون أبدا ، كان يتحدث عن الملك ، عن الحاكم الذى لم يكن أبدا من الفراعين : « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » ، « وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى » .

كان يوسف فى عهد الهكسوس ، الحكام الذين لم يكونوا من الفراعين : فإن كان يوسف فى ذلك العهد فمن المحتمل جدا أن يكون إبراهيم فى نفس ذلك العصر . وقد ذكر بعض شراح التوراة أن ملك إبراهيم وملك يوسف كان واحدا ولم آخذ بذلك الرأى ، بل أخذت برأى مؤرخى العرب الذين قالوا : إن ملك إبراهيم كان سنان بن الأشل بن عبيد ، وقوى ذلك الرأى عندى أنه وجد تمثال من عهد الهكسوس لملك أطلق على نفسه « سنحى » بمعنى العبد وهذا الاسم ترجمة لعبيد اسم جد سنان .

هذه هى جملة الاختلافات بين ما فى كتابى وبين ما فى التوراة أو الأحاديث النبوية المشكوك فى صحتها ، وجدت من الأمانة أن أضعها أمام القراء ليأخذوا ما يشاءون .

وفقنا الله وإياكم إلى الصواب .

القاهرة فى ١٩٦٥/٣/٣

المراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

بلاد ما بين النهرين — تأليف : ل. ديلابورنت — ترجمة : محرم كمال

من ألواح سومر — تأليف : صمويل كريمر — ترجمة : طه باقر

تاريخ الأمم والملوك — تأليف : الطبرى

تاريخ ابن خلدون

مصر القديمة — تأليف : الدكتور سليم حسن

فجر الضمير — تأليف : جيمس هنرى برستيد — ترجمة : الدكتور سليم حسن

أبو الأنبياء — تأليف : عباس محمود العقاد

مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة — تأليف : أدولف أرمان وهرمان رامكه — ترجمة : الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال

دراسات فى تاريخ الشرق القديم — تأليف : الدكتور أحمد فخرى

خليل الله فى اليهودية والمسيحية والاسلام — تأليف : حبيب سعيد

حياة ابراهيم — تأليف : الدكتور ف. ب. ماير — ترجمة : القس مرقس داود

شرح الكتاب — تأليف : تشارلس ماكنتوش

واحد ، اثنان ، ثلاثة .. لا نهاية — تأليف : جورج جاموف — ترجمة : اسماعيل حقى

قصص الأنبياء — تأليف : ابن اسحاق الثعلبى

رقم الايداع ٤٠٣٢ / ٧٨

الترقيم الدولى ٥ ـ ٢٧٤ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه